III

الضياء

قفطاريم بن قبطيم
يرفع الستار
مرمدة بني سلامة
أنوبيس يرقص
الفلاح الفصيح
وقفة الحائر
ثلاثة آلاف عام
الصفحات الأخيرة
الحضارة المصرية

قفطاريم بن قبطيم

عرفنا حال مصر بعد انحدار جيشها المملوكي في موقعة الريدانية وسبيل علان ، والعوادى التي جرت عليها ، ورأينا إلى أى درك انحطت البلاد ، وسامها العثمانيون والمماليك والدلاة والأرنؤد العذاب والخسف والهوان .

ونحب أن نسأل : ماذا كان يذكر أجدادنا ، الذين عاشوا هذه الضعة ، بل ماذا كان يحفظ أجدادنا كلهم من تاريخنا منذ دخول المسيحية مصر ، وبماذا كانت توحى إليهم أطلال ذلك التاريخ القديم ؟

هل طالعوا أو سمعوا بما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، ويوسيفوس اليهودى ، عن مصر القديمة ، دياناتها وآثارها ؟ لم يطالعوا شيئاً من ذلك فى الأغلب . أى أن أوربا كانت تعرف عن مصر القديمة أكثر كثيراً مما كان يعرف أجدادنا الأبعدون والأقربون . بل ما تزال أوربا تسبقنا فى كل شىء ، حتى فى دراسة تاريخنا القديم والحديث .

أى أن المصريين ، منذ العهد المسيحى ، نسوا تاريخهم ، أمجد صفحات من أيامهم ! ولا نعلم متى فقدوا الصلة بحضارتهم الفرعونية ، ومتى عجزوا عن قراءة اللغة القديمة . وإن كان الغالب أن مقاومتهم للهلينية ، علومها ومعارفها ولغتها ، واستعمالهم مع ذلك الحروف اليونانية فى كتابة لغتهم القديمة ، ثم اعتناقهم المسيحية ، وتغاليهم فى تطبيق مرسوم تيودوسيوس بإيقاف العبادات الوثنية ، كل هذا انتهى بهم إلى الانفصال عن التاريخ القديم . ومن السهل أن نتصور سر قراءة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، وقد دفن مع آخر الكهان والكتاب والعرافين ، الذين احتفظوا بدياناتهم العتيقة ، وماتوا عليها ، وعفت بانقراضهم .

ومعنى هذا ، من باب أولى ، أن ينسى المصريون المسلمون تاريخهم القديم .

وبذلك يجمع سكان وادى النيل على الاكتفاء من ذلك التاريخ بما ورد فى كتبهم المقدسة . قال المستشرق فون هامر ، فى كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« أما من جهة عجائب مصر ، فإن أكثر الناس تمدناً ، من الأتراك والفرس والعرب ، لم ينظروا إليها بالعين التى يراها الأوربيون وقدماء اليونان والرومان . فبينما يعتبر الأوربى مصر المنبع الأول للعلوم والفنون ، ومهداً للهندسة وتخطيط البلدان والعمارة والزراعة والكتابة والملاحة ، وبينما هو يحترمها ويقدسها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظم السياسية والكهنوتية والرموز الدينية ، وبينما هو يعجب بآثار عماراتها وبهياكلها وبمدافنها وأهرامها ومسلاتها وتماثيلها ، وبينما حب العلوم يحمله على مطالعة نصوصها السرية المنقوشة على ذلك الكتاب الحجرى ، الذى فتحت صفحاته منذ ألوف من السنين ، وأقيمت عند أعلى شلالات النيل ، منحدرة إلى الوادى الخصيب ، نجد أن الشرق لا يرى فى تلك الهياكل والقصور الملكية القديمة ، ولا فى تلك التماثيل الفخمة ولا فى أبى الهول ، سوى مخابئ سحرية لكنوز مدفونة ، تقوم التماثيل والصور على خفارتها . ولا يجد فى تلك الكتابة الرمزية إلا طلاسم تخفى على الناس طرق استخراج الذهب ، واستكشاف المطالب المخبأة فيها . ولقد شاركت أوربا أهل الشرق فى الاعتقاد بتلك الأوهام زمناً طويلا ، وسألت تلك الأحجار عن سر حجر الفلاسفة ، وأنكرت المعانى المستترة وراء سر الكيمياء التى نقلتها العصور الوسطى من مصر .

« على أن تعاليم الزراعة التى تحيل ماء النيل ذهباً قد حلت تلك القضية حلا طبيعياً ؛ فإذا لم ير الشرقيون فى الفراعنة والبطالسة إلا أبطال رموز وأسرار ، ولم يمكنهم أن يفقهوا عقائد مصر القديمة ، وإذا استغلقت عليهم الكتابات المطوية فى ملفات البردى ، فإن شرائع الأنبياء قد نزلت فجلت لأعينهم أرض مصر مجللة بأكاليل من النور ، غاب إشعاعه عن أهل أوربا فلم تشاهده عيونهم إلا قليلا .

« فمصر مقدسة عند أهل الشرق ، لا بذكرى يعقوب وأولاده فحسب ، ولكن بما ورد عن صلاحها فى كتاب الله ، وأحاديث الرسول . فالمسلم لا يعرف سيزوستريس ولا أوزيمانداياس ، ولا فراعنة عنده إلا فرعون الذى ملأ يوسف أهراءه ، وفرعون الذى ابتلعته مياه البحر الأحمر . ومع ذلك فقد سمع ببناة الأهرام . وهو فى الحقيقة

يسميهم بأسماء تختلف تمام الاختلاف عن الأسماء التى يعرفهم اليونان بها ، وهو يجل منهم ذكرى هرمس بصفته مبدعاً للكتابة والهندسة والعمارة ، ومنظماً لطقوس الكهنة وشرائع الأسرار ، وترجماناً بين الأرض والسماء » .

ولو قد توفر المصريون الأقباط والمسلمون على مطالعة ما جاء عن أجدادهم فى كتب هيرودوتس وديودورس الصقلى وجرجس سنسيلوس واسترابون وبلوتارك وبولبيوس ويوسيفوس ، لعرفوا بعض هذا التاريخ ، وإن اختلط بالخرافات والأساطير ، ولفهموا على الأقل ما فهمه اليونان والرومان ، ومن جاء بعدهم ، من آثار مصر .

ولكن سوء الطالع قضى بأن لا يتعدى الأقباط إلى أبعد من تاريخ المسيحية بمصر ، وأن لا يعنى العرب فى عهد الحضارة الإسلامية الكبرى بغير ما جاء فى كتب اليونان خاصًّا بالفلسفة والطب والعلوم . وأن يبقى التاريخ والأدب بأنواعه شيئاً مجهولا عندهم إلا فى أقله . وبذلك قصرت معارف المصريين جميعاً عن أن تبلغ من تاريخهم مبلغ ما عرفه الإغريق والرومان .

ولقد حاولت أن أعرف من كتب المسيحيين ما تذكر عن تاريخ مصر القديم فلم أجد إلا النزر اليسير ، فهذا العلامة غريغوريوس أبو الفرج هرون المعروف بابن العبرى لا يتحدث عن تاريخ مصر البتة ، مع أنه يعنى بتاريخ العالم منذ الخليقة ، ويكتب تاريخ الدول اليونانية والفارسية والمغولية والإسلامية ، ويترجم لعلماء المسلمين والنصارى ، ويختص بعنايته تراجم الأطباء . وكل ما تعلمته من ابن العبرى هو أن هرمس طرسميجسطس — أى المثلث الحكمة — هو إدريس العرب ، وربما كان أيضا أختوخ بن متوشالح ، وأن معلم هرمس كان أغاثاديمون المصرى ، وأن أسقليبادس الملك واحد ممن أخذ الحكمة عن هرمس . كما عرفت أن مايندروس استنبط نوعا من الشعر يسمى « قوموذيا » (كوميديا) ونوعاً آخر يسمى « طراغوذيا » ، وأن الملكة البطليموسية المشهورة ينطق باسمها « قلاوفطرا » ، ومعناه « الباكية على الصخرة » .

ولم أك أكثر توفيقاً فى قراءة كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » تأليف البطريرك أفتشيوس المكنى بسعيد بن بطريق (باتريك) ، وقد كتبه لأخيه عيسى يرد على مذهب الطبيعة الواحدة ، بعد أن يسرد التواريخ الكلية من عهد آدم

حتى سنى الهجرة الإسلامية .

وكل هذا غير مفهوم ولا معقول ، فإن تاريخ مصر القديمة لا يمكن أن يكون فص ملح ذاب بين أيدى المسلمين والأقباط . والحقيقة أنه موجود معروف متداول عند غالبية من أرخوا لمصر من الكتاب العرب . وما عليك إلا أن تتابع ما يقوله أولئك المؤرخون بعد الخليقة بقليل ، قبل الطوفان وعقب الطوفان ، لتكتشف لمصر تاريخاً هو العجب العجاب ، أقدم لك خلاصته ، لتكون على علم تام بالصورة التى كانت فى أذهان آبائنا منذ العهد المسيحى حتى الأمس القريب عن أجدادنا العظماء .

فمصر الفرعونية عند مؤرخى العرب كانت بلاد السحر والعرافة والكهانة . وقد سمع أولئك المؤرخون أن اليونان يعترفون بما للمصريين عليهم من فضل ، فيقولون بأننا عرفنا هذا عن طريق حكماء مصر ، وتعلمنا ذلك على أيديهم . وأن كهنة المصريين أسسوا علومهم على النجوم ، وأن النجوم علمتهم الأسرار ، وكشفت لهم عن الحجب ، وأن الكهنة أقاموا الشرائع العادلة ، وصنعوا الطلاسم المشهورة ، ورسموا الصور التى تبرجم ، ونحتوا التماثيل التى تتحرك ، وتخرج الأصوات ، وأنشأوا البرابى والأهرام ، ونقشوا على جدرانها أسرار الطب والعلوم .

وكانت مصر مقسمة فى أيامهم إلى خمسة وثمانين كورة، خمسة وأربعين بالوجه البحرى ، وأربعين بالصعيد ، ويرأس كل كورة كبير الكهنة .

وكان اسم مصر « إمسوس » [إجبتوس] ، ويتولى عرشها ملك كاهن اسمه عنقام من نسل عرباق بن آدم . وعاش عنقام هذا قبل الطوفان وتنبأ به . وتنسب إليه كتب الأقباط ، التى تحكى سير ملوكهم . وفى أوارق الأقباط هذه ، حديث قونية ، الكاهنة التى تجلس على عرش من نار ، إذا جاءها طالب الحق يسعى ، وكان صادقاً ، اخترق إليها النار ، فكانت عليه برداً وسلاما .

وأول من حكم مصر ، قبل الطوفان ، مصرايم بن مراكيل بن داويل بن عرباق ابن آدم . خرج مع بضعة سبعين من نسل عرباق يبحثون عن مكان يقيمون فيه بعيداً عن الناس ، فبلغوا نهر النيل وساروا بمحاذاته ، حتى وصلوا إلى بلاد الحرث والزرع ، فاستقروا بها ، وهم الذين شيدوا القصور ، وأقاموا الآثار العجيبة .

وأطلق مصرايم اسمه على حاضرة البلاد . وبنى غيرها مدنا كثيرة ، أسكن فيها الناس . وأخذ هؤلاء يحفرون الترع ليجلبوا ماء النيل إلى محلاتهم . أما قبل ذلك فكان النهر يجرى على غير نظام ، فى بطائح وسيالات وأخاديد .

وفى السنة العشرين بعد المائة من حكم مصرايم ، أمر فأقيمت الأبراج وكتبت على أسوارها أسرار الحكمة ، وقسم الملك بين بنيه ، فأعطى الغرب لنقراوس ، والشرق لسوريد ، وولى ابنه الأصغر المسمى باسمه ، مصرايم ، على مدينة اسمها بربيان .

وحكم مصرايم الكبير مائة وثمانين عاما ، ولما مات حنط جثمانه بدهان المسك ، ووضع فى تابوت من ذهب ، ومعه كنوزه وتماثيل من ذهب . وكتب تاريخ موته على القبر ، ثم صنعت الطلاسم لإبعاد الزواحف والأوابد ، وكل من حاول نبش قبره ، من إنسان أو حيوان .

ومن ملوك مصر خصليم ، وكان أول من بنى مقياسا للنيل ، وجمع لبنائه العلماء والمهندسين ، فأقاموا بيتا من زجاج على الشاطئ ، وفى وسطه حوض ماء من صفر ، وعلى حافة الحوض وضعوا عقابين من نحاس ذكرا وأنثى . ففى بدء الفيضان كانوا يجتمعون أمام تلك الدار ، ويدخل الكهنة بحضور الملك ويتلون التعاويذ ، حتى يصفر أحد الطائرين . فإن صفر الذكر جاء النيل عاليا ذلك العام ، وإن صفرت الأنثى فقل يا رحمن يا رحيم !

ومن ملوك مصر سوريد بن سهلوق ، وهو الذى بنى الأهرام التى تنسب إلى شداد بن عاد . والأقباط ينكرون أن أهل عاد دخلوا بلادهم ، بل وينكرون دخول العمالقة ! وبناها سوريد توقيا من الطوفان الذى تنبأ به الحكيم فليمون — ولعله نقل ذلك عن الملك عنقام من نسل عرباق ابن آدم ؟ — وكذلك أنشأ البرابى والآثار الأخرى ليحفظ فيها جثمانه وجثمان أهله ، وجميع ما تحتوى خزائنه . وأمر فنقشت على الحيطان والعمدان أسرار العلوم وأسماء النجوم والنباتات وخواصها ، وطريقة صنع الطلاسم . وبنى الأهرامات من الصوان الذى جيء به من أسوان ، وكانت أبوابها فى سراديب تحت الأرض ، وأقام عليها الطلاسم ، وأودع بها تاريخ الملوك وحكمهم ، وما هو مكتوب لمصر فى لوح القدر حتى آخر الزمان .

ويقول الأقباط الذين قرءوا ما كتبه على الأهرام إنه يتحدى الأجيال بقوله : « أنا الملك سوريد ، قد بنيت هذه الأهرام فى ستين سنة ، فمن أتى بعدى ، ويزعم أنه مثلى ، فليهدمها فى ستمائة عام ، علماً بأن الهدم أهون من البناء » وقيل بأن سوريد هو الذى بنى البرابى فى قفط وإخميم .

وعندما جاء المأمون إلى مصر ورأى الأهرامات ، أراد أن يهدمها ليرى ما بداخلها فعجز . ثم حاول فتحها ، وأجرى بها الفتحة الموجودة إلى الآن ، واكتشف أن عرض الحائط عشرون ذراعاً ، ودخل رجاله إلى الهرم فانحدروا فى سرداب ، وعاد بعضهم ولم يعد الآخرون ؛ وقال من نجا منهم بأنهم رأوا بالداخل وطاويط فى حجم النسور والعقبان .

وأغرق الطوفان مصر فى زمن الملك فرعان بن ميسور . وبلغ ارتفاعه ربع الهرم ، وما زال أثر الماء يرى عليه إلى اليوم .

ومع أن الفرس والهنود ينكرون بأن الطوفان شمل الأرض كلها . إلا أن المؤرخين أجمعوا على أنه أغرق الدنيا بما فيها .

وأول من حكم مصر بعد الطوفان كان مصرايم بن بيسر بن حام بن نوح . وتزوج بنت الحكيم فليمون ، فأنجب منها قبطيم . وأكمل قبطيم دينه فى شرخ شبابه — وما يكاد يبلغ التسعين عاماً ! — فرزق بقفطاريم وأشمون وأتريب وصا . وبنى مصرايم مدينة مافة ، وهى منف . وكشف فليمون للملك عن كنوز مصر المخبوءة قبل الطوفان . وعلمه قراءة الكتابات التى بالبرابى . وأنشأ فليمون على البحر المالح مدينة رقودة [راكو تيس] . التى قامت الإسكندرية إلى جانبها فيما بعد.

وقسم مصرايم الملك بين بنيه : من أسوان إلى قفط لابنه قبطيم . ومن قفط إلى منف لابنه أشمون . وولى أتريب على الحوف ، وأقام صا ملكاً على الغرب حتى إفريقية .

وحكم قفطاريم بعد قبطيم . وبنى أهرام دهشور . وأسس مدينة دندرة . وكانت مدة حكمه أربعمائة عام . وهو الذى أقام حيال قفط منارة يرى من أعلاها البحر الشرقى كله . وفى عهده اكتشف إبليس اللعين أغلب الأوثان التى أغرقها الطوفان . وأعادها إلى أمكنتها فى الهياكل . وبنى قفطاريم لنفسه قبراً فى الجبل

الغربى ، على مقربة من مدينة إرم ذات العماد ، حفره فى بطن الجبل قاعات كبيرة امتلأت بالكنوز ، وتحيط ببهو وسطها ، كسى سقفه بالجواهر . وأجلس الملك محنطاً وسط البهو على عرش يتلألأ ، وحوله آلاف من أوانى الكافور . ووضع أمام باب القبر صنمان عظيمان من النحاس ، يحمل كل منهما سيفاً ، وأمامهما مصطبة يطؤها الداخل إلى القبر ، فتتحرك ذراعا التمثالين ، وتقطع الداخلين بالسيوف .

وبنى مدينة بمصر على اسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنما من صفر ، فكان إذا بلغ تلك الأبواب غريب ، ألقى عليه النوم ، فلا يفيق إلا أن يأتيه واحد من أهل المدينة ينفخ فى دبره . وإن لم يفعلوا ذلك ، ظل الغريب نائماً حتى يموت .

ويولى البودشير بعد قفطاريم ، وكان عالماً فاضلا فى الطلسمات والكهانة والسحر ، وله أعمال عجيبة ، منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، وأقامها فى الفضاء ، فكان لا يمر بها وحش ولا طير إلا وتسمر فى مكانه ، لا يستطيع حراكاً حتى يؤخذ باليد ، فشبعت الناس فى أيامه من لحوم الوحش والطير .

وفى زمانه قام هرميس على خدمته ، فأرسله للكشف عن منابع النيل ، وصنع الطلاسم هناك .

وفى أواخر حكمه ، اختفى البودشير عن الناس ، وأقام فى السحاب ؛ ثم ظهر لقومه عند طلوع الشمس وهى فى برج الحمل ، ونادى على الجند ، وأمرهم بتولية ابنه عديم ، وكان عديم جباراً عنيداً ، لم يحكم إلا مائة وأربعين عاماً ؛ وهلك فى العام الثلاثين بعد التسعمائة من عمره . وخلفه شداد وهو غير شداد بن عاد . وشداد هذا هو بانى معبد أرمنت ، كما أنشأ معبداً مماثلا بمدينة أنصنا . وهو أول من خرج إلى الصيد ، فاستألف الكلاب السلوقية من الذئاب ، ومات فى سن الزهور ، وعمره أربعون وأربعمائة عام . وكانت مدة حكمه قصيرة ، لم تزد على التسعين عاماً .

وخلفه منقاوس الذى قسم مغل مصر إلى أربعة أنصبة : ربع للملك ، وربع للجيش ، وربع لاستصلاح الأرض وإقامة الجسور والقناطر ، وحفر الترع ، وربع للطوارئ . وكان إيراد مصر فى زمانه ثلاثة ومائة مليون دينار ، وكانت البلاد

مقسمة إلى ثلاثة ومائة كورة . ولكن كور مصر الآن خمسة وثمانون فقط .

وورثه ابنه متاوس ، وهو أول من عبد العجل فى مصر .

ومن ملوك مصر أشمون بن قبطيم ، وكان من أعظم ملوك مصر ، على قول القبط ، وحكم ثمانمائة عام ، وكان ملكه قد وقع فى أيدى أبناء عاد فى السنة الستمائة ، ولكنهم غادروا البلاد ، بعد أن أقاموا فيها تسعين عاماً . وفى عهد أشمون أنشئت مدينة البهنسا .

وتولى بعده ابنه مناقيوس ، وكان أول من صنع الميزان ؛ ثم مرقورة وهو فى كتب القبط أول من استألف الأوابد ، وروض السباع ، وركبها ذلولا . وتولى ابنه بلاطس وكان طفلا ، فأدارت المملكة أمه مرهبة ، وكانت امرأة حازمة عاقلة . وانتقل الملك إلى عم بلاطس ، وهو أتريب .

ومن ملوك مصر طوطيس . ويقول القبط إنه أول الفراعنة بمصر ، وهو الذى حاول اغتصاب سارة زوجة إبراهيم ، وكان إبراهيم ، حين وفد على مصر ، ادعى أنها أخته . وكلما هم بها الفرعون وقفت ذراعه وتيبست ، فيطلب إلى سارة أن تدعو ربها فيبرأ ، ويعود إلى مراودتها عن نفسها ، فتجف ذراعه ، وهكذا دواليك حتى يتوب ، فيقدم سارة إلى ابنته حورية ، فتتعلق حورية بها ، وتهدى إليها جارية قبطية اسمها هاجر ، هى أم إسماعيل .

وبعد طوطيس حكمت حورية ، وهى التى وجه إليها ملك سورية العمالقى جيشاً بقيادة جيرون . ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن الذى غزا مصر حينذاك هو الوليد بن دومع ، وأن الوليد هو الذى أعاد بناء الإسكندرية بعد أن دمرها أهل عاد . وتجىء هنا حكاية الراعى والجنية البحرية التى أوردت نصها فى كتابى : « حديث السندباد القديم » .

وبالوليد بن دومع تبدأ أسرة العمالقة بمصر ، ويخلفه فى الحكم الريان بن الوليد ، أسلادس ، وتسميه القبط نهراوس ، وكان طويل القامة جميل الخلقة ، عالماً بالطلسمات ، بدأ حكمه بالعدل والقسطاس ، ثم خضع لروح الشر ، وانغمس فى الفجور ؛ وترك الحكم لواحد من رجاله اسمه قطفير ، وهو الذى يعرف بالعزيز ، وكان حاكماً عادلا نزيهاً . قال الواقدى إن الريان بن الوليد هو الذى بنى

قصر الشمع [حصن بابليون] ولم يزل القصر عامراً ، حتى خربه بختنصر ، عندما دخل مصر . وأقام القصر خراباً نحو خمسمائة سنة ، لم يبق منه إلا الرسوم . فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس ، وجعله بيتاً لعبادة النيران . قال وهب بن منبه إن الريان كان مؤمناً على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ، وكان يكتم إيمانه خوفاً من فساد ملكه . وفى أيام الريان ، بنى يوسف مدينة الفيوم ، وقيل إنها بنيت بالوحى إلى يوسف على لسان جبريل عليه السلام . وعمرها يوسف فى مدة يسيرة ، فلما نظر إليها الملك الريان ، صار يتعجب من سرعة بنائها ، وقال هذا كان يعمل فى « ألف يوم » فسميت الفيوم .

واستمر الريان حتى هلك ، فاستقر يوسف مكانه .

وبعد ذلك تولى على مصر ملك يقال له داروم ، وهو الفرعون الثالث . أما الفرعون الرابع عند القبط فهو دريموس ، وكانت له أعمال وصنائع عجيبة ؛ منها أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار — كالفرن الكهربائى فى أيامنا — وعمل سكيناً منصوباً تأتى إليه البهائم فتذبح فيه نفسها من غير يد — الذبح الأتوماتيكى! — وكل هذا من باب علم النارنجيات .

أما الفرعون الخامس فهو الذى يقال له ميلاطس بن دريموس ، وقد غرق فى النيل ، وطفت جثته أمام شطنوف .

والفرعون السادس هو فرعون موسى ، واسمه عند القبط طلما بن قومس . قال وهب بن منبه : كان اسمه الوليد بن مصعب ، وكان أصله من مدينة بلخ ، وقيل بل من أرض حوران من نواحى الشام ؛ وكان عطاراً فتجمد عليه دين . فخرج على وجهه حتى دخل مصر . وكانت صفته أعور ، وطول لحيته سبعة أشبار ، مع قصر قامة وعرج ؛ ولم يزل قائماً بملك مصر حتى هلك فى أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق . فعند ذلك طغى وتجبر ، وقال أنا ربكم الأعلى . قال وهب ابن منبه : عاش فرعون موسى أربعمائة سنة ، وهو منفرد بملك مصر ، ولم يزل فى النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، غرقاً فى البحر . قال إبراهيم بن وصيف شاه إن خراج مصر كان يجبى فى كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار .

ولم يزل فرعون قائماً بمصر حتى هلك وأغرقه الله تعالى ، لما خرج فى طلب موسى وبنى إسرائيل ؛ وقيل غرق فى بركة الغرندل المعروفة فى التوراة باسم بحر سوف .

قال القضاعى : لما أغرق الله فرعون وقومه ، صارت مصر ليس بها أحد من أشراف أهلها سوى العبيد والأجراء والنساء ، فكانت المرأة تعتق عبدها وتتزوج به ، والأخرى تتزوج بأجيرها . كنّ يشرطن عليهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ؛ وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط إلى اليوم ، لا يبيع أحدهم ولا يشترى حتى يستأذن زوجته — والواقع أن أمر هذا معروف فى القانون المدنى أيام الفراعنة — ثم إن النساء اجتمع رأيهن على تولية امرأة منهن ، يقال لها دلوكة ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة ، فلكوها . وأنشأت دلوكة على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحفظت قرى مصرى وضياعها بذلك الحائط ، وجعلت له حراساً ، وجعلت عليه أجراساً من نحاس ، يحركها الموكلون بها إذا أتاهم طارق يخافونه ، فيسمعها من بالمدينة فيستعدون لقتالهم . وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن بأعلى بلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : إن دلوكة لما تولت على مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدورة [تيودورة] وكانت ساحرة عظيمة ، فعملت بربا من الحجارة فى وسط منف ، وجعلت لها أربعة أبواب بالجهات الأربع ، وصورت بها فى كل جهة صور الخيل والبغال والإبل والحمير والسفن والرجال . وقالت لدلوكة قد عملت لكم عملا يهلك به من أرادكم بسوء من بر أو بحر . فكان إذا قصد إليهم أحد من الملوك الجبابرة ، وعجزوا عن قتاله ، يدخلون فى تلك البربا ويقطعون رءوس تلك الصور ، أو يفقئون أعينها ، فهما فعلوا فى تلك الصور ، يؤثر ذلك الفعل فى عسكر الملك الذى يقصدهم . فامتنعت عنهم الملوك ، ولم يقدروا على بلادهم فى أيام دلوكة . وأقامت دلوكة فى ملك مصر نحو ثلاثين ومائة سنة ؛ ولم تزل مصر ممتنعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت ، فلم يقدر أحد على إصلاح ما يفسد من تلك الصور .

قال المسعودى : لما هلكت دلوكة انتشأ من بعدها شخص من أولاد أشراف القبط يقال له دركون بن نكوطس ، فوقع الاتفاق من الجند على توليته ، فأقام فى

الملك مدة طويلة وهلك ، فتولى من بعده شخص يقال له مرنيوش ، فأقام فى الملك مدة ، وفى أيامه قدم بختنصر إلى مصر ، وجرى منه ما جرى من إخراب مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبى نسائها ، ولم يترك بها شيئا من الطلسمات والحكم ، وأخرب غالب البرابى التى كانت مودعة بها تلك الحكم . فلما خرب بختنصر مصر ورحل عنها ، أقامت بعد ذلك أربعين سنة خراباً ليس بها ساكن ولا متحرك ، فكان نيلها إذا زاد ينفرش على الأرض ثم يهبط ولا يجد من يزرع عليه وينتفع . ثم بعد ذلك عمر مصر أخلاط من الأمم ما بين قبطى ويونانى وعمليق ، ولكن أكثرهم كانوا قبطاً ، وأكثر من ملك مصر الغرباء . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد ، إلى آخر من تولى منهم وهو . . المقوقس .

وبذلك يسلمنا هذا التاريخ الأسطورى إلى ما نعرفه من وقائع الفتح العربى .

* * *

ولقد عجز المؤرخون فيما يبدو عن تقصى مصدر كل هذه الأساطير . وقال البارون كارّا دى ڤو ، وهو الذى ترجم إلى الفرنسية مخطوطة « مختصر العجائب » ، التى نقلنا عنها الكثير مما أوردناه ، بأن الغالب أنها كل ما بقى لدى الأقباط من تاريخ بلادهم .

وللمسعودى قصة فى « مروج الذهب » تؤيد كلام دى ڤو كل التأييد . قال إنه سمعها وهو فى مصر أيام الإخشيديين :

« وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه ، فى سنة نيف وستين ومائتين ، أن رجلا بأعالى مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، من الأقباط ممن يشار إليه بالعلم من لدى حداثته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها . . . برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه ، فحمله فى النيل إليه مكرماً . وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر إلى رجل دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن نفسه . فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب ، فأبى أن لا يتوطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء حمله معه من كعك وغيره وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء وهذا الملبس . فإن أنتم سمتموها النقلة عن هذه العادة ، وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس ، كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة . فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته . وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الديار ، وصرف همته عليه ، وأخلى نفسه له فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراداته ، وجواباته فيما سئل عنه . فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط . . . قيل له فما منتهى النيل فى أعاليه ، قال : البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى الليل والنهار فيها يتساويان طول الدهر ، وهى تحت الموضع الذى يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » . وما ذكرت فمعروف غير منكر .

« وسئل عن بناة الأهرام فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم ، إذا مات ، وضع فى حوض حجارة يسمى بمصر والشام ، الجرن ، وأطبق عليه ؛ ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ؛ ثم يحفر له طريق فى الأرض بعقد أزج . فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر ؛ ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت . فقيل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة . وعلى أى شيء كانوا يصعدون ويبنون ؟ وعلى أى شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ، إن قدروا ؟ فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج ، فإذا فرغوا منه ، نحتوه من فوق إلى أسفل ؛ فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم وديانة .

« فقيل له : ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ ؟ فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومى ، كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها ، على حسب ما ولّدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى ، فذهب عنهم كتابة آبائهم .

« فقيل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال: أول من نزل هذه الأرض ، مصر بن بيصر بن حام بن نوح ومر فى أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الأرض .

« فقيل له : أتعرف فى مصر مقاطع رخام ؟ قال: نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر ، فمنها العمد والقواعد والرؤوس التى تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمد التى بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير ، لا يعلم بالعالم عمود مثله ؛ وقد رأيت فى جبل أسوان أخاً لهذا العمود ، قد هندس ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحكّ ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم . . .

« وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية .. وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه ، فأبى قبول شىء من ذلك ،فرده إلى بلده مكرماً ؛ وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك . وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرناه عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك » .

هذه قصة لا شك فى صحتها . ولست متأكداً إن كان الشيخ القبطى يقصد عمود السوارى بالإسكندرية أم المسلة التى كانت قائمة قرب محطة الرمل ، والتى كانت تعرف بمسلة كليوباترة . لأنه رأى فى أسوان أخا هذا العمود ، وكلنا نعرف المسلة التى لم تفصل من صخرها بقرب أسوان ، والتى ما نزال نرى بها كسراً ، يظن بأنه كان السبب فى العدول عن استخراج تلك المسلة .

وقول المسعودى بأن للعجوز « مصنفات » . ومعناه أن كانت لدى الأقباط كتب تحوى صفحات من التاريخ القديم ، يختلط فيها الواقع بالأساطير .

والواضح أن ما بقى لنا من واقعها نزر يسير . أما الأساطير فهى التى طالعنا بعضها فى هذا الفصل . وإن ثقتى بأبى الحسن المسعودى . وإعجابى بتفكيره المنطقى السليم ، وبأسلوبه العلمى ، بقدر ما وعاه زمانه ، تغرينى بأن أزعم أنى وضعت إصبعى فى هذه القصة على مصدر من مصادر التاريخ الأسطورى لمصر . ولست أدعى أن يكون هذا الشيخ القبطى وحده هو مصدر ذلك التاريخ ، وإنما هو واحد من أسلافنا المسيحيين الذين احتفظوا أباً عن جد ، بأصداء تاريخنا القديم . عندى أن ما جاء فى الكتب العربية تاريخاً لمصر الفرعونية — وقد درج أصحابها على أن ينقل بعضهم عن بعض دون تحرج — منقول عن الأحاديث التى كان يدلى بها أمثال ذلك الرجل .

قال المسعودى : « وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخميمى الزاهد . وكان حكيماً ، وكان له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها . وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى وزارها . وامتحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته ، فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة ، وتبينها فى ذلك القلم الأول ، فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدرى   ورب النجم يفعل ما يريد

« وكانت هذه الأمة . التى اتخذت هذه البرابى . لهجة بالنظر فى أحكام النجوم . مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها أن طوفاناً سيكون على الأرض . . . فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها . فاتخذت هذه البرابى . واحدها بربا ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة . وجعلت بنيانها نوعين : طيناً وحجراً . وفرزت ما يبنى بالطين . مما يبنى بالحجر . وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما يبنى بالطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم . وإن كان الطوفان الوارد ماء . أذهب ما يبنى بالطين . ويبقى ما يبنى بالحجارة . وإن كان الطوفان سيفاً . بقى كلا النوعين . ما هو بالطين وما هو بالحجر . وهذا ما قيل . والله أعلم ، كان قبل الطوفان . وإن الطوفان الذى كانوا يرقبونه لم يعينوه

أنار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها ، وملك نزل عليها ، فأباد أهلها ، ومصداق ذلك . . . ما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض فى كهوف وغيران ونواويس ، ومواضع كثيرة من الأرض ، لا يدرى من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ، ولا تاريخ ينبئ عن حالهم . عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد فى تلك الجبال والروابى من حليهم . والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب ، كالبربا الموجودة بأنصنا ، والبربا التى ببلاد إخميم ، والبربا التى ببلاد سمنود . . . والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الدائرة ، لا يدرى ما تلك الكتابة ، ولا المراد بها . . . وأن ذلك علوم وخواص ، وسحر وأسرار للطبيعة » .

قال المسعودى : « وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد ، وغيره من بلاد مصر ، من أهل الخبرة ، عن تفسير فرعون ، فلم يخبرونى عن معنى ذلك ، ولا تحصل فى لغتهم ، فيمكن – والله أعلم – أن هذا الاسم كان سِمَةً للملوك تلك الأعصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية » .

وعندما يسرد المسعودى التاريخ الأسطورى لمصر يبدأه بقوله : « ثم يحكى المسعودى ، عن جماعة من الشرعيين ، أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده ، وكثير من أهل بيته ، غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة : مصر بن بيصر ، ونوف بن بيصر ، وساح ، وباح ، فنزل بموضع يقال له منف ، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا . . . »ثم واصل قصة الملوك القدماء الذين حكموا مصر ، من أمثال الريان بن الوليد ، وطلما ، والملكة دلوكة صاحبة حائط العجوز ، بما لا يختلف كثيراً عما نقلناه عن كتاب « مختصر العجائب » : الذى ينسب إلى إبراهيم بن وصيف شاه ، ويظن البعض أنه منقول عن كتاب المسعودى المفقود ، الذى يشير إليه كثيراً فى « مروج الذهب » ، باسم « أخبار الزمان » .

يرفع الستار

سنة ١٨٥٢ ، فى عهد عباس الأول ، إرادة لمدير الجيزة :

حيث إنه يوجد آثار قديمة فى نقط مختلفة ببلدة سقارة التابعة لمديريتكم كان قد أعطيت رخصة حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط أن لا ينقلوا منها شيئاً للخارج . . . ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لهم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية يخفونها وينقلونها للخارج سراً ، وحيث إن نقل الآثار والمومياء للخارج أمر ممنوع جداً ، فيجب بعد الآن الاهتمام بها ، ومنع إخراجها كلما ظهرت . ولأجل منع الأهالى من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها ، يلزم أن تعينوا شخصاً مؤتمناً بواسطتكم . . . وتقيموه فى محل الاستكشاف ، ليراقب الحفر بدقة عظيمة ، ويمنع تسرب الآثار المكتشفة للخارج ، ويعتنى بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس . لتحفظ هناك وتبقى سليمة من التلف والضياع ، حسب رغبتنا . ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالى والأجانب استحوذ على شىء من هذه الآثار . . . تأكد أنى لا أنظر فى وجهك مرة ثانية ، وسأصدر أمرى حالا بعزلك ، وفصلك من المديرية . (مترجم عن التركية)

صح النوم يا أفندينا !

وفى هذه السنة اكتشف أوجست ماريت فى سقارة مقبرة العجل أبيس المعروفة بالسرابيوم .

* * *

سنة ١٨٥٧ . فى عهد سعيد ، إرادة لعبد القادر بك مدير القليوبية :

كما ورد فى كتاب الموسيو أوغسطس ماريت الذى قدم لطرفنا كشف الجهات المأمول وجود آثار قديمة فيها ، لإخراجها ووضعها فى دار الآثار المزمع تأسيسها وإنشاؤها ، تنفيذاً لرغبتنا . . . وحيث أن الآثار الملحوظ كشفها وإخراجها ليست لغيرنا بل لذاتنا فبناء عليه . . . (مترجم عن التركية)

سنة ١٨٥٨ ، فى عهد سعيد ، أمر عال للداخلية منطوقه :

إنه قد عرض لدينا من موسيو ماريت عن بعض طلبات مختصة بأشغال عملية الأنتيقة مأموريته ، ويريد إصدار أوامرنا عنها ، ومن الجملة ما هو موضحاً بيانه بأعلى أمرنا عنه ، واقتضت إرادتنا تأديته بمعرفة الداخلية ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لإجرى ذلك ، والثلاثة أود أن يعطوا له فى المحل الذى تستنسبه الداخلية ببولاق. والموسيو وسالى تصرف له ماهيته من الميرى فى المدة المذكورة ، وبمقتضاها يرفت كما اقتضته إرادتنا. (نص أصلى)

سنة ١٨٥٨ ، فى عهد سعيد ، أمر عال لمديرية قنا وإسنا ، منطوقه :

إن موسيو ماريت قد أنهى إلينا عن بعض أشياء تختص بعملية الأنتيقة مأموريته ، ويريد إصدار أوامر عنها ، من ضمنها مادة العشش الكائنة على هيكل إدفو اللازم تخليتهم ، وإن كان رأى مع موسى بك أنه يمكن استعواضهم على أربابهم بمبلغ أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف غرش ، ثم لزوم قدر أربعين

حمار لأجل أشغال الفحت ، كذا يريد إعطا الريسا اللازمة على الأنفار الشغالة من كل مديرية ، الذى يعين أسماءهم ، تمكن يكون لهم دراية كافية بالمحلات الموافقة . ليكونوا مأذونين بإدارة الفحت . باعتبار كل خمسين نفر واحد نفر ريس تقريباً ، ويحسب لكل واحد منهم يومى أربعة أو خمسة غروش مدة أيام الشغل فقط . وحيث من وافق إرادتنا إجابت الموصى إليه فى طلباته هذه ، فقد أصدرنا أمرنا لباقى المديريات فى خصوص الريسا المقتضى طلوعهم من مديرياتهم . وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لأجل تهو مادة العشش . ومشترى الحمير . وإعطى الريسا المختصة بمديريتكم على الوجه المشروح ، كما اقتضت إرادتنا . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٣ . فى عهد إسماعيل . إرادة لمصطفى الكريدلى باشا . محافظ مصر :

حيث إن ماريت بك عرض علينا لزوم تخصيص الشونة الموجودة أمام دار الأنتيقة خانة الكائنة ببولاق لوضع الآثار . لأن دار الأنتيقة خانة الحاضرة غير موافية للغرض ، فبناء عليه وافق إرادتنا تخصيص وإعطاء الشونة المذكورة لوضع الأنتيقة . فيجب أن تبادروا بالإجرى بمقتضاه .

تحشية : الشونة الموصى إليها ليست شونة الميرى الكبيرة المعدة لوضع الغلال . بل هى العربخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية . لذلك وضحنا لكم بهذه التحشية .

(مترجم عن التركية)

سنة ١٨٦٣ . فى عهد إسماعيل . أمر عال لديوان المالية . منطوقه :

قد عرض علينا الإنهى الوارد من مدير الآثار التاريخية . . . بناء على أمرنا الشفاهى السابق إليه عن تنظيم الأنتيقة خانة تكون جاهزة للتفرج عليها وأن تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قايمتها ، وأوضح بأنه أجرى العمل . ومن أول شهر نوفبر صار فتحها . وكثير من المتفرجين يحضروا للتفرج عليها . ولكون المصاريف التى صرفت على ذلك تبلغ خمسة وخمسين ألف فرنك وأربعين فرنك وخمسة وخمسين سنتيم يرام صدور الأمر بصرفه . وبترجمة القوايم التى وردت مع الإنهى المذكور . . . وحيث وافق إرادتنا صرف ذلك المبلغ إلى أربابه . بعد المراجعة وأخذ السندات اللازمة . فقد أصدرنا أمرنا إليكم . والقوايم المذكورة والجدول المحرر عنهم ، وإفادة أمين الأنتيقة خانة . مرسولين لطرفكم معه عدد ٢ ق لإجرى صرف المبلغ . . . الذى توضح عنه على وجه ما ذكر ويخصم بالأبعادية . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٩ ، فى عهد إسماعيل ، أمر كريم صادر للمالية منطوقه :

ماريت بك مدير الأنتقخانة أعرض لطرفنا بأن ولو أنه نتج من عملية الفحر على الآثار القديمة بمقتضى أوامرنا استكشاف جملة آثار تكون منبعاً لعلم التاريخ مدة طويلة . غير أنه لا يتم هذا المقصد إلا بنشرها وتعميمها ، وحيث لا يكتفى الحال بجمع وتخزين هذه الأدوات والمهمات فقط . ويلزم للوصول لإتمام هذا المقصد ، إعمال مؤلف يتركب من ستة مجلدات . فى الكامل ، تحتوى ثلثماية صورة ، ولأجل إعمال ماية نسخة من هذا المؤلف ، يتكلف جميع ذلك ثمانين ألف فرنك كالبيان الموضح بأعلاه ، وبما أن نشر وتعميم ذلك فيه منافع عمومية وخدمة مفتخرة لعلم التاريخ . قد وافق إرادتنا قبول ذلك وتأدية المبلغ المرقوم إلى البيك المومى إليه فى باريس بالإحالة على بيت مسيو براويه ، بشرط يصرف له كل سنة ربع المبلغ فقط ، حتى يتم على أربعة سنوات حسب إنهاه . ولاعتماد الإجرى على الوجه المشروح ، أصدرنا أمرنا هذا إليكم . (نص أصلى)

لم يكن حديثى فى الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر الخرافى لمجرد الفكاهة والتندر . إنما هو منطق الكتاب دفعنى إلى محاولة تحديد الحالة الفكرية التى كان عليها آباؤنا وأسلافنا منذ انهارت الحضارة المصرية القديمة ، وتحولنا عن الوثنية إلى المسيحية ، وقضينا على آخر صلة لنا بماضينا عندما كتبنا لغتنا بأحرف يونانية ، فضاع مفتاح الكتابة المصرية مع آخر العارفين بها من الكتاب والكهان . وآن لنا أن نصعد فى التاريخ ونهبط . نتابع أدوار التحول من أساطير التاريخ المصرى القديم ، إلى بعض وقائعه ، بفضل الكشف عما بقى من آثاره .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » :

« ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق . وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض . وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب ، إلى هذه الغاية (أى إلى زماننا هذا سنة ٣٣٢ هجرية) .

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب . ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة فى بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام [أى الكتابات] السابقة . فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلبا عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم فى حفره . وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه ، فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخر . منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب . قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء . والصور المختلفة . منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال . أعينهم من أنواع الجواهر . كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد . ومنها ما وجوهها من ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمماً بالية . وأجساماً فانية . وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى [جمع برنية] . وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب . وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق . وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منها على النار . ففاح منها روائح طيبة مختلفة . لا تعرف فى نوع من الأنواع

التى للطيب ؛ وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر ، أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملك [الإخشيد محمد بن طغج] . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض – أعنى أرض مصر – أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه (انظر الفصل السابق) دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، [٩٣٩ م] .

« وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر ، إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة – أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيبت فى هذه المطالب من القبور والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق » .

* * *

أما ترى فى هذه الفقرة وصفاً بديعاً للكشف عن مقبرة مصرية قديمة : « حجارة مجوفة فى صخر » ، أى نواويس . « منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب » ، أى توابيت أغطيتها على شكل الميت . « فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فيها رمماً بالية وأجساماً فانية » . أى مومياء « وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام » . وهى الأوانى المعروفة بالكانوب . « وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل » ، أى التوابيت الخشبية . « تمثال من حجر المرمر أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور » . أى تمثال القرين « كا » . أو ما أسميه « عفريت الميت » . إلى آخره !

وقد تنبهت إلى فقرة وردت فى تاريخ حياة أحمد بن طولون بكتاب (مصر فى العصور الوسطى » للدكتور على إبراهيم حسن ، حيث يقول (صفحة ٨٢ من الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٥٤) :

« وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالا قد لا تتمشى مع موارد البلاد فى هذا العصر ، فإن خراج مصر فى عهده لم يزد عن ٤,١٠٠,٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن ابن طولون قد عثر على كنزين كبيرين ، أحدهما فى الصحراء ، والآخر فى الجبل . ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكنزين » .

هل يقوم لديك شك فى صحة ما ذهب إليه أولئك المؤرخون . بعد مطالعة ما يقوله أبو الحسن المسعودى عن البحث عن الدفائن والمطالب : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد ابن طولون وغيره ، إلى هذه الوقت ، أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر . . . » إلى آخر الفقرة .

* * *

والعجيب أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . وقد زار دار البعثة العلمية الفرنسية ، وترك لنا وصفاً طريفاً لهذه الزيارة، لم يشر إلى عملها الكبير فى وصف وتسجيل الآثار المصرية .

ولكنه أشار فى سلخ عام ١٢٣٢ هـ (أى عام ١٨١٧ م) بصف سائحين إنجليز يزورون الأهرام . وينهبون الآثار . وإليك الفقرة كلها كما وردت فى الجزء الرابع من « عجائب الآثار » :

« ومنها أن طائفة الإفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة . الكائنة ببر الجيزة . غربى الفسطاط . لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات . والفحص عن الجزئيات . وخصوصا الآثار القديمة وعجائب البلدان. والتصاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى . بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم. بقصد هذا الغرض، ويصرفون لذلك جملا من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم ؛ حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد . وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية . بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلى ؛ ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التى كان عليها فى حال حياته ؛ وتماثيل آدمية من الحجر السماقى الأسود المنقط الذى لا يعمل فيه الحديد ، جالسين

على كراسى . واضعين أيديهم على الركب ، وبيد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى . والشخص مع كرسيه قطعة واحدة . مفرغ معه . أطول قامة من الرجل الطويل ؛ وعلى رأسه نصف دائرة منه فى علو الشبر . وهم شبه العبيد المشوهى الصورة . وهم ستة على مثال واحد ، وكأنما أفرغوا فى قالب واحد ؛ يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين . وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضا رأس صنم كبير . دفعوا أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيسا (نحو ثمانين جنيها) . وأرسلوها إلى بلادهم ، لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ؛ وذلك عندهم من جملة المتاجرة فى الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى . وسيدى إبراهيم المهدى الإنجليزى . إلى بيت قنصل بدرب البرابرة . بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية . وشاهدت ذلك كما ذكرته . وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم . وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون . التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

« وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام . وأذن لهم صاحب المملكة . فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان . وعبروا إلى داخلها . وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره ؛ ونزلوا إلى الزلاقة . ونقلوا منها ترابا كثيراً وزبلا . فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك . هذا ما بلغنا عنهم .

« وحفروا حول الرأس العظيمة التى بالقرب من الأهرام . التى يسميها الناس رأس أبى الهول . فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد . ممتد كأنه راقد على بطنه . رافع رأسه . وهى التى يراها الناس . وباقى جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال ؛ وساعداه . من مرفقيه . ممتدان أمامه . وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر . عليه نقوش شبه قلم الطير . فى داخله صورة سبع مجسم . من حجر مدهون بدهان أحمر . رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ؛ رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل . ورأيته يوم ذاك .

« وقيس المرتفع من جسم أبى الهول . من عند صدره إلى أعلى رأسه . فكان اثنين وثلاثين ذراعا . وهى نحو الربع من باقى جسمه . وأقاموا فى هذا العمل نحواً

من أربعة أشهر . . .

« . . . ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الإفرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضى الصعيد ، والفحص وفحر الأراضى والكهوف والبرابى ، واستخراج الآثار القديمة ، والأمم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى » .

وبعد ذلك لا نجد فى تراثنا غير الإرادات والأوامر العالية التى نقلنا طرفا منها فى صدر هذا الفصل ، والتى ندرك منها أن الولاة بدءوا يتنبهون ، تحت تأثير الأجانب ، إلى أهمية « الأنتيقة » . ويغلب على ظنى أنهم كانوا يطمعون ، كأسلافهم ، فيما يمكن أن تؤدى إليه « مادة الفحت » من كنوز مخبوءة . ولكنهم على كل حال اعتنوا بأمر الرجل الذى تدين له مصر والعلوم الإنسانية بدين كبير ، وهو أوجست ماربيت ، وسلموا إليه « الشونة المومى إليها » ، وليست شونة الميرى الكبيرة لوضع الغلال ، بل هى العربخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية » ، كما جاء فى « التحشية » ، لتضم إلى « دار الأنتيقة خانة ، الغير موافية للغرض » .

والحق أن قائمة الشرف — التى يثلج صدورنا أن تنتظم أخيراً أسماء مواطنينا ، تحت اسم أحمد كمال — تبدأ بالبعثة العلمية الفرنسية ، فشامبوليون ، فماربيت ، فلپسيوس . أولئك هم مؤسسو علم العاديات المصرية ، أو المصرولوجيا كما أحب سلامة موسى أن يسمى الإجيتولوجيا .

وضياع كنوزنا الأثرية ، وانتقال الكثير منها إلى متاحف العالم كله — حتى ذلك المتحف البسيط ، الذى زرته ببلدة صغيرة من بلاد المجر ، يحتوى على مومياته المصرية بتابوتها ! — وإلى أيدى الأفراد ، بدأ منذ عهد الأسرات بسرقة المقابر . وهناك قضية مشهورة فى التاريخ القديم عن عصابة من لصوص المقابر ، حدثت فى عهد رمسيس التاسع ، حين اتهم عمدة طيبة زميله ، رئيس حرس المدافن الملكية ، بالتستر على اللصوص ، وبأن مقبرة أمنحوتب الأول قد نهبت . وأجرى تحقيق على يد لجنة عليا اعترف أمامها أحد أفراد العصابة بسرقة هرم شبسسكاف ، وأقر على شركائه .

ولعل أهون الخطب أن تسرق الآثار . وتنتهى إلى مكان أمين ، سواء بمصر أو بالخارج . إنما الطامة الكبرى هى فيما انهار منها تحت معاول الهدم . أو ذاب فى بوتقة الصائغ . أو احترق فى شبشبة الساحر . ولو استطاع الرهبان المصريون أن يسووا بالأرض كل ما كان قائماً من آثار الوثنية المصرية ، لفعلوا ، ولكنهم عجزوا فى كثير من الأحوال . أو،هم فضلوا بناء بيعهم مستندة إلى صروح المعابد ، وتعميد كنائسهم فى قاعاتها الداخلية. هذا إلى أنهم حولوا المدافن المنهوبة إلى « قلايات» لإقامتهم وتعبدهم . وكانوا يطمسون على نقوشها وصورها بالملاط أو الطين مخلوطا بالتبن ، حتى لا يوسوس الشيطان لهم . وكان فى هذا الطين والملاط ، الذى طمسوا به حوائط المعابد والمقابر ، ما حفظ صورها على طول الزمان. ولم يكن المصريون المسلمون أكثر رحمة بآثارهم من إخوانهم المسيحيين . وقد طالعنا . فيما اخترناه من كلام المسعودى، صورة مما حدث على مدى آباد التاريخ المصرى . من تدمير وتحطيم، بحثا عن الدفائن والمطالب .

وكان أهلنا ، إلى عهد قريب منا ، يضعون أيديهم على كل ما تصل إليها من قطاعات الأعمدة ، ليستعملوها حجارة رحى . ومن لوحات تذكارية « ستيلا » ، ليبسطوها عتبات بيوت ، وعقود أبواب . وكانت بعض المعابد تتحول إلى محاجر . . . وقمائن جير . هذا إلى ما نقل من أعمدة المعابد ، لإقامة الكنائس والمساجد . ثم تلك المدن الكبرى التى هجرها الناس ليسكنوا قراهم الحقيرة ، لم تترك لينهال عليها تراب الزمان ورماله ، بل ساعد الأهلون على دفنها ، إذ كانوا يحيلونها إلى مقالب لقماماتهم ، وكأنهم يعبرون بذلك عن كرههم لتلك « الكفريات » ، وخوفهم من العفاريت وفعل الطلاسم . وإنهم لعائدون إلى تلال القمامة فى الغد القريب ، سباخين يستخرجون منها سمادا كفرياً لزراعاتهم .

وقد حرصت على وضع نصوص الأوامر العالية فى صدر هذا الفصل بسبب قرب أولها من عهد محمد على . وكان من أشد العهود نكيرا على آثار أجدادنا . وكأنه لم تكف هذه الآثار أن تنال منها القرون والأجيال ما نالته : بل جاء نشاط محمد على فى بناء المصانع — التى أفلست كلها — وقضى فى أقل من ربع قرن على أكثر مما محاه الفرس واليونان والمسيحيون والمسلمون والمغامرون الأجانب مجتمعين .

ويقدر إرنست رينان أن تلك المصانع ، وبناء القصور ، أزالت من على وجه البسيطة ما لا يقل عن عشرة معابد كبيرة .

والآثار التي نراها الآن قائمة فوق الأرض ، ونجوس فى رحابها وأبهائها ، لم تكن حتى القرن الماضى غير حجارة مبعثرة فى الفلاة ، أو أعمدة مدفونة إلى أكثر من نصفها فى الرمال ، وتحت تلال من القمامة*، وكانت بعض المعابد قد تحولت إلى كفور وعزب وساحات موالد وأسواق . ويكفى أن نقلب صفحات الكتب التى سجلت صور هذه الأطلال ، منذ البعثة الفرنسية ، لنتحسر على ما صنعت الأيام والآباد ، والسلف الصالح والطالح ، بآثار آبائنا وأجدادنا الأولين .

الموقف إذن هو : أطلال مدمرة مهدمة مشوهة ، مدفونة فى الحمأة والرمال السافية ، وكلام يختلط فيه الوصف الصادق بالخرافات والأساطير ، يرد فى كتب الرحالة والجغرافيين القدماء ، وعلى رأسهم ذلك الصحفى الأول هيرودوتس الهاليكارناسى ، وتهريف لا رأس له ولا ذنب ، تقدمه الكتب العربية على أنه تاريخ مصر ، و « قلم » مات وضاعت مفاتيح قراءته ، وقوائم بأسماء ملوك مصريين انتظموا فى أسرات ، نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس ، ويوليوس الأفريقى ، ويوسابيوس ، فيما يعرف « بالمختصرات » عن كتاب ألفه الكاهن السمنودى مانيتون بأمر بطليموس الثانى . . . ودمتم !

ومنطق هذا الكتاب يطالبنى بأن أصعد فى التاريخ على ضوء ما بذل العلماء الأعلام من جهود المؤمنين ، للكشف عن وجه أم الحضارات وقد تغطى بنقاب إيزيس ، وعليه أوحال وأدران . . . وسباخ كفرى ، وتصعيدى فى التاريخ ، عن طريق أولئك الجهابذة ليس من السهولة كما يبدو لأول وهلة . فهناك أسباب تجعل فهمنا للتاريخ المصرى عسيراً ، وما أعنيه من فهم ، ليس مجرد الإدراك العقلى لتاريخ بلادى ، وإنما هو الإحساس بذلك التاريخ ، ووصل ما انقطع من الروح المصرى .. فإن بين حاضرنا وماضينا البعيد ، هوة فكرية عميقة ، لم يحدثها الفتح العربى كما يظن بعض الناس ، وإنما غار الطريق المنبسط بعد غزو الإسكندر ، وربما قبل ذلك . فإن القرون الأخيرة للأسرات كانت فى صميمها قرون انحلال ، نشأ عن اختلاط المصريين بالشعوب الأجنبية اختلاطاً كبيراً ، منذ غزا الهكسوس

مصر ، فقامت قومة رجل واحد تتخلص من نير أولئك البرابرة الأسيويين ، وتكتسحهم حتى حدود بلادهم ، وإلى أبعد من حدود بلادهم ، وتؤسس إمبراطورية واسعة الأرجاء . وقد أحست بأن اطمئنانها إلى حدودها المائية والصحراوية لم يكن إلا خيالا . وهى فى حاجة ، للاحتفاظ بإمبراطوريتها ، إلى جيش محترف ، لا مجرد زراع وصناع يجندون لأداء مهمة بوليسية محدودة فى النوبة أو سينا ، ثم يعودون إلى زراعاتهم وحرفهم . وما حدث فى مصر حدث فى روما . وهى تتحول من جمهورية مزارعين إلى إمبراطورية يساندها جيش محترف كبير . وملوك مصر يصاهرون الأسر الأجنبية . يستقبلون أمراءها غلماناً وفتياناً . ويشرفون على تربيتهم تربية مصرية . لينشأوا أعوانا لهم فى بلادهم . يحكمونها باسم مصر . ولقد انتهت إمبراطورية الرعامسة إلى ما انتهت إليه الإمبراطوريات : رخاء واسع وثراء عريض ، أجناد أجنبية . ومعابد كبرى . أغدقوا الخيرات على آلهتها الذين ناصروهم فى فتوحاتهم ، فإذا الكهنة يسيطرون على الحياة العامة . وعلى الأسرة الملكية . وإذا الكاهن الأكبر . هريهور . يغتصب العرش فى مطلع الأسرة الأولى بعد العشرين. وتجىء أسرات مصرية أخرى . وأسرات إثيوبية وليبية . تعيد إلى مصر بعض مجدها الغابر . فتتوهج شعلة الحضارة زماناً . ثم تخبو نهائيًّا تحت أقدام الغزاة الفرس والمقدونيين . ولا يفيدها شيئاً أن تتمسك الأسرة اللاجيدية بمظاهر العبادة المصرية . فلم يكن هذا إلا نوعا من النصب والاحتيال السياسى . مارسه غير قليل من الفاتحين ، ولا سيما أن البطالسة لم يترددوا فى استنباط عبادات إله بزرميط ، اسمه يجمع بين اسمى أوزيريس وأبيس . فهو سيرابيس [أو زير — أبيس] ، وتماثيله الباقية لنافى متحف الإسكندرية . تظهره على صورة أقرب إلى زفس كبير البانتيون اليونانى.

وزاد الاختلاط . بل التخليط . فى العهد الرومانى ، فلم يبق حيًّا فى نفوس الشعب المصرى سوى أسطورة الثالوث الأوزيريسى ، وهى الأسطورة التى ألف فيها بلوتارك كتابا جميلا . واضح المعالم ، لولاه لظللنا نتخبط فى فهم هذا الثالوث تخبطنا ، إلى اليوم ، فى فهم البانتيون المصرى كله ، برغم ما كتبه ويكتبه المؤرخون المحدثون من مؤلفات عظيمة ، تقرأها بعناية ، فتحسب أنك فهمت شيئاً ، وتعاود قراءتها فإذا بنا . . . يا بدر !

وعندما تحول أسلافنا إلى المسيحية . وحظر مرسوم الإمبراطور المسيحى ثيودوسيوس عبادة الأوثان فى أنحاء الإمبراطورية . أخذ الشعب المصرى ، بقيادة قساوسته ورهبانه . يهدم الأوثان . ويلطخ صور المعابد والمقابر . وينزل بمعاوله على كل ما يستطيع تبطيطه منها . وتسويته بسطح الأرض . أو هو يحولها إلى كنائس وصوامع . فهل تنتظر من أجدادنا المسلمين خيراً من هذا ؟ لم يترددوا . هم أيضا . فى الزحف على المعابد . وإقامة أضرحة الأولياء فى وسطها ؛ أو نقل أعمدتها . وأعمدة الكنائس . لإعادة استعمالها فى المساجد والجوامع والمنازل .

ودخول المصريين فى المسيحية لم ينته فقط إلى فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، بل إلى فقد معالم التاريخ المصرى . ومن أهم معالمه تلك الديانة القديمة التى كانت عماد الحياة الفرعونية ومصدر قوتها . . . وضعفها . فإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المخاطبة بين المصريين ، حتى بعد الفتح العربى بزمان طويل . فإن كتابتها بحروف يونانية . وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ اليونانية ، وبخاصة ما يستعمل منها فى طقوس الكنيسة . وفى القضاء والإدارة . قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية . والعجيب أنه أصبح من الخطر على المصريين ، وطلاب العلم على وجه خاص . أن يضبطوا وفى حيازتهم برديات قديمة ، على زعم أن كل هذه الكتابات المصرية إنما تنطوى على أسرار السحر . ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلا مصرياً لهم ، يدرس فى بيروت . ومن مواليد طيبة . يمارس الشبشبة . فذهبوا إلى منزله ، فى غيبته . وقرروا خادمه ، حتى عرفوا أن زميلهم يخبئ لفافات بردية فى قاع صندوق يستعمله كمقعد . ولما عاد الصعيدى إلى منزله . وتحقق من اكتشاف أمره . خر على وجهه . وبكى وابتهل إلى زملائه أن لا يسلموه للسلطات . ويقول ساويرس . الذى يحكى هذه الحكاية : « ولقد أشفقنا عليه ، لأننا مسيحيون نخاف الرب » . ولم يتركوا زميلهم الشاب المصرى ، حتى أحرق أمامهم بردياته . ويورد يوحنا « فم الذهب » قصة مماثلة . شهد وقائعها فى شبابه : كبس فيها الشرطة رجلا يخبئ برديات تحتوى على أسرار السحر . ومع أنه تمكن من إلقائها فى النهر . فقد قبض عليه . وحوكم وأعدم .

التحول إلى المسيحية هو الذى قضى على مصر القديمة عقيدة ، وقلماً ، وتاريخاً

وآثارا ؛ ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز على الوثنية ومعالمها ، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة، حتى يجئ زمان لا يكاد رجال الإكليروس يعرفون من هذه اللغة إلا القليل ، يرددونه فى بيوت عبادتهم . وإذا كان أجدادنا الأقباط ، فى القرون الوسطى ، حاولوا الإبقاء عليها ، فلم يكن ذلك ليعيدوها لغة تخاطب ، وإنما حرصاً على الطقوس، وحفاظاً للكتاب المقدس فى ترجمته القبطية القديمة .
فهى حركة علمية ، اتخذت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية ، كما يظهر من الكتب التى ألفها الأقباط لهذا الغرض من القرن السادس عشر وما بعده .

والإحساس بالتاريخ إحساساً يحرك المشاعر . ويوقظ القومية ، لا يكون إلا على أساس استمرار التقاليد . وقد انقطعت الصلة انقطاعاً تامًّا بين المصريين ، مسيحيين ومسلمين ، وبين أسلافهم الوثنيين ، ولم تعد آثار هذا السلف تتحدث إلى نفوسهم بأكثر من الإيحاء بأنها رموز كفرية ، وكنوز مخبوءة ، تقوم على حراستها طلاسم تعمل بقوى خفية . والمصريون المسيحيون الألى ، يسألون عن حكاية السحر والطلاسم هذه ، بل ويسأل عنها أجدادهم الوثنيون ، عندما لم تبق من عقائدهم القديمة سوى رموزها السحرية ، وطبها الروحانى ، وطقوسها فى عبادة الحيوانات ؛ ولم تكن إيزيس فى قرارة أنفسهم سوى سيدة السحر ، ومستودع أسرار الآلهة .

والعجيب أننا ما زلنا إلى اليوم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم أجمع ، نعتقد ، إن قليلا أو كثيراً ، بهذا السحر ؛ وما زالت شعوذة المشعوذين من أمثال « مغربى كداب . يفتح الكتاب » تتحكك بالدين . فالساحر الأفاق ، وأدعياء الطب الروحانى ، مازالوا يعتمدن أولا على مظاهر « الولاية » ، سواء فى هذا المسلمون والمسيحيون ، وهم يخلطون خلطاً خبيثاً بين ما يسمونه « اللغة السريانية » ، وهى لغة الجن فى عرفهم ، وبين بعض الكلمات القدسية ، ويعتمدون على ذلك فى تعاويذهم وتمائمهم وتخليطهم . ولقد اكتشفت أخيراً أن اعتقادنا بقدرة المغاربة على السحر ، يقابله ما كان يدعيه مشعوذو الشمال الأفريقى ، وسحرة الأندلس الإسلامية ، من أنهم تعلموا السحر فى ظلال الأهرام . وتحت آزاج البرابى والمدافن . هذا وعلامة السحرة فى أوربا كانت ، وما برحت ، بومة — لعلها ترمز إلى الصقر ! — ومومياء ، أو بعض مومياء مصرية ! ثم تأمل الاعتقاد بلعنة الفراعنة ،

تلك الخرافة الشائعة بين الأنجلوسكسونيين . ألا ترى فيها أثراً مما لابس الديانة المصرية القديمة من ضروب السحر ؟

ولا أنسى . فى أول عهد إقامتى بأوربا . أننى دعيت إلى جلسة بين قوم مثقفين – وإن كانت غالبيتهم من السيدات ذوات اللوثة والتخليط – فإذا المحاضر يرقى المنصة . فتطفأ الأنوار . إلا ضوء مسرجة زرقاء . . ويدلى إلينا الحبر الفهامة بأسرار . . . الكوتشينة « التارو » . وعلاقتها بأبعاد الهرم الأكبر . واتجاهات زواياه ! وإلى عهد قريب منا . كانت تعيش فى الأقصر جماعة من المشعوذين الأجانب . يقيسون أبعاد معبد الأقصر . ثم يفصلونها على جسم الإنسان . جنيناً . فطفلا . فرجلا ! وقد أهدانى أحدهم مقالا له فى هذا الهذيان . فأنعمت به على ضيف أجنبى « مهفوف » . وإذا بالرجل يطير بالمقال . حقيقة ومجازاً . بعد أن دار أمامى دورة . وقفز فى الهواء كما تقفز الهررة . فقد كان حضرته أستاذاً كبيراً من أساتذة الباليه !

وإذا فتحنا كتاباً من كتب السحر وقد عنيت مصلحة الآثار المصرية بنشر أحدها فى سلسلة جوثها – وجدنا فصوله تجمع بين الوصفات و « الأعمال » التى تشفى العلل . وتذيب القلوب صبابة . وتنفع لمقابلة الحكام . وكانت النسوة . فى الربع الأول من هذا القرن . يقمن بطقوس مخصوصة حول موميات الفراعنة بالمتحف المصرى . علاجاً للعقم. وتسمين ذلك : « راحت يا ختى تشق ». ناهيك بما فى تلك الكتب من التعازيم والخطط المعقدة . والبحث عن قلب هدهد يتيم . ودفن بيضة دجاجة سوداء . أربعين يوماً . بين أربعة مفارق . . . وذبح الكتكوت الذى يخرج منها . قبل أن يصيح . . . والكتابة بدمه فى كاغد . ودخول القبور المهجورة بظهرك وأنت تبرجم باللاوندى . حتى تنتهى إلى الرصد . الذى يفتح لك مغاليق المطالب والدفائن !

هذه هى مصر القديمة التى نبحث عبثا عن روحها . ونحاول أن نتصل بحقائقها الحية ، فيقصينا عنها شىء غير مفهوم . ربما كان سببه أن التاريخ الذى يكتبه علماء المصريات ما زال . فى أركان كثيرة منه . شذرياً مفككاً .

ولم يكن الأوربيون . الذين وفدوا على مصر فى القرون الوسطى ، خيراً من

الزائرين العرب أو أقرب فهماً للتاريخ المصرى . هذا إلى أن مرورهم بمصر لم يكن إلا استكمالا لارتياد الأراضى المقدسة ، فكانوا يعنون . أول ما يعنون ، بآثار يسوع الطفل مع السيدة العذراء وخطيبها يوسف النجار . عند ما لجأوا إلى مصر هاربين من أرض الجليل، إنقاذاً للطفل من مذبحة الملك هيرودس.فيتبرك الحجاج بشجرة العذراء فى المطرية ، ويشربون من نبع البلسان، وينتقلون إلى قصر الشمع . حيث يقودهم شماس كنيسة أبى سرجة إلى كهف تحت أرض الكنيسة.يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيه بعض الوقت . وحتى الأهرام لم تكن عند أولئك الرحالة سوى أهراء الغلال ، ومخازن التموين . التى أقامها يوسف الصديق لمواجهة السنين العجاف .

ومدينة طيبة العظمى . ذات المائة باب فى قول هوميروس . لم يكن أحد يعرف لها جرة ! حتى لقد حسب الرحالة الأوربيون الأوائل موضعها مدينة أنصنا [أنطنوس وهى الشيخ عبادة حالا] . وذلك لأن دقلديانوس كان قد جعل من هذه المدينة عاصمة الطيبائيدة. وأول من بلغ مكان طيبة الحقيقى اثنان من الرهبان الكابوشين . صفا ما كان يظهر من الكرنك فى منتصف القرن السابع عشر ، دون أن يدركا أنهما أمام أعظم المعابد المصرية ، فى أكبر عواصم العالم القديم . ولم يتحقق من ذلك سوى الأب سيكار . فى أواخر ذلك القرن .

ثم يزور مصر الرحالة بوكوك ونوردن ونيبور ، فساڤارى وڤولنيه ؛ ويبدأ عهد لصوص الآثار من الأوربيين ، وهواة الموميات والتحف ، وكانت مصدر رزق كبير لهم ، لحرص ملوك ذلك الزمان وأمرائه على اقتناء « أنتيكات » ، تضم إلى مجموعاتهم الخاصة التى كانت تعرف بـ « غرف التحف والعجائب » . وكانت الأصل لكثير من المتاحف الأوربية الكبرى .

تلك كانت مصر القديمة عند المصريين ، والرحالة الشرقيين والغربيين ؛ حتى جاءت الحملة الفرنسية ، وفى ركابها مجموعة ممتازة من العلماء والفنانين ، جاءوا ليستكشفوا ويدرسوا ويسجلوا . ومع أن « المعهد العلمى المصرى » كان قد أنشئ بمجرد بلوغ الفرنسيين القاهرة ، فإن لجنتى الآثار المصرية لم تؤلفا إلا بعد أن عاد البارون ڤيڤيان دينون من رحلة الصعيد ، وكان قد صحب تجريدة الجنرال ديزيه ، التى أتمت الاستيلاء على مصر ببلوغها أسوان . ودينون رسام بارع بريشته وقلمه ،

يرسم كل ما يمر به من أطلال ، ويدون مذكرات رحلته . وبعد عودته إلى القاهرة ، وحديثه مع الجنرال بونابرت ، وإطلاعه إياه على رسوماته ، أمر كبير الحملة بإنشاء لجنتين بالمعهد العلمى المصرى ، مهمتهما « قياس جميع آثار الصعيد ، ورسمها رسماً موضوعياً صحيحاً ، تراعى فيه الدقة العلمية » . وطبع دينون مذكرات رحلته مع رسومها بباريس سنة ١٨٠٢ ، فذاعت شهرتها عاجلا ، وتعددت طبعاتها وترجماتها . ومن هنا تبدأ « الإجبتولوجيا » ؛ تبدأ علماً موضوعياً ، يقيس ويسجل ويقيد ويرسم ، دون أن يحاول تفسيراً . وأنى له التفسير ، وذلك القلم البربانى — كما يسميه أحمد كمال فى كتاب « العقد الثمين » — لا سبيل إلى فض أغلاقه ؟

ولن نقفز هنا إلى خبر العثور على حجر رشيد ، فإن الهيروغليفية لم تنتظر هذه اللقيا لتجد من يبحث عن أسرارها . بل إن موضوعها قائم منذ عهد الرينسانس فى إيطاليا . وقد وجد الناس فى روما بعض مسلات أعادوا إقامتها . والمسلة أثر غاية فى التحدى ، فهى لوح محفوظ ، عليه كتابات تستثير فيك رغبة ملحة نحو تفسيرها . وكان المؤرخ أميانوس مارسللينوس ، فى القرن الرابع الميلادى ، قد دون فى تاريخه ترجمة لاتينية لنص منقوش على إحدى تلك المسلات ، نقلها عن واحد من الكهنة المصريين . ولكن الباحثين أيام الرينسانس ضلوا بين نصوص المسلات ، فأى نص ذاك الذى دوّن ترجمته أميانوس ؟ ثم وقع لهم كتاب باللغة اليونانية ، لمصرى اسمه هورابللون ، عن الكتابة الهيروغليفية ، يتضح منه أن أسرارها استغلقت عليه . ونشر هذا الكتاب إبان القرن السادس عشر فى طبعات كثيرة . وحاول الأب اليسوعى أثناسيوس كيرخر ، فى القرن السابع عشر ، حل اللغز البربانى ، وحسب أنه توصل إلى الحل عندما قال بأن الهيروغليفية كتابة دينية غيب فيها المصريون أسرار حكمتهم . وقد بلغ القس العلامة من فهمه لهذه الحكمة ، وفكه لتلك الأحاجى ، أن جاءت ترجمته لكلمة « أبرييس » — وهو اسم علم لأحد ملوك الأسرات المتأخرة — على الوجه الآتى : « نعماء الإله أوزيريس ، تفيئها على البشر طقوس مقدسة ، يقوم بها نفر من الجن فتحل بركة النيل » . . . أقل من هذا ونفق الحمار !

وحاول من بعده القس الإنجليزى واربرتون ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، محاولات فاشلة . وظن دى جين ، والأب نيدام ، أن الهيروغليفية ضرب من الكتابة

الصينية . كما ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من السريانية أو العبرانية . واستطاع الدانيماركى زويجا—وكان عارفاً باللغة القبطية —التحقق من أن الخانات البيضاوية المعروفة بالخراطيش : تحتوى على أسماء ملوك ، وأن للعلامات الهيروغليفية مقابلا لفظيًّا ، أى أنها حروف صوتية (فونيتيك) .ونقل كارستن نقوشاً بربائية نقشاً أقرب إلى الصحة من نقل سابقيه .

وفى آخر القرن الثامن عشر ، وبينما جنود بونابرت يقيمون تحصينات على بقايا قلعة مصرية من قلاع القرون الوسطى ، إلى الشمال الغربى من رشيد ، عند قرية البرج ، على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة برج مغيزل على الضفة الشرقية ، عثروا على حجر أسود ، عليه كتابات بلغات ثلاث ، إحداها الهيروغليفية ، وآخرها اليونانية ، وفى وسطهما كتابة عرفت فيما بعد أنها ديموطيقية. وأبلغ الضابط المهندس بيير بوشار ، المشرف على الأعمال ، خبر العثور على الحجر إلى البعثة العلمية بالقاهرة. وبقية القصة معروفة ، ولكنها جديرة بأن تنشر تفصيلا فى كتاب عربى يترجم لحياة الرجل الفذ فرانسواشامبوليون .

وكنت أحسب — كما يحسب الناس فيما أظن — أن مجرد العثور على نص هيروغليفى وديموطيقى ، يقابلان ترجمة إغريقية لمرسوم بطليموس إبيفانوس، كاف لفتح مغاليق الكتابة المصرية القديمة ! والواقع أن النص الإغريقى ، على حجر رشيد ، يحتوى على أربعة وخمسين سطراً ، والنص الديموطيقى على اثنين وثلاثين سطراً ، أما النص الهيروغليفى فلم يبق منه سوى أربعة عشر سطراً ، اشطف هام فى الحجر . واللغة ليست مجرد ألفاظ متراصة . بل هى كلمات وقواعد وأجرومية . ثم إن الكلمات ، فى لغاتنا ، مركبة من حروف ، فهل كانت الهيروغليفية حروفاً منطوقة — فونيتيك — أم أنها رموز ذات معان ، أى إيديوجرامات ؟

كان على شامبوليون أن يكتشف أولا أن الهيروغليفية فى أساسها كانت رموزاً، وتحولت فى تطورها إلى الانتفاع ببعض منطوق هذه الرموز ، لتستعمل حروفاً أو مجموعة حروف . كأن نرسم صورة رجل يرمى بالحلة ، فنفهم منطوقها ومعناها : « رمى » ؛ ثم نرسم إلى جانب ذلك صورة خروف مذبوح ، ومعلق ، فنفهم منطوقه ومعناه « ضأن » ، ونخرج من هذين الرمزين ، بعد لأى ، إلى أن المعنى كلمة

لا علاقة لها بالضأن ولا بالرمى ، فماذا تكون ؟ رمى ــ ضأن = رمى ضان = رمضان . مثلا . ثم تطورت الهيروغليفية بعد هذا إلى حروف صوتية بعينها . ولكن الكتابة احتفظت مع ذلك بكل أدوار تطورها ، من الرموز إلى الانتفاع بمخارج أصوات الكلمات كمقاطع لكلمات أخرى [رمى ــ ضان = رمضان] إلى حروف بعينها .

وقبل شامبوليون . كان السويدى « آكربلاد » وقد وفق إلى تبين بعض حروف الديموطيقية . كما كان الإنجليزى . يونج . ركز همه فى تفسير الحروف أو الرموز المكتوبة داخل الخانات [الخراطيش] الملكية . وبما أن نص حجر رشيد هو مرسوم لأحد البطالسة ، فقد تابع يونج بحثه أربع سنوات ، يتخبط بين أسماء الأسرة اللاجيدية ، حتى أصاب فى قراءة بعض اسم « بطليموس » ، وبعض اسم « برنيقة » . وبذلك استطاع الكشف عن عدد من الحروف .

ولم يكن شامبوليون مجرد هاو لحل المسابقات الصحفية من نوع الكلمات المتعارضة وما إليها ، بل كان منذ حداثته كلفاً بدراسة اللغات القديمة شرقية وغربية . وقد حذق اللغة القبطية . كما توصل إلى إدراك أن القلم المصرى القديم يكتب على ثلاثة أشكال . الخط الهيروغليفى والهيراطيقى والديموطيقى ؛ والأخيران يختصران الخط الهيروغليفى ، كما يختصر خط الثلث أو النسخ ، بخط الرقعة ، وكما تختصر الحروف الكيرللوسية الروسية ، والقوطية الألمانية . عندما تكتب باليد سريعاً .

استغرق شامبوليون فى دراسة نص حجر رشيد ، وغيره من النصوص ، نحو عشرين سنة . باحثاً منقباً . على أساس من معرفته باللغة القبطية أولا ، وفى قدرة عجيبة على التركيز الذهنى . وما أكثر ما تردد وتراجع . فهو يؤكد فى عام ١٨١٣ أن الهيروغليفية ليست رموزاً تعبر عن فكرة ، بل حروفاً هجائية ، ثم يتنكر لهذه الفكرة سنة ١٨١٨ . ليعود إليها مرة أخرى ، فيما بعد . إنه يبدأ بدراسة نص ديموطيقى ، فى بردية عليها اسم « كليوباترة » ، ويحاول أن يركب هذا الاسم - من عندياته ــ بحروف هيروغليفية . ثم يهمل ذلك حتى يجىء عام ١٨٢٢ . حين يعثر على صورة لنص هيروغليفى منقوش على مسلة من جزيرة فيليه . يطالع فيه اسم كليوباترة . . . كما كان قد كتبه من قبل ، ومن عندياته !

محاولات مرهقة . استغرقت الأيام والليالى ، والأشهر والأعوام . حتى يجىء

صباح ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ . وهو يطالع نقوشاً هيروغليفية ، نسخها ، وأرسلها إليه من مصر ، مهندس معماري من معارفه . وكانت تلك النقوش تتميز بخانات [خرطوشات] عدة . فتأهب شامبوليون لقراءتها ، وقد جمع أمامه خمسة وعشرين حرفاً هيروغليفياً ، كان قد توصل إليها بعد قراءة أسماء بطليموس . وكليوباترة ، وإسكندر ، وغيرها من أسماء البطالسة ، وأمبراطرة الرومان :

في إحدى خانات النص الذى وصله حديثاً ، لاحظ علامة الشمس ، وتحتها ثلاث علامات . اثنتان منهما مكررتان . هما حرف س والأولى حرف م فقرأها « مسس » . وبقيت علامة الشمس . وإذا به يدرك فجأة أن « رع » هو اسم الشمس — كما عرف من كتابات الأغارقة والرومان — فتتفجر فى ذهنه انفجاراً كلمة « رع — مسس » ! وفى خانة أخرى ، يرى نصفها الأسفل مشابهاً لنصف خانة « رع — مسس » . وفى نصفها الأول صورة طائر . يقف على قاعدة . هو الطائر المصرى أبو منجل ، وهو عند المصريين رمز إلههم « تحوت » . فيقرأ الاسم الجديد : « تحوت — مسس » أى تحوتمس !

يجمع شامبوليون أوراقه . ويجرى إلى أخيه الأكبر ، وكان يعمل فى الأكاديمية الفرنسية . سكرتيراً خاصاً للعلامة « داسييه » . يدخل على أخيه منفعلا . ويلقى على مكتبه بمجموعة أوراقه ، وهو يصيح « أدركتها » ، وكأنه يردد كلمة أرشميدس : « أوريكا » . ثم يقع مغشياً عليه ، لفرط حماسه وإجهاده . وعناء السنوات التى عاناها فى البحث والتنقيب والمقارنات . بالرغم من تضعضع صحته .

وفى يوم ١٩ سبتمبر . بعد خمسة أيام قضاها مستغرقاً فى سبات عميق ، يفتح عينيه ، وما يكاد يقوم من فراشه . حتى يشرع فى تحضير مذكرته المشهورة ، التى بدأ طبعها بعد ذلك بأيام . وقدمها إلى المجمع الفرنسى ، بعنوان « خطاب إلى السيد داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب . خاصاً بأحرف الهجاء الهيروغليفية . ذات المخارج الصوتية . التى استعملها المصريون لينقشوا على آثارهم أسماء الملوك اليونانيين والرومانيين . وألقابهم » .

وفى آخر عام ١٨٢٢ . ينتهى شامبوليون إلى التعرف على أسماء عدة ملوك من الأسر الفرعونية : أخوريس ، ونفيريتس ، وبساماتيك . وشيشونق ، وغيرهم .

وقد أدرك أخيراً أن الكتابة المصرية تتألف من أحرف ، ومن رموز ؛ وعرف أن قواعد النحو القبطي ، هي قواعد نحو اللغة المصرية القديمة ، وشرع في ترجمة نصوص كاملة ، ظهرت سنة ١٨٢٤ فى كتابه المسمى : « الطريقة الهيروغليفية عند قدماء المصريين » .

ويسافر إلى إيطاليا ، ليدرس نصوص متحف تورينو . ثم يتاح له أن يزور مصر ، حيث قضى سنتى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، على رأس بعثة توسكانية يقص علينا طبيبها كيف عثر به ذات مرة مغمى عليه ، فى مقبرة من مدافن طيبة . وحوله اللوحات التى كان ينسخ عليها النصوص .

ويعود إلى فرنسا ، فينتخب عضواً فى أكاديمية النقوش والآداب ، وينشأ له بالكوليج دى فرانس أول كرسى لعلم المصريات . ولكن حاجته إلى الراحة التامة تضطره إلى الاعتزال فى بلدته فيجاك ، وهناك يضع آخر كتبه فى قواعد اللغة المصرية القديمة ، ويقول عنه بحق : « إنه بطاقة زيارتى ، أتركها للأجيال القادمة » .

ثم يعود إلى باريس ، محطم القوى ، ليشرع فى دراسة مواد بعثته إلى مصر . ويصاب بالفالج صباح ١٣ يناير سنة ١٨٣٢ ، ويقبض فى ٤ مارس من العام نفسه .

فالأمر ، كما ترى ، ليس باليسر الذى كنت تتصوره . وقد نسيت أن أحيطك علماً بأن الكتابة المصرية ، كالكتابات السامية ، لا تعنى كثيراً بحروف الحركة ، وهى صعوبة تضاف إلى سائر الصعوبات التى يعانيها كل من يحاولون مطالعة هذه اللغة .

يقول العلامة إدوارد ماير ، مؤبناً شامبوليون :

« كان عبقرياً موهوباً ، ما فى ذلك من شك ، ولكن عبقريته كانت تسندها معرفة عميقة ، وتنظيم لمادة دراساته . ولذلك استطاع شامبوليون الغوص فى معانى نصوص البرديات والنقوش ، فى صميمها على أقل تقدير . ويندر أن نجد فى تاريخ العلوم أمثولة كهذه . فما إن يدركه الموت ، فى شرخ عمره ، حتى يكون قد كشف ، فى وضوح وصحة ، لا عن أسس اللغة فحسب ، بل عن تاريخ مصر القديمة » .

ولم تنشر أجروميته للغة المصرية القديمة إلا عام ١٨٣٦ . أما قاموسه فقد خرج سنة ١٨٤١ . وبعد ذلك بوقت نشر كتابه عن « آثار مصر والنوبة » .

وبهذا يرتفع بناء ثان على ذلك الطريق الطويل الموصل إلى اكتشاف مصر القديمة . أما البناء الأول فكان مجلدات البعثة العلمية المصرية . وسيعمر الطريق بأعمال الألمان ريشارد لبسيوس وبروكش ودوميخن وإرمان ومايرَ وزيته ، والفرنسيين ماريت وإيمانويل دى روجيه وشاباس وماسبيرو ، والإيطالى روزلليني ، والأميركى برستيد . والروسى جولينشيف . ويمكن أن تضيف إلى القائمة أسماء من أغلب البلاد الحية . لأن الأمم المتحضرة تفخر أن يسجل اسم ابن من أبنائها فى لوحة الشرف لمن عملوا ويعملون على اكتشاف « أمنا الكبرى مصر » .

ومن بشائر النهضة المصرية — وهى عندى من أهمها وأعمقها معنى — أن تظهر أسماء مصرية . ما زالت قلة ، ولكنها تصل حاضرنا بماضينا القريب جداً حين ظهر اسم الرائد الأثرى أحمد كمال ، وبماضينا البعيد جداً ، حتى عهود ما قبل الأسرات . فلنحفظ فى قلوبنا ، ولنكرم بألسنتنا ، أسماء مصطفى عامر وسليم حسن وأحمد فخرى وبدوى (أحمد واسكندر) وجرجس متى وعباس بيومى وعبد المنعم أبى بكر ومكرم الله وأنور شكرى ولبيب حبشى وزكريا غنيم وزكى سعد وسامى جبرة وباهور لبيب وشارل بشاتلى وغيرهم . والتاريخ كفيل بأن يوسع لوحة الشرف المصرية هذه ، ويصحح أخطاءها ، ويغفر لى قصورى .

مرمدة بنى سلامة

إن من البيان لسحراً . وقد استطاع أساتذتى فى المدرسة الابتدائية أن يجمعوا فى جملة واحدة : تاريخ مصر الأسطورى . وتاريخ مصر فيما قبل التاريخ . وتاريخ الأسرات . قالوا : « أول ملوك مصر كان مينا أو مصرايم ، وهو الذى حول مجرى النيل ، ووحد الوجه البحرى والوجه القبلى » . وهكذا عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أن مصر من مصرايم — التاريخ الأسطورى — وأن النيل تحول عن مجراه — تاريخ ما قبل التاريخ — وأن مينا وحد الإقليمين — العصر التاريخى .

أما أن النيل غير مجراه ، فهى الحقيقة الجيولوجية . لا يأتيها الباطل من أى مكان تريد . وكان النيل قبل أن يستقر فى مجراه الحالى نهراً كبقية الأنهار . لا يحيا الناس بفيضانه . ولا يموتون بتحاريقه . لأن شمال أفريقيا كله . والصحراء الكبرى ، كانت مناطق أمطار غزيرة . أشبه بالأحراج الاستوائية . ترتع فيها الظباء . والزراف يأكل من أعالى الأشجار ، وحمر تبرطع ، وفيلة تهش بآذانها وتلوى بخراطيمها . وثيران ترعى الكلأ وتخور ، وتفترس هذه وتلك آساد وذئاب وضباع . وكان النيل يجرى هنا وهناك حسب التساهيل ، ويغطى جميع منخفضات الوادى . فكانت كل الفيوم ، ومناطق الواحات ، بحيرات واسعة ، وكان العشب يغطى سطح الأرض ، وأشجار سامقة معرشة تلقى ظلالها الوارفة على العشب . والماء يفيض من الأرض ، وينهمر من السماء مدراراً . والإنسان القديم كان يعيش فى تلك الآجام لم يكن نحن ، بل كان مخلوقاً بدائياً يعرف بالإنسان النياندرتالى . ولم نأت نحن — « هوموسابينس » . الإنسان المدرك العارف — إلا فيما بعد . فى أواخر العصر الحجرى القديم . أو ما يعرف بالعصر الحجرى الأعلى .

ثم حل عهد الجفاف . فكفكفت السموات مدرارها . وقلنا يا سماء غيضى . ويا أرض أقلعى . وهبط مستوى النيل ، ووقف جريان الماء فى الوديان . فتحولت أخاديد فى الصحراء ، ونقصت مساحات البحيرات ، واختفى أكثرها . وبهبوط مستوى النيل ، أخذ يهدأ ويرزن ، ويعنى بحفر مجرى دائم فى أرض مصر الجيرية .

لا دخل فى هذا لمينا ولا لمصرايم .

والناس الهمج . والأوابد آكلات اللحوم . والمواشى آكلات العشب . أخذت تتجمع حيث الماء والزرع . وعرف الإنسان الصياد القناص كيف يبقى على بعض صيده حيًّا ، لأن القنص لم يعد سهلا ميسراً كذى قبل ؛ وكان هذا أول باعث له على التفكير باستئلاف الحيوان ، ولعله أدرك معنى هذا ، فيما يختص بالنبات . فانتهى إلى محاكاة الطبيعة برى الأرض وبذر البذور . وأصبحت حياة السكان الأفريقيين الرحل الذين نزحوا إلى ضفاف النهر المهذب مرتبطة بحركة المياه فى النهر . ارتفاعاً وهبوطاً .

وما أرجوه لك — إذا حرصت يوما على مطالعة التاريخ المصرى على طوله — هو أن لا تكرر خطأى فتهمل ما أهمله التاريخ ، فسمى ما قبل التاريخ . على أن لا ترهق ذهنك بأرقام الآلاف ومئات الآلاف من السنين التى يذكرها أهل التخصص تقديراً لبدء الإنسان على وجه الأرض . وليس مهمًّا أن تعرف — إذا كنت تجهل — أن الإنسان ظهر فى الحقبة الجيولوجية الرباعية .

ولا تحاول أن تتعرف على تاريخ ما قبل التاريخ فى المتاحف . كما حاولت أنا ، لأنك ستقف أمام حصباء متراصة . من الصوان أو الظران والشيست . وغير ذلك من أنواع الزلط . تراه مفلوطاً مشظباً . يقول لك العلماء بأنه أسلحة الإنسان الأول والإنسان الثانى ؛ وستمر بأصناف من الأوانى لم تسوها يد الفخرانى على دولاب ، مزينة برسوم هندسية ساذجة . وبرسوم بعض حيوانات تبدو وكأنها تبرطع فى الهواء بقوائم كخيوط غزل البنات .

أقول لا تحاول . لأن صناعة الإنسان فى بداية مغامراته العجيبة تحتاج إلى مران طويل . وحس تاريخى خاص . وخيال كريم . حتى يمكنك أن تطالع ما وراءها من معان . أو تشعر بما تحتويه من فن .

وكلما رأيت أرقام السنين . مر عليها عاجلا . فليس ثمة من يؤكد لك صحتها أو يحلف لك على دقتها ؛ إن هى إلا ركيزات . أشبه بعلامات الطريق . لا غنى عنها لأهل الاختصاص ، وهم يحاولون رسم التطور صورة إثر صورة . كما فى الفيلم السينماتوغرافى .

إنما يجدر بك أن تعرف أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب واديك ، لها أهميتها فى تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه أسلاف أسلافنا منذ فجر الإنسان . وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة عليك ، ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها ، وبغير قليل من آثارها . ستسمع بحضارة البدارى وديمة وكوم أوشيم والفيوم ونقادة والعمرة وجرزة ووادى حوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة .

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن حضارة العمرة وجرزة ظهرت فيما بين منتصف الألف الخامسة حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .

حضارات حديثة العهد بالنسبة لما يعرف بالعصر الحجرى القديم ، وهو سابق عليها ببضع مئات من آلاف السنين ، حضارات متأخرة حتى بالنسبة للمراحل الأخيرة من ذلك العصر الحجرى القديم التى كانت ، منذ نحو مائة ألف سنة قبل الميلاد ، متأخرة بالنسبة للعصر الحجرى الوسيط ، وكان فيما بين الألف العاشرة والألف الثامنة .

وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى ، من أول العصر الحجرى الوسيط ، يتجه اتجاهاً حضارياً مميزاً تختص به مصر ، لا يشبه فى شىء حضارة فلسطين أقرب جيرانه . فتطور الحضارة المصرية ، منذ العصر الحجرى الوسيط ، استقل بوسائله نتيجة لعزلة مصر ، الجزيرة الخضراء ، أو الخط الطويل الزمردى وسط أقيانوس من الصحراء ، وبحرين من المياه الزرقاء ، وجبال إلى الشرق ، وهضاب إلى الغرب . وذلك بعد ما أصاب المنطقة من تغير فى مناخها ، وكانت من قبل متصلة بالشمال الإفريقى كله ، تشبه فى طبيعتها أعالى السودان كما هى حالا . انعزلت مصر عن جيرانها ، وإن بقى لها ، عن طريق النيل ، اتصال ببلاد النوبة وما فوق أرض النوبة .

وأحسبك تعرف أن الجنس المصرى ما يزال مصدر نقاش لا ينتهى ، وليس فيه عند العلماء قولان ، بل أربعة أقوال . فالمصريون جاءوا من الشمال والجنوب ، وجاءوا من الشرق والغرب ، وهم خليط سامى حامى قارى ليبى حبشى عربى ، يشاركون

فى أصولهم شعوب جنوب البحر الأبيض ، وشعوب السودان والحبشة ، وشعوب غربى آسيا . ويتألف ، من كل تلك الأصول ، ذلك الجنس الواحد الباقى على صفحات الدهر حتى اليوم . وإذا كان أمر هذا الجنس المصرى استعصى على العلماء ، فإنهم على الأقل يؤكدون لنا شيئاً أهم لدينا من كل تخليطاتهم ، وهو أن المصرى الذى انعزل فى واديه الخصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار ، احتفظ بطابعه الإتنوغرافى ، غير مشوب فى أغلبه ، إلى يومنا هذا . فإن بضع مئات من الشعوب التى اعتدت على مصر ، أو استقرت فيها وعاشرت أهلها واختلطت بهم ، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء فى بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة .

لعلك تعبت الآن من كل هذا السرد . لا عليك إلا أن تنسى أمره ، بشرط أن تعيرنى انتباهك إلى ما يحدث فيما تلى ذلك من عصور ، وأولها العصر الحجرى الحديث « النيوليتيكى » ، والعصر الذى يليه ويعرف باسم « الإنيوليتيكى » ، وآخره يعرف بعهد ما قبل الأسرات . لأن فهم هذين العصرين أساسى لإدراك نشأة الحضارة الفرعونية ، ولاسيما أن هناك رأياً يزعم بأن حضارة الأسرات لم تخرج عن كونها تفاعلا وتطوراً نهائيًّا للنيوليتيكى ، لم يبلغه ناس آخرون فى مكان آخر ، أو كما قال كورت لانجه : « مصر القديمة ، حتى نهاية حياتها الفرعونية ، ظلت بنت العصر الحجرى . وبقاؤها فى داخل هذه التخوم الحضارية مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . وإذا فهمنا ذلك وجدنا حلولا لكل تلك الأحاجى التى تطرحها علينا مصر بلسان أبى هولها ، وهى الألغاز التى أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، بل ما فتئت تبعث على التأمل إلى يومنا هذا . »

كان مؤرخو الحضارات ، إلى عهد قريب ، يلوكون خرافة اسمها « معجزة الحضارة » ، فيحدثونك عن المعجزة الإغريقية ، وبالتالى عن المعجزة الفرعونية . ولكن العلم لا يميل إلى إدراج المعجزات ضمن عناصر تفكيره ؛ فلما انحاز المؤرخون إلى مذهب التطور ، لم يعودوا يصدقون أن يقفز المصرى من مرحلة الأسلحة الظران ، والأوانى الفخار من غير دولاب ، وصنع السلال « البقوطى » ، ودفن موتاه فى حفرة سطحية ، أن يقفز من هذه البداوة إلى حضارة الأسرات الأولى .

استقرت الحياة فى وادى النيل محدودة محصورة فيما يحققه هذا الوادى من

ممكنات . وكان النيل قد غطى مجاريه القديمة بطبقات من الطمى ، ولم يعد المصرى يكتفى بصيد أكله وقنصه ، والتبلغ بما تنبت الأرض ؛ بل علم نفسه كيف يزرع ويقلع ، وكيف يجنى ويخزن ، واستألف من حيوان القنص ما استطاع أن يحافظ عليه حياً ، ليتغذى به عند الحاجة ، وما رأى فيه قوة على الشد والحمل ، أو معونة على الصيد والقنص فى طاعة وألفة . وحياة الاستقرار اقتضت بناء المساكن ؛ وادخار الغذاء قضى بصنع السلال والأوانى . واستعاض عن جلد الحيوان فى لباسه بما فضله عليه من ألياف النبات ينسج منها كساء وغطاء ؛ والاستقرار جعله يعنى بتنظيم معاشه ومعاش أسرته ، وزينة نفسه وأهله ، ثم التفكير بيوم يفارق فيه هذه الدنيا إلى عالم آخر .

كان العصر الحجرى الحديث فى مصر سابقاً بزمان سحيق على حضارة العصر الحجرى الحديث فى أوربا ؛ ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالباً فى وادى النيل الأدنى قبل أى مكان آخر . ولا يمكن الكشف عن أدوار هذا التطور ، لأنها اختفت تحت رواسب النيل ، إلا ما بقى منها عند أطراف الوادى ، وفوق الهضاب المشرفة على مجرى النيل

وأهم أثر لتلك الحقبة الحضارية ، كشف عنه يونكر إلى الشمال الغربى من القاهرة ، على بعد بضعة كيلومترات ، فيما يعرف اليوم باسم مرمدة بنى سلامة ؛ وكشف عنه أمين العمرى عند رأس وادى حوف إلى الشمال من حلوان ، عند موضع مصب النيل فى البحر الأبيض المتوسط ، قبل أن تتكون الدلتا ؛ وكشف عنه آخرون فى ديرتاسا بالصعيد ، ووادى الشيخ قرب مغاغة ، وفى إقليم الفيوم والواحات الخارجة والبحرية .

مرمدة بنى سلامة توضح مسكن المصرى الأول وطريقة بنائه . وكيف حرص على تنظيم منازله على جانبي طريق مستقيم يخترق المحلة . والآلات المشظاة التى وجدت بالفيوم بديع صنعها ، تحرص متاحف العالم المختصة على اقتناء نماذج منها .

ولا يعرف على وجه اليقين أية حضارة سبقت غيرها فى البقاع التى أشرنا إليها . وقد تكون حضارة العمرى بوادى حوف أقدم من حضارة مرمدة بنى سلامة والفيوم . وإنما الغالب أن الوجه البحرى سابق فى حضارته على الوجه القبلى ، لأن حضارة

ديرتاسا ووادى الشيخ تعتبر خاتمة لمرحلة الحقبة النيوليتيكية وتقدم لحضارة العصر الإنيوليتيكى ، أى حضارة ما قبل الأسرات .

وكلما اقتربنا عبر آلاف السنين من عهد الأسرات تجلت آيات التطور . فالنحاس يظهر بعد نهاية العصر الحجرى الحديث ، والقرى والمدن تنشأ على جانبى الوادى . ويبدأ اتصال مصر بجيرانها . وأهم من كل هذا ظهور الحادث الجلل فى تاريخ البشر : وهو توصل الإنسان إلى رسم رموز يعبر بها عما يجول بخاطره ، أو ينطق به لسانه . وما يعنى به فى تلك الخطوات الحضارية الأولى ، هو أن يسجل ويرصد ويحصى ظواهر ذات خطر فى حياته الزراعية . وإذا حدثك المؤرخون عن أول تقويم عرفه العالم ، والغالب أن يكون التقويم المصرى ، فلا تحسبن أنه جاء نتيجة حساب فلسفى ورياضة عقلية — والمصرى لم تكن له عناية بالبحث العلمى البحت ، ولا بالتأملات الفلسفية لذاتها — إنما وضع التقويم بناء على ملاحظات للأفلاك والفصول وعلاقتها بالدورة الزراعية ، وصلة هذه بمواقيت الفيضان ، وهى على درجة عظيمة من الانتظام . وتلك ملاحظات لا بد أن تكون استمرت مئات السنين تسجل وترصد ، حتى اطمأن المصرى إلى إمكانه تحديد سنته بعدد من الأيام جمعها فى أشهر ، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وإذا السنة لا تنتظم مع حركة الفصول والأفلاك ، على حساب اثنى عشر شهراً ، وإلا جاءت سنة شبه قمرية ، يتقلقل فيها ميعاد البذر والرى والحصاد . لذلك كان المصرى فى تلك العصور السحيقة يضيف خمسة ايام — أيام النسىء — إلى سنته ذات الستين والثلاثمائة يوم . ولم يتعدل هذا التقويم ، ويصحح خطأ ربع اليوم ، إلا فى زمان يوليوس قيصر ، فيما يعرف بالتقويم اليوليانى .

وظاهرة تختص بها حضارة مصر ، فيما قبل التاريخ وبعده ، وهى أن عصر النحاس يستمر طوال عهد الأسرات ، ويتأخر استعمال الحديد فى مصر ، ولا يستقر إلا حوالى العهد اليونانى . كما أن الآلات الحجرية تظل شائعة الاستعمال فى العصر التاريخى ، بينما يتحول عصر الحجر فى أوربا إلى عصر النحاس ثم إلى عصر الحديد ، فى الحقبات السابقة على التاريخ . ولعل هذا هو ما حدا بكورت لانجه إلى حسبان الحضارة الفرعونية منضوية كلها تحت العصر الحجرى الحديث « النيوليتيكى » .

وحضارة ما قبل الأسرات تظهر لنا جلية فى العمرى وفى جرزة ، وفى حلوان ووادى دجلة والمعادى وهليوبوليس ، وفى نقادة والسمانية والبدارى . ولقد نشأت أجمل الصناعات الحجرية بالبدارى فى الآنية المصنوعة من البازالت ؛ وتتقدم هذه الصناعة فى العمرة ؛ وتصنع الأوانى من المرمر والبازالت فى مرحلة جرزة .

ونظام العشائر واختيار كل عشيرة لشارة طوطمية ، أو شعار خاص ، يتقدم فى نهاية عصر جرزة : ثم تندمج الإمارات المحلية — أى الكور — فى مملكتى الشمال والجنوب : وعاصمة الشمال فى « بى » أو « بوطو » ، وبواقى أطلالها موجودة عند تل الفراعين ، إلى الشمال الشرقى من دسوق . وعاصمة الجنوب فى « نخن » — عند الكوم الأحمر — وهى التى عرفت فيما بعد باسم « هيرانكوبوليس » ، أى مدينة الصقر ، وكان الصقر معبودها . وعلى مقربة منها قامت مدينة « نخب » — عند الكاب الحالية — وكانت من أهم المواقع فى عصر ما قبل الأسرات .

أما موقع المعادى — واكتشافه يرجع الفضل فيه إلى مصطفى عامر ومنجين — فقد قاسى الكثير من الاشتباكات بين أهل الشمال والجنوب ، مما كان سبباً راجحاً فى أن يتخلى عنه سكانه .

ولكن بعد أن تم اتحاد الوجهين البحرى والقبلى ، اتجهت سياسة الوحدة إلى قرب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى قامت فيه وحوله عواصم مصر الكبرى : منف وبابليون والفسطاط والعسكر والقطايع والقاهرة .

وكان البداريون على صلة بالأقاليم المجاورة ، عن طريق الوادى الممتد من وادى النيل إلى شواطئ البحر الأحمر حيث معدن النحاس والأحجار الكريمة والأصداف . فقد اكتشفت بوادى الحمامات — على هذا الطريق — آثار ترجع إلى مرحلتى البدارى والعمرة . أما الذهب فكان يجلب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سينا ، والقار من البحر الميت . والأبسيديان واللازورد والفضة والسنباذج ، من غربى آسيا ومن الأرخبيل اليونانى .

وهناك دلائل على اتصال مصر بسورية فى تلك الأوانى من الفخار ذات المقابض المموجة — وهى خاصة بجرزة — وقد وجدت فى سورية . وكان المظنون أنها وردت على مصر من سورية تحمل الزيت ، ولكن الكشف عنها ، فى مرحلة

المعادى السابقة على جرزة . قطع بأنها صناعة مصرية نشأت نشأة محلية .

أما ديانة هؤلاء الألى فقد استدل عليها المؤرخون من مصدر متأخر ، وهو النصوص المنقوشة داخل هرم أوناس وما يجاوره من أهرامات الأسرة الخامسة ، وتعرف بمتون الأهرام . فالثابت من لغتها . ومن طرائق التفكير فيها . أنها ترتد إلى زمان سابق على الأسرات ، فهى إذن تسجل العقائد القديمة والأساطير الإلهية لأولئك الذين أسسوا حضارة البدارى ومرمدة بنى سلامة وجرزة والعمرى والمعادى . ويستخلص منها أن المصريين ، فى عصر ما قبل الأسرات . عبدوا أوزيريس فى الدلتا . وعبدوا هوروس — الصقر — فى الدلتا وفى الكوم الأحمر أى « نخن » بالصعيد .

على أن آثار جرزة . أو ما يعرف بحضارة نقادة الثانية . وقد كشفت لنا عن قبور أهل العصر السابق على الأسرات مباشرة . تؤيد حرص المصريين منذ ذلك الزمان الواغل فى القدم على امتداد الحياة الدنيا فى حياة الآخرة . فالمتوفى مسجى على جانبه الأيسر فى الغالب . وفى وضع أشبه بوضع الجنين فى بطن أمه ، مغطى بحصير أو نطع . ويغلب أن يكون اتجاه رأسه نحو الجنوب ؛ وفى يديه ، وهى مقتربة من وجهه . توجد لوحة من الشيست على شكل سمكة أو طائر . وعثر فى تلك المقابر البدائية على قطع من العاج ، على شكل أمشاط وعلاقات وأسلحة وعقود من حبات مكورة . وتمائم على هيئة ثور أو طائر أو حشرة . والأسلحة مصنوعة إما من الظران أو من النحاس . كما وجدت الأوانى وعليها رسوم تمثل سفناً تحمل شعارات تذكرنا بشعارات « كور » الدلتا فى العصر التاريخى .

والمعنى الذى يمكن إدراكه من هذه الرسوم . هو أن التكوين السياسى لمصر ، فيما قبل الأسرات ، قام على أساس المراكز أو المديريات الصغيرة التى يسميها اليونان « نوميس » أى الكور . فالشعارات التى تمثل كل كورة ظلت قائمة خلال التاريخ المصرى زمناً طويلا . ولقد فسر العلماء تعدد آلهة المصريين . على أساس أن شمل آلهة الكور قد التأم فى محاذاة التوحيد السياسى . ولم يتم ذلك فى بعض الأحيان دون مشاحنات حادة . كما حدث ذلك بين عباد هوروس وعباد سيت . ويبدو أن انتصار هوروس على سيت كان ماحقاً . فقد توطدت عبادة هوروس فى كلا الوجهين : شمالا فى « بوطو » . وجنوبا فى « نخن » — هيراكونبوليس — عند الكوم الأحمر . وانتهى اضطهاد سيت وزحزحته إلى اعتباره إله الصحراء والمحل

والشر . ولم يكن كذلك عندما كان المعبود الأكبر فى كورته .

ولعل ما انتهى إليه مؤرخو ما قبل التاريخ هو الأقرب إلى الصواب حين يزعمون أن حضارة مصر ، فيما قبل الأسرات ، قد تكونت ذاتياً فى الدلتا ، واستعارت الكثير من مرمدة بنى سلامة. ثم انتقلت إلى الصعيد. وحملت معها إلهها الأكبر هوروس. ويستدلون على ذلك من نقوش حجر باليرمو . وعليه سجل مؤرخو الأسرة الخامسة قائمة الملوك . لا من أول مينا رأس الأسرة الأولى . بل من قبله . وقد وجدوا فى قائمة الملوك . قبل مينا . ملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأحمر – أى بتاج الدلتا – وملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأبيض – تاج الصعيد – كما وجدوا بعضهم يحمل الـ « بشنت » . وهو التاج المزدوج . رمزاً إلى توحيد الإقليمين . وفهموا من ذلك أن وحدة الإقليمين تمت قبل بدء التاريخ تحت زعامة الدلتا . ثم انفصم الاتحاد . ليعود فى أول العصر التاريخى تحت زعامة ملوك الصعيد . وهذا الاتحاد الثانى مسجل على اللوحة المشهورة باسم لوحة الملك « نعر – مر » – مينا ؟ – وهذه اللوحة تكمل صورة انتقال حضارة جرزة إلى حضارة الأسرة الأولى ؛ ومظهر هذا الانتقال نقوش على رءوس دبابيس القتال . وعلى اللوحات الأردوازية . فى رأس دبوس منها ، نرى صورة ملك غير معروف الاسم . وإنما سماه المؤرخون الملك « العقرب » . لابساً تاج الوجه القبلى . ومحتفلا بذكرى انتصاره على الوجه البحرى .

فهل يمكن قبول الاستنتاج الأخير كحقيقة واقعة . وهى أن حضارة جرزة تمثل آخر مرحلة حضارية لعهد ما قبل الأسرات . وأن فجر الحضارة التاريخية انبثق من هناك ؟

إن القول الفصل فى هذا تحققه حضارة المعادى . وهى التى أثبتت أن حضارة جرزة جاءت من الدلتا . وبذلك ينتهى عهد المعجزات فى تاريخ الحضارات . ويكون الأثريون والمؤرخون قد وفقوا إلى تتبع الحضارة المصرية من بواكيرها فى آخر العصر الجيولوجى الرباعى . خلال العصور الحجرية القديمة والحديثة . والعصر « الإنيوليتيكى » . حتى عصر الأسرات الأولى .

ويصعب على كاتب هذه السطور أن يقاوم إحساس الاعتزاز والفخر بأن بعض الفضل فى وصل هذه الحلقات يعود إلى مصرى صميم . هو مصطفى عامر . أول من سجل اسماً مصرياً فى قائمة المشتغلين بحضارات ما قبل التاريخ .

أنوبيس يرقص

الست المندورة ما يزال يذكرها عجائز الروضة والمنيل ومصر العتيقة وفم الخليج ، لأنها كانت تقيم حتى العشرينات عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة . شامخة على أشجار أم الشعور [البانيان] التى ما زالت تقف كالآثار القديمة على ضفة النيل عند كوبرى الملك الصالح . ولم تكن مثلهن « أم شعور » . بل كانت جميزة معمرة . وربما كانت شجرة لبخ . فقد رأيتها طفلا غريراً . وكانت هلاهيل المرضى وأضراسهم وخصلات من شعورهم معلقة بفروعها . أو بمسامير دقت فى جذعها . وهى التى كانت تلفت نظرى أكثر من أوراقها . وسأسأل خولى قصر المناسترلى عنها إذا ما التقيت به .

المندورة شجرة كان الناس يتبركون بها . ويقصدونها فى الحاجات . فهى من بواقى خرافات العهود البائدة . مثل رتبة الباشوية . وسيدى المتولى ساكن باب زويلة . والست المزيرة وبغلة العشر . ولو اندفعنا فى طريق الأنثربولوجيين لما ترددنا فى القول بأنها من بقايا عبادة أوزيريس الذى استقر داخل شجرة فى ببلوس . نبتت حوله وفرعت وأورقت على ساحل فينيقيا القديمة عند جبيل . وقد علمت من سكان طرف الروضة الجنوبى . بعد غيابى الطويل عن مصر . أن شجرة المندورة قطعت ، ويؤكد بعض من حضر قطعها أنه سمع أنيناً ينبعث من داخلها والمنشار يحز فى جذعها ، وأن سائلا نزف منها . قد يكون عصارتها . ولو أن محدثى يعتقد أنه من شىء آخر.

ويزعم من شاهدوا المولد الكبير بالأقصر بأن حمل سفينة على عربة . وفوقها أعلام أبى الحجاج الأقصرى فى الاحتفال بمولده . يشبه أن يكون من بقايا طقوس آمون رع ، والسير بسفينته المقدسة فى أعياده الكبرى . ويظن آخرون بأن عادة تلقين الأموات ، فيها ما يوحى بنصوص كتاب الموتى وتقاليد الدفن فى مصر القديمة ، إلى آخر ما نقرأ عنه فى كتاب مس بلاكمان الممتع . وفى رسالة تقدم بها أحد مواطنينا - الدكتور غلاب - إلى السوربون .

وكان أهلنا يحذروننا من الهرة السوداء فى الليل ، إذ يغلب أن يكون بعض

« إخواننا » تقمصها ، كما كانوا ، إذا رأوا واحدة من هوام الليل تحوم حولنا فى ليالى الجمعة ، يلقون فى روعنا أنها روح ميت من أهلنا . وقد ارتفعت من أعماق ذكرياتى هذه الخرافات عندما رأيت صورة « با » ، فى شكل طائر أو حشرة ، تقف فوق تابوت ميت من القدماء ، أو تطير فى بئر السرداب ، وعندما عرفت أن الهرة « بسطيط » كانت إلهة بوباسطيس .

واليوم وأنا أتمشى على شاطئ البحر ، فى نزهتى الطويلة مع طلوع الشمس ، تذكرت فجأة أننى رأيت فى طفولتى الإله « أنوبيس » يرقص . ولم أكن فى ذلك الزمن البعيد أعرف أنه « أنوبيس » ، ولا كان الملاعب الإسكندرانى الذى يحرك دميته فترقص يعنى بذلك تقديم صورة لأنوبيس . ولكننى لم أكن أفهم لماذا اختار الرجل حيواناً محنطاً يشبه الكلب الكبير ، قيل لى إنه « ديبة بو » ، ومعنى هذا فى لغتنا الحديثة أنه جلد ابن آوى حشى بالتبن والقش . وأوقف الرجل « ديبته » فى إطار يشبه مشايات الأطفال ، وألبسها ملابس الغوازى بشرائط القصب ، وركب فى وسطها لولباً يحركه بذراع خشبى أو بذراعين ، فيتخلع خصر دميته ويتكسر على إيقاع غنائه وهو يقول« يا بيلى با . . . يا رقاصة » . فإذا كانت « بيلى با » راقصة ، فلماذا اختار لها الرجل جلد ثعلب محشو ؟ أما كان الأفضل أن يصنع عروساً ولو من قماش ؟

أسائل الآن نفسى : أيعنى الرجل عرض صورة من صور المساخر التى يلبسها الإفرنج فى أعياد المرافع قبل الصرم الكبير ؟ أو أنه يقصد جماعات السائحين ليتفرجوا على « أنوبيس » يرقص ؟ ولكن ذكرى هذا الملاعب وأنوبيسه تكاد تمحى تماماً ، ولن أستطيع اليوم أن أعرف شيئاً عن تلك الدمية العجيبة أكثر مما ذكرت . ومن غير المعقول أن يكون الملاعب عارفاً بأمر« التماثيل المتكلمة » ، وبرأس أنوبيس فى متحف اللوفر التى كان الكهنة يحركون فكها الأسفل بشد خيط مخفى فى قاع حلقها ، رداً على « استخارات » الطالبين .

ولم يبق إلا أن أضحك فى نفسى وأنا أردد : لقد رأيت أنوبيس ، حامل الميزان فى قاعة العدالة بمحكمة أوزيريس ، يرقص رقصة البطن فى حوارى القاهرة ! وابن آوى لم يكن سوى واحد من عديد الحيوانات التى اتخذها المصريون

أربابًا . فقد عبد أجدادنا الهر والأسد والصل والسقنقور والتمساح وسمك اللاقش [اللاطس] والباشق والعقاب وأبا منجل والعجل والبقر والكبش والجعل ؛ واستطاع فهم العجيب أن يوائم بين هذه الحيوانات وبين الجسم الإنسانى . فقد ترى آلهتهم فى شكل إنسان كامل ، أو حيوان كامل ، أو برأس إنسان وجسم حيوان ، أو برأس حيوان وجسم إنسان . ويحار الأثريون فى تفسير هذه العبادات الطوطمية التى استمرت حتى نهاية الأسرات ، بل وأصبحت المظهر البارز لديانة المصريين أيام البطالسة والحكم الرومانى والبيزنطى . وكانت موضوع سخرية يوڤينال فى قصيدته المشهورة ، التى يقص فيها قصة مشاحنة قامت بين أهل دندرة وأهل كوم امبو ، ذكرتنى بما كان يحدث فى الهند البريطانية بين المسلمين والهندوس ، كلما عن للمسلمين أن يذبحوا بقرة ، وهى أقدس الحيوانات عند الهندوس . والفتنة التى تندر بها يوڤينال نشبت حول تمساح أكله سكان إحدى المدينتين ، مع أنه معبود المدينة الأخرى .

تعددت آلهة المصريين ، وتشعبت تفسيرات الأثريين والمؤرخين ، وراح هؤلاء وأولئك يضربون فى كل واد . ولك أن تفهم من كلامهم ما فهموا هم ، أو ما تريد أن تفهم أنت . ما أهمية ذلك ؟ فالمصرى عبد ، كما تعبد الشعوب فى بداوتها ، مظاهر الطبيعة حوله : الشمس والسماء والأرض والماء والزرع .

ولكنه قدس أيضاً آلهة محلية تختلف فى كل كورة عن غيرها ؛ وقد تكون هذه مجرد رموز وشعارات للقومية المحلية . فالمصرى لا يحب وطنه الكبير وحده ، بل يحرص على وطنه الصغير ، إقليمه فعاصمة إقليمه ، ثم قريته . والآلهة العظام كانت هى أيضًا شعارات سياسية وأجداداً للملوك وأنصاراً ، ومصدر رزق واسع للكهان ، يحكمون باسمها على الملك والوزراء والموظفين والشعب ، بعد ما انقاد الملك لهم ، وكان ذلك إبان الدولة الحديثة .

لا قيمة تذكر لتلك الآلهة إلا فيما أقيم لها من معابد وهياكل ، ورسم لها من صور ، ونحت لها من تماثيل . ولقد كشفت لنا ثورة أمينوفيس الرابع « أخن – آتون » عن ألاعيب السياسة التى تستتر وراء الآلهة العظام . وكان أخناتون ثائراً غريبًا ، يمكن أن نعتبره أبا الثوار فى التاريخ ، ندر أن نعرف له فى التاريخ مثيلا . فالثورة تقوم ضد الحاكم وضد الحكم ، يقوم بها واحد من الشعب ، أو من العظماء

يقود الشعب . أما ثورة أخناتون ، فكانت ثورة ملك على كهنته وشعبه ، وخروج ملك عن طاعة آلهته العظام . هنرى الثامن لم ينتقض على ربه ، بل ثار على شاغل الكرسى الرسولى فى روما ، وربما لأسباب عائلية ، ومسائل زواج وطلاق . والإمبراطور يوليانوس ارتد عن المسيحية التى اعتنقها أسلافه ، وعاد إلى الوثنية . والحقيقة أن يوليانوس لم يرتد ، بل أعدته تربيته الهلينية لينشأ وثنيًّا . أما أخناتون فقد خرج على عبادة آمون الكبير ، ذلك الإله الغول ، الذى حاول ابتلاع آلهة المصريين كلهم ، فجاء الشاب أمينوفيس يتحداه ، كما تحدى داود غالوت ، ويعود إلى عبادة الشمس فى مظهرها الواحد الخالق ، وفى صورتها المادية ، « آتون » ، أى قرص الشمس . ولو كان أخناتون من الرجال العمليين لصدقت أن ثورته سياسية ، ولكن طبيعة الشاب توحى بحركة روحية انبعثت من خلجات نفسه ، وربما من الجو الذى تربى فيه — وقد يشبه فى هذا الإمبراطور يوليانوس المارق — ومن أثر الدم الأسيوى يجرى فى عروقه . ولقد اهتدى الملك الشاعر إلى أقدم آلهة المصريين دون منازع ، فأفرد له عبادة قلبية ، ثم عبادة رسمية حين هجر طيبة إلى الشمال ، لينشئ عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا .

وإذا كادت تلك الثورة أن تكلف مصر إمبراطوريتها ، فقد أهدت التاريخ المصرى فنًّا ثوريًّا أصيلا يتوخى الصدق ، وأدبًا رومانتيكيًّا تحس فيه بنفحات الإخلاص والأمانة تهب على الناس ، وإن كان فى كل من الفن والأدب عرق من المرض الملازم لكل رومانتيكية ، وهو المرض الذى تطالع آثاره على سيماء أخناتون وتكوين جسمه : ذلك الوجه المستطيل : والشفة السفلى الغليظة المرتخية ، والخصر النحيل والبطن الثقيل . ولو لم يكن أخناتون صاحب ثورة هائلة ، ولو لم يجدد فى الحياة المصرية ، لاستحق أن ينعت ، من صوره ، بنوع من انحلال الشخصية ، يعرف فى اللغات الحديثة بال fin de siècle .

ولم يكن آتون خلقًا ذاتيًّا خرج من لا شىء ex nihilo ، أو من رأس أمينوفيس الرابع . بل كان إلهًا شمسيًّا ، أو صورة من صور الشمس الإلهة . فإن كلمة آتون نكرة تعنى « قرص الشمس » . ويبدو أن محاولات فاشلة جرت أيام أمينوفيس الثالث لتخليص رع من شركة آمون — رع ، وأفردت للشمس عبادة

خاصة ، حتى قبل أن يشرك أمينوفيس الثالث ابنه أخناتون فى الحكم حوالى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . ونستطيع أن نعثر على سوابق لتلك المحاولات ، ولكن الفضل الأكبر لوضعها موضع التنفيذ الجدى ، يعود إلى الملك الثائر أخناتون . فهو لم يكتف بالصفات الأصلية للشمس التى عرفتها مدرسة « إيون » — هليوبوليس — وإنما انتهى الرجل إلى مقاومة كل ما يتصل بطقوس الديانة المصرية المعروفة فى زمانه . ونكاد نجزم بأن عبادة الشمس فى مظهرها الجديد كانت أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد . فالمعبد الكبير بعاصمة أخناتون لم يكن يحتوى على تمثال يعبد ، وإنما على صورة لقرص الشمس رمز الحياة . وكان للديانة الجديدة مظهر شخصى عجيب . فهى ديانة يبشر بها رجلها الأوحد ، الملك أخناتون ، ويرسم لها طقوسها ؛ ولم تكن كالوثنيات القديمة مجهولة المؤلف . فالملك فيها هو صاحب الديانة ، وهو كاهن الإله ، وقد قارب فى ذلك مركز الملك فى الدولة القديمة ، عندما كان هور وس نفسه . ثم ابن رع كاهنه الأكبر . وقبل أن تتحول مهنة الكهانة إلى التخصص الذى عرفته بعد نهاية الدولة القديمة ، والذى ستعرفه بعد ردة توت — عنخ— آمون ، وينتهى أمرها إلى سيطرة الكاهن الأكبر على الدولة ، ثم تولى الكاهن هريهور الملك ، فى بدء الأسرة الأولى بعد العشرين .

وإذا كان المؤرخون يتشككون فى أن يكون أخناتون هو مؤلف اللحن الجميل والصلاة الرائعة الموجهة إلى آتون ، فهذا من حقهم ما لم يثبت ذلك بالدليل والبينة . ولكنى كلما تأملت صور ذلك الشاب المريض وأعضاء أسرته ، كنت أقرب إلى التصديق بأنه لم يكن رسول ديانته ولا كاهنها الأول فحسب ، بل كان شاعرها المفلق ، ومؤلف ألحانها . وإذا كانت الفنون المصرية قد تخلصت من ربقة التقليد فى عصر من عصورها ، فبفضل ذلك الملك الشاعر الفنان ، الذى أضفى شخصيته على عاصمته وفن عاصمته . فلم يعد التعبير الفنى فى زمانه مجرد الاحتفاظ بالقواعد والأصول ، بل انطلق شخصياً بلحمه ودمه ، فردياً فى كل مظاهره .

والملك ، رسول الرب ، يتلقى عنه الوحى دون وسيط من جن وإنس : « أنت فى قلبى ، لا يفهمك غيرى ، لا يدركك غير ولدك أنا » . فذلك الملك ، ضعيف البنية غير السليم عقلياً كما يبدو من صوره وتماثيله ، أصبح شعلة من الشعور بذلك

الإله الجديد أو المتجدد ، ولنقل إنه تحول شعاعة من تلك الأشعة التى يرسلها آتون إليه : فى صورة أذرع ممدودة ، وأيد منبسطة .

لم يعد الإله يصور لعبيده فى صورة منحولة من حيوان أو إنسان ؛ إنما هو قرص الشمس . وأشعة الشمس تبسط أيديها المتعددة نحو الأرض . تنوء بالخير . وتتقبل العبادة والقرابين . وتختص رسولها على الأرض بعلامة الأزل : عنخ .

ولم يعد الإله يقبع فى ظلام قدس الأقداس ، داخل ناووسه . مثل آمون « الخفى — المتخفى » . بل هو إله يعبد فى وضح النهار . لا سقف يغطيه . ولا جدران تحبسه ، يبدو للعيان وسط باحة المعبد الكبير فى تل العمارنة . ثم هو إله واحد . لا شريك له ، ولا زوج ولا ولد . . خالق نفسه كل يوم . والخليقة كلها تشارك ربها فى أفراحه الخلاقة .

إنما أعجب ما فى هذه الديانة ، هو حرص صاحبها على إلهة من البانثيون القديم ، لم تكن إلهة عظيمة إلا بمعناها الخلقى . لقد احتفظ أخناتون بإلهة الحق والعدالة والصواب : معات ، بنت رع . والمحبوبة من رع . وهى إلهة صاحبت المصريين على طول تاريخهم ، تهديهم إلى فعل الخير . وأداء الواجب . وإقامة شرعة العدالة .

وبعد أن نبذ الملك أمينوفيس اسمه — ومعناه « آمون الراضى » — وتسمى باسم جديد هو « عبد قرص الشمس » . أخن — آتون . وتغيرت أسماء أهل بيته وكبار رجال دولته ، واستتب الأمر لمدينته الجديدة فى تل العمارنة « آخت — آتون » ، أى أفق الشمس — وهجرت المعابد القديمة فى طيبة ، وطورد كهنتها وسدنتها ، وأوصدت أبوابها بعد أن محيت أسماء آمون وحطمت أصنامه ، أقامت الرجعية رأسها مرة أخرى . لأسباب سياسية . وتحت ضغط المصالح التى أضيرت ، ولم تك كلها صوالح الكهنة ، بل لحق الضر بالمصالح العليا للدولة . لأن الملك — النبى . والملك — الشاعر ، لم يكن يعنى بشئون الإمبراطورية الكبرى التى أسسها كبير الأسرة الثامنة عشرة . وأرشيف الدولة ، الذى عثر عليه كاملا فى تل العمارنة . شاهد على إهماله حتى الإجابة على رسائل مندوبيه السامين فى الإيالات الأسيوية . ولقد شعر الأسيويون بالحبال أرخيت لهم ، فشرعوا فى الانتقاض على الحكم المصرى .

فلم يكن من بد أن ينهار نظام أخناتون كله ، ديانة وحضارة وعاصمة : بعد موته مباشرة . وقد تولى العرش بعده أزواج بناته ، ومنهم ذلك الشاب اليافع المترف الضعيف ، ألعوبة البلاط والكهنة ، الذى غير اسمه إلى توت – عنخ – آمون .

وكان الكهنة بحاجة إلى قوة تسند الملك ، وقوة عسكرية قبل كل شىء ، فتدخلوا وآزروا رجل السياسة والحرب ، « هور محب » ، لارتقاء العرش . وآذن هذا بقرب انتهاء أعظم أسرات مصر القديمة ، وبدء آخر الأسرات الكبرى فى التاريخ الفرعونى ، وهى الأسرة التاسعة عشرة ، يتزعمها ويؤثل مجدها سيتى الأول وكبار الرعامسة . وخلف أولئك كان الكهنة يعملون ويؤيدون . وستظل الكلمة العليا لهم حتى سقوط الحكم الفرعونى تحت أقدام الغزاة الأجانب .

إنما الإله الذى سيطر على عقول المصريين ، ونفذ إلى قلوبهم لأطول زمن ممكن ، الإله الشعبى الذى حكم على عالم الأحياء والأموات . وأقام ميزان العدالة فوق الأرض وتحت الأرض ، الإله الذى عرفته الشعوب التى اتصلت بمصر ، وانتهت بالتغلب على مصر . الإغريق والرومان . الإله الذى أفرد له بلوتارك دراسة ممتعة فى القرن الأول للميلاد ، كان أوزيريس .

أوزيريس كان إله الخير ، فى مواجهة أخيه « سيت » إله الشر . كان إله الوادى الخصيب . ضد إله المحل والصحراء . أوزيريس وزوجته – أخته إيزيس نظما شئون البلاد كلها . هى تكفلت بأمور البيت والأسرة ، وعنيت بعلوم الطب والسحر ، وهو المنظم لطقوس العبادة ، الواضع أسس السلوك والأخلاق. ولئن ظل السابقون عليه أربابا فى علاهم ، فقد كان أوزيريس أول إله ينزل إلى الأرض ، ويتحمل عذاب البشر . ويجرى عليه الموت ، ثم ينشر حيًّا ، ويرفع إلى السماء ليلحق بالآلهة فى عالم الخلود . وحق له ، بعد تجربة الحياة والموت . أن يتولى الحكم فى العالم الآخر حتى آخر عهد الوثنية المصرية . أى حتى القرن الخامس الميلادى .

وأهمية أوزيريس وأسرته الصغيرة تبدو لنا فى ضوء التاريخ الوثنى ، وما جاء بعده ، لأن الثالوث المصرى القديم : أوزيريس – إيزيس – هوروس . كان له اكبر الأثر فى تحول المصريين إلى الثالوث المسيحى .

وإن حب العالم القديم لإيزيس ، الزوجة العاقلة الأمينة ، وانتشار عبادتها فى

أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وتحول عبادة أوزيريس ، وأبيس المؤله ، إلى عبادة مصرية يونانية فى عهد البطالسة ، تركزت حول الإله سيرابيس (— أوزير — أبيس) ، لظاهرة جديرة بالاعتبار ، لما كان لها من أثر فى تطور الديانات القديمة ، وتخلخل فى العبادة الرومانية مهد الطريق لتسرب المسيحية وانتشارها فى العالم القديم .

قيل إن أوزيريس كان ابن إله الأرض « جب » ، وإلهة السماء « نوط » ، وإن حياته وموته ونشوره ، رمز أبدى للطبيعة المتجددة : موات الأرض وعودتها إلى الحياة . أوزيريس إله زراعى ، يخضر عوده وينمو ويورق ويثمر ، ثم يجنى ويحصد ، وتذر أشلاؤه فى الأرض ، لتعود الحياة إلى الأرض نبتاً جديداً .

وأوزيريس إله الماء أيضاً ، تلك القوة الخلاقة . والماء فى مصر هو « حابى » رمز النيل الذى يفيض ويغيض ، يرمز ثديه الواحد إلى الفيضان والخير ، ونصف صدره المفلطح إلى الجفاف والتحاريق . ولا يبعد أن يكون « حابى » هذا مجرد رمز مصور للنيل ، وأن يكون معبود المصريين الثانى ، بعد الشمس ، هو أوزيريس ، الإله — الماء . فالابتهالات الدينية تتجه إلى أوزيريس بقولها : « النيل ينبع من عرق أياديك . . . أنت النيل ، والآلهة والناس إنما يحيون بفضل جريانك » .

وفى أخريات التاريخ الفرعونى ، كان الغرقى يكتبون فى الشهداء . أتعرف أن هذه الفكرة ما تزال حية بين أفراد الشعب المصرى إلى اليوم ؟

والأسطورة تجعل من أوزيريس أول ملك لمصر الموحدة ، أيام كان يتولى الأرباب عرش مصر . وصراعه مع أخيه « سيت » صورة من جهاد مصر فى سبيل الوحدة . وكانت بوزيريس عاصمة أوزيريس فى الدلتا . وربما كان أوزيريس حقاً أول ملك من البشر رفعه المصريون إلى مرتبة الآلهة . فالملوك من أول التاريخ المصرى ، وقبل أن يكونوا أبناء رع ، كانوا كلهم هوروسات ، وكان العامود « جد » يقف منتصباً فى جميع الأعياد الثلاثينية الملكية ، كشعار لقيام أوزيريس من بين الموتى . وكان أوزيريس يمثل حاملا كافة الشعارات الملكية : التاج المزدوج — البشنت — والصولجان والسوط ذى اللسانين .

وأوزيريس كان إله العالم الآخر ، لأن الطقوس التى أجريت على أشلائه جمعتها إيزيس من شرق الأرض وغربيها ، هى التى أعادته بقوة السحر إلى الحياة

الأبدية . فالناس يحرصون أن تجرى على بقاياهم الزائلة طقوس مماثلة ، حتى ينعموا بالحياة المقيمة فى مملكة أوزيريس .

أوزيريس إذن هو إله الزرع والضرع والنيل والخلود ، بل هو أكثر من هذا : إنه إله الأسرة الفاضلة مجتمعة ، إنه الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن أخته وزوجته إيزيس ، ومن ابنه هوروس ؛ هو وهم مثال العائلة المتماسكة المناضلة . أى أن أوزيريس اجتمعت فيه صفات الألوهية ، مادية وروحية . إله نافع فى الحياة وفى الممات . إله خلق أيضاً : فقصة صراعه مع أخيه ، رب الحيل « والمقالب » سيت ، وإخلاص إيزيس لذكراه ، وتجوالها فى العالم القديم تجمع بقاياه ، ثم إعادته إلى الحياة ، كل هذه القصة الإنسانية العظيمة كانت عناصر نجاحه على طول التاريخ المصرى العتيق ؛ بل وخارج مصر فى عبادة إيزيس وسيرابيس .

انتهت الديانة المصرية إلى أوزيريس ، وقد بدأت من قديم بالشمس فى مدينة « إيون » . والشمس منذ الأسر الأولى كان خالق كل شىء ، وخالق نفسه ، عندما خرج من ماء الحياة ، نون ، باسم آتوم . خلق نفسه ، وسمى هاراختى ، وسمى هوروس ، وغير ذلك من الأسماء . وهو « آتون » قرص الشمس ؛ وهو الجعل يدحرج كرة الخلق الدائم ، وهو الصقر يحلق فى السماء . بيد أن اسمه الأكبر ، الذى اشتهر وذاع فى طول البلاد وعرضها ، الاسم الذى انتسبت إليه الملوك ، منذ اعترف له ملوك الأسرة الرابعة والخامسة بالسبق ، كان « رع » .

ولكن أى شىء كان قبل « رع » هذا ، وكيف تصور أجدادنا أصل الخليقة ؟

قيل كان العالم ماء وظلاماً ، أو كان فيضاناً وطوفاناً ، وكما أن النيل ، إذا عاد إلى مجراه وانحسر عن الأراضى العالية ، ترك وراءه هضاباً مغطاة بالطمى ، هى مصدر الحياة ، فإن طوفان العالم بدأ يغيض . وظهرت على سطحه أعالى الأرض كالجزر . وفوق جزيرة منها وقف مخلوق نفسه ، « آتوم » ، وحيداً ، وشرع فى الخليقة ، فخرج الآلهة والمخلوقات من نطفته . استمناها بنفسه فى رواية ، أو أنه أخذ يتلفظ باسم كل عضو من أعضاء جسده . وإذا الكلمات تتجسد آلهة وبشراً وكل المخلوقات .

ولكن كهنة منف ، وقد أصبحت عاصمة الوجهين ، أرادوا لإلههم الأكبر

« فتاح » أن يحتل الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق آتوم نفسه . وقد تحايلوا على ذلك بقولهم إن « آتوم بأصغريه ، قلبه ولسانه ، وفتاح هو هذا القلب واللسان » . والقلب ، فى لغة المصريين ، يعنى العقل . فاذا كان آتوم بغير العقل واللسان ؟ إذن ففتاح — الفتّاح — هو خالق آتوم ، وخالق الآلهة ، وخالق الكل ؛ تدبر بعقله ، ثم نطق بلسانه . فكانت الخليقة : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » ، كما جاء فى مطلع الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وفى نص مصرى قديم يقول كهنة منف :

« إنه الفؤاد يختلج بالفكر ، واللسان ينطق بما اختلج به الفؤاد . وهكذا خلق الآلهة جميعاً . . . والحق أن الكون الشامل خرج من صميم القلب عندما نطق اللسان بكل ما فى الكون . ونزل معه قسطاس العدل يثيب المحسن ويعاقب المسىء . . وهكذا خلق العمل والحرف والصناعات ، كما نظمت حركة الأذرع ، وحركات السيقان ، وكل ما تنبض به حياة الإنسان ، انصياعاً لما اختلج به القلب ، وتحرك به اللسان ، فتاح مبدع الكون ومسوى الآلهة » .

* * *

وكان لمصر الوسطى ، بمنطقة الأشمونين ، إله اسمه « توت » ، اندمجت فيه آلهة كور عدة : آلهة على شكل حيات وضفادع وقردة وآباء منجل . وعزوا إليه كل ما ينشئه العقل وتنطق به الحكمة ، كالكتابة والحساب والعلوم والسحر . وكان يمثله ، فى الغالب ، الطائر « إيبيس » أبو منجل ، أو إنسان له رأس ذلك الطائر . ويظهر أن توت هو الذى تقمص بشراً فيما بعد ، وعرف فى عالم السحر باسم هرمس ترسميجسطس ، أى مثلث الحكمة .

ومحاولات مصر الوسطى ، وكهنتها ، لم تكن لتستطيع أن ترقى بإلهها توت الحكيم إلى أكثر من درجة رئيس ديوان أوزيريس فى العالم الآخر ، لأنه لم يكن من السهل التغلب على سيد أبيدوس العظيم .

وخرج من بلاط توت إله قمىء إمعة ، لم يكن يتصور أحد أن يرتفع فى البانثيون المصرى إلى أعلى عليين . ولكن أراد له طالعه أن تختاره قرية حقيرة ، اسمها طيبة ، ربًّا لها ؛ ثم علا شأنها حين انتقل إليها الحكم منذ مطالع الدولة الوسطى ، حتى عهد الإمبراطورية الحديثة . وكان اسم هذا الإله « آمون » ،

ومعناه الخفى أو المختفى . مستودع الأسرار . خرج آمون الخفى من بلاط توت الحكيم . ليعيش مجهلا أول الأمر فى زاوية من زوايا طيبة ، حتى أخذ بيده الملك آمون – إم – حعت ، وترجمة اسمه « آمون أولا » ، ورفعه إلى المرتبة العليا فى عاصمة الأسرة الثانية عشرة . التى أسسها ذلك البناء العظيم .

وثبتت أقدام آمون منذ ذلك الحين إلهاً للملوك وأتباعهم من الطبقات الحاكمة . ينتسب إليه ملوك الدولتين الوسطى والحديثة ، فكان الفرعون ابن آمون روحياً وجثمانياً ، كما تمثله نقوش معبد الأقصر ، أباً فعلياً لأمينوفيس الثالث ، وكما تصوره أسرار ولادة حتشبسوت من صلبه . عاشقاً لأمها أحموزى الحسناء .

لم يكن من الصعب على كهنة آمون أن يستولوا على الإله الشمسى القديم ، ويربطوه قسراً بعجلة إلههم الحديث ، فيصبح إله طيبة الكبير ، بل رب العالم القديم ، هو آمون – رع . وهو الإله الذى يمم الإسكندر شطر معبده بواحة سيوة ، على اعتبار أنه معبد زفس . أو جوبتر – آمون ، يسأله عن سر مولده ، فإذا آمون يشير فى لغة كهنته إلى صلات وثيقة كانت بينه وبين أم الإسكندر ، أولمبياس زوجة فيليب . فى بلاد مقدونيا . وقد يفسر هذا الادعاء الصورة المشهورة للإسكندر وقد نبت له قرنا الكبش آمون . ولو أن الأولى بالقرنين كان ، دون شك ، الملك فيليب المقدونى .

وقصارى القول إن الإله الرسمى الكبير الذى تحكم فى أقدار الملوك منذ الأسرة الثانية عشرة . كان آمون – رع . والإله الشعبى الذى استولى على أفئدة المصريين منذ أقدم العصور . كان أوزيريس . أو الثالوث الأوزيريسى : أوزيريس – إيزيس – هوروس .

وكانت أطول الآلهة حياة هى إيزيس ؛ فحينما أصدر الإمبراطور المسيحى ثيودوسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥ م) مرسومه يحظر إجراء الطقوس الوثنية فى أية جهة من جهات الإمبراطورية . توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علناً . وانهال بطريرك الإسكندرية تاوفيلوس على معبد سرابيس الأعظم بالإسكندرية يهدمه . وينكس الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما يستطاع من المعابد المصرية فى طول البلاد وعرضها . وتفرق الكهنة المصريون فى الأرض ، وقد هجروا ما بقى من معابدهم تنعى من بناها ؛

إلا فى جزيرة فيليه بأسوان ؛ وفى هذا يقول ماسپيرو :

« عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظافرة الاضطهاد نفسه الذى ذاقته المسيحية على أيدى الوثنية ، إلا معبد إيزيس بجزيرة فيليه ، الذى تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . ومرد ذلك إلى تمسك الإثيوبيين بهذه الإلهة ، وتمسك جميع الشعوب القاطنة بأعالى النيل ، المتخلفة عن مملكة مروى . فعندما استولى البليميون [أسلاف البجاويين والبشارين والعبابدة ومن إليهم] على النوبة ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، خضعوا لسحر إيزيس فعبدوها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها فى جزيرة فيليه ، على الرغم من مرسوم ثيودوسيوس القاضى بإقفال المعابد . ولم يكن مسيحيو فيليه ، بتشجيع من مطارنة أسوان ، ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد إيزيس ، لولا خوفهم من بطش البليميين . لذلك بقى تمثال إيزيس مرفوع الرأس فى مواجهة المسيح الظافر . وبعدما قضى النوبيون على البليميين فى حكم يوستنيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥ م) تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، أخيراً ، من أن ينكس صنم الإلهة ، ويدك مذبحها ، ثم يحول معبدها إلى كنيسة .

« ونستطيع أن نتخيل فى هذا القرن الأخير للوثنية المصرية [القرن السادس] ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعيتهم إلى النصرانية ، ولم يبق حافظاً للديانة العتيقة سوى بعض بواقى الأسر الكهنوتية العريقة . يمكن تصور هؤلاء الكهنة قابعين فى حرم معبدهم ، خلف أبواب موصدة ، يتوقعون فى كل آونة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة . ولكنهم عرفوا بعض فترات من الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسولى لملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببر الجزيرة فى احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرابين . وكان الكهنة حينئذ يرفلون فى أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تمثال الإلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعيها ، ويقفون فى جوسق نكتانيبوس الملك ، فى انتظار حجاجهم البليميين . ويتقدم أولئك فى موكب حافل وخشوع عظيم . كان منظراً يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت إيزيس حقاً سيدة العالم » .

الفلاح الفصيح

يتعلل العلماء، تفسيراً لهزال الأدب المصرى ، بأن أجدادنا كانوا أكثر عناية بالنصوص الدينية؛ وهنا أيضاً تنحرف نظرتهم العامة تحت تأثير حضارة لم يبق من وجهها الدنيوى إلا القليل ، بالنسبة لما احتفظت به المعابد والقبور . ولكن الاطلاع على القليل من الأدب المصرى الدنيوى ، وهو الذى احتواه كتاب إرمان ، يقنعنا بضياع أكثر ذلك الأدب ضياعاً ربما كان نهائياً .

وهناك نظرية أدبية مقبولة فى بعض الدوائر تقول بأن أدب المواعظ والحكم والشعر الوجدانى ، فى أسفار التوراة — والتوراة هى تاريخ بنى إسرائيل ، أخبارهم وآدابهم وفلسفتهم — متأثر بالأدب المصرى ، ويظهر ذلك بشكل محسوس فى شعر المزامير ومراثى إرميا ، وسفر أيوب ، ونشيد الإنشاد .

ولا أصدق أن يبلغ الكاتب — الاسكريب — مكانته الاجتماعية فى مصر لمجرد أنه كان باشكاتب ديوان الفرعون ، أو ناظر شفالك أمراء الكور . بل كان فناناً كزملائه الرسام والحفار والنحات ، وكان مفكراً اجتماعياً ، وحافظاً لتراث الآباء والأجداد ، من علم ومعرفة .

ومن آثار الدولة الحديثة صفحة يصور فيها مؤلفها مشاق حياة الزارع والصانع وغيرهما ويشيد بمقام الكاتب :

« لا تكن مزارعاً ، وجانب صنعة الجندية ، واحذر مهنة الكاهن ؛ فليس فى كل هذه المهن ما يعدل صناعة الإنشاء » .

وجاء فى كتاب المدعو « أخطوى » إلى ابنه « پيپى » : « لا شىء يفوق الكتب ، وليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك ، وأن أنبه فيك الإحساس بجمالها » .

وفى بردية من مجموعة تشستر بيتى المشهورة ، تعاليم للشباب عن مقام أساتذة الماضى ، وما يجب أن تحفظه لهم الأجيال الطالعة :

« أما عن أولئك الكتاب الأعلام ، فإن اسمهم منقوش على صفحات الأزل ،

مع أنهم ذهبوا مع الذاهبين ، وعفت ذكرى معاصريهم . إنهم لم يشيدوا أهرامات ، ولا أقاموا لوحات لذكراهم ، ولم يخلفوا عقباً يتغنى بأسمائهم . إنما هى كتبهم ، وما أودعوها من حكمة أورثوها لنا ، تتحدث عنهم بمقدار ما لهذه الكتب من معنى وقيمة ، وتخلد ذكراهم إلى أبد الآبدين . . . والكتاب أبقى من قصر مشيد . أو معبد جنائزى فى أرض آمنتى ، أو شاهد من الصوان فى معبد .

« فهل نجد بين ظهرانينا كاتباً مثل هارديديف ؟ أو عبقريًّا كإمحوتب ؟ من نضع الآن فى صف بنووفرى وأخطوى ؟ أو نقارنه بفتاح — حوتب أو بقائيروس ؟ أو بفتاح — أم — جيهوتى ، وحاخب — إراسونب ؟ » .

وكلمة أخطوى لابنه بيبى : « ليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك » ، لا نبلغ عمق معناها إلا أن نطالع فى نصائح الوزير فتاح — حوتب هذا الكلام الذى كتبه فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد :

« ضاعف جراية أمك . تحملها كما حملتك ، ولاقت فيك المشقة والنصب . حملتك أشهراً فى بطنها ، ثم ولدتك ، فلم ينته عذابها ، بل أرضعتك ثلاث سنين ، وكفلتك وأدخلتك المدرسة ، لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك كل يوم بباب المدرسة ، تحمل إليك الطعام والشراب . فعندما تشب عن الطوق ، وتتخذ لنفسك زوجاً ، ثم تصبح رب أسرة بدورك ، اذكر أمك التى حملتك وكفلتك ! وكل ما أتمناه لك ، أن لا تنحى عليك أمك باللائمة ، وأن لا تدعو عليك دعوة يستجيب لها سبحانه وتعالى » .

ومن الثابت أن كانت للمصريين مكتبات تحتوى على الكثير من المراجع ، وتحميها إلهة نرى صورتها على جدران معبد سهورا ، من ملوك الأسرة الخامسة ، هى « سيشات » ، ربة التاريخ ، التى تسجل حوليات الدولة ، شريكة توت فى حماية فن الكتابة والعلوم الرياضية ، سيدة « بيت الحياة » أى معاهد العلم ؛ وهى التى تنقش الاسم الرسمى للملك فى هليوبوليس ، على أوراق شجرة المنتهى .

ويسأل الملك زوسر ، رأس الأسرة الثالثة ، مستشاره إمحوتب الحكيم ، عن منابع النيل ، وعن الإله الموكل بها ، فلا يجيبه أعلم علماء العصر القديم قبل أن يراجع مكتبته .

والملك نفر – حوتب ، من الأسرة الثالثة عشرة ، ينعى ما أصاب الفن فى زمانه ، ويقول : « ألا كم أحب أن أرى الكتب القديمة التى تتحدث عن الإله آتوم » ، فيشير عليه رجال حاشيته بأن يدخل إلى بيت الكتب ليطالع الكلم المقدس : « وفتح جلالته لفافات البردى ، وحوله رجال بلاطه . . . ثم قال : نحن الملك ، نعلن إرادتنا فى أن يصور أوزيريس مع التاسوع كما نراه فى هذه الكتب » .

أما أن المصرى قصاص بالفطرة ، فأمر هذا قد لا يحتاج إلى دليل ، وقد عرفنا ، أبناء الحضر منا وأبناء الريف ، مكانة القصص فى حياة الأسرة والمجتمع ، وقدرة أهلنا على الحكاية المرتبة المشوقة . وأنا واحد من الناس أعتقد بأن كتاب « ألف ليلة وليلة » أدب مصرى فى الكثير من قصصه ، وقد عنيت يوماً بالقصص البحرى فى العربية ، وبقصة السندباد بخاصة ، فوجدت لغة هذه القصص ، وعقلية المتحدثين فيها ، وسماتها ، مصرية بلدية . أما مصادرها فقد تحدثت عنها طويلا فى كتابى « حديث السندباد القديم » ، وأرجعت ما يكاد يكون كل ما فيها من وقائع إلى كتب الرحلات والعجائب والكوزموغرافيا العربية .

أين إذن القصص المصرية فى العصور القديمة ؟ فيما عدا قصة الرحالة ، أو النوتى الذى توغل فى البحر الأحمر وانكسرت سفينته ، وألقى به الموج إلى جزيرة فى جنوبى البحر ، رأى فيها الزوبعة البحرية المسماة « نافورة الماء » ، والتى تعرف عند العرب بالتنين ، لاعتقادهم أنها حيوان بحرى ضخم ؛ التقى فيها بطل القصة المصرية القديمة بهذا التنين يجاذبه أطراف الحديث . وفيما عدا قصة « سنوهى » ، وقصة « أونامون » ، وقصة « خوفو والسحرة » ، وقصة الأخوين ؟ أين أصول القصص التى سمعها هيرودوتس ، وسردها علينا فى صور مشوهة ، غير مقبولة عقلا ، فى كتابه عن مصر ؟

ولقد اخترت لك من الأدب المصرى كله ، وهو قليل ، صفحة واحدة من روح كتابى هذا . فإن كان كتابى – كما أردت له – صفحات مختارة من ملحمة الشعب المصرى ، فقد حرصت على أن يتضمن قصة « شكاية الفلاح » ، كما يسميها أدولف إرمان ، أو قصة « القروى الفصيح » ، كما يسميها برستيد ، لأنها

تمثل عندى قصة فلاحى مصر على مدى الأجيال والآباد .

وإنما أحب قبل ذلك أن أشير إلى حادثة بسيطة جداً وردت فى قصة « خوفو والسحرة » ، أترك للقارئ أن يستشف منها ما يراه ، وأرجو أن يوافق رأيه ما رأيته فيها :

« ومثل ديدى الساحر بحضرة الملك خوفو ، فقال جلالته : يا ديدى ، كيف لم أروجهك من قبل ؟ . أجاب ديدى : إنما نتوجه إلى من يدعونا ، وقد دعانى الملك فلبّيت . قال جلالته : أصحيح ما يقولون من أنك قدير على أن تلصق رأساً فصل عن الجسد ؟ . أجاب ديدى : أى نعم ، يا مولاى الملك ، فى مقدورى ذلك . قال جلالته : علىّ بسجين ننفذ فيه العقوبة تواً . فاستدرك ديدى وهو يقول : حاشا يا مولاى ! أنا لا أجرب سحرى فى الإنسان . أليس الأخلق بنا أن نجرب مثل هذا العمل فى العجماوات ؟ وأحضروا له إوزة يجرى عليها سحره » .

* * *

فلنقص عليك الآن قصة الفلاح الشاكى الفصيح . حدثت وقائعها إبان الدولة الوسطى ، عندما كانت عاصمة البلاد فى هرقليوبوليس ، فيما بين لشت ودهشور بمصر الوسطى ، وفى عهد ملك اسمه نب — كاو — رع ، يظن أنه حكم قرب نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . ويبدو أن بطل القصة كان من أهل وادى النطرون ، يتوجه إلى العاصمة ومعه حميره محملة بالنطرون ، يبادل به غلالا .

« كان يا ما كان ، رجل اسمه خنوم — آنوب ، وهو قروى من وادى الملح ، له زوجة اسمها مريا.............. واتجه القروى جنوباً إلى هرقليوبوليس ، واتفق له أن التقى برجل واقف على قارعة الطريق اسمه توتى — نخت بن أزيرى ، من رجال رينسى بن ميرو ، رئيس ديوان الملك » .

ما إن رأى توتى حمير القروى حتى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها . فجاء إلى مستدق فى طريق القروى « لا يزيد عن عرض مئزر » ، يحده من يمينه غيط شعير ، ومن يساره مجرى ماء . ففرش عليه ثوباً من قماش ، سد به الطريق ، فيما بين غيط الشعير وشاطئ الترعة ، جراً للشكل . ورأى القروى الطريق مسدوداً ، مع أنه ، كما يقول ، « طريق ملك للجميع » ، أى طريق عام ، فجانبه حرصاً على القماش

المفروش . ودفع بحميره إلى ناحية الحقل ، ليمر من طرفه . فقضم أحدها قضمة شعير ، فكانت الفرصة التى يغتنمها توتى – ناخت ، صاحب الحقل ، قال :

« سآخذ حمارك هذا ، لأنه يرعى شعيرى !

« قال القروى : إننى أسير فى طريقى ، وأنت الذى اعترضته ، فحملتنى على الانحراف إلى طرف حقلك . فهل تأخذ حمارى لأنه قضم قضمة شعير من شعيرك ؟ اسمع أما أجول لك : إننى أعرف صاحب هذه الأبعادية ، إنه رينسى ابن ميرو ، رئيس ديوان الملك ، وهو الذى يطارد كل لص فى البلاد . فهل أسرق فى أملاكه ؟

« توتى : أنا الذى أتكلم . فما الداعى لذكر السيد رينسى ؟

« وشوّح توتى بهراوته ، ثم انهال بها على الفلاح ضرباً ، وساق حميره كلها إلى دار العزبة . وأخذ الفلاح يصيح مستغيثاً ، فقال له توتى :

« لا ترفع صوتك هكذا يا ولد ، وإلا شيعتك إلى عالم رب الصمت [أى أوزيريس ، وكأنه يقول له : اخرس يا وله ، لاحسن أطلع روحك !] .

« الفلاح : تضربنى ، وتستولى على مالى ، ثم تريدنى أن أسكت ؟ يا إله الصمت ، أستجير بك أن تعيد إلى مالى !

لبث القروى عشرة أيام بباب توتى ، يستعطفه فلا يلقى منه إلا عنتاً وإعراضاً ، فيذهب المسكين إلى العاصمة ، يرفع شكواه إلى السيد رينسى . وهذا يحيله على موظفيه ، فلا يلاقى منهم سوى إهمال أمره ، والميل إلى الغرض ، تحيزاً ازميلهم ، ناظر الضيعة . ويعودون إلى الرئيس ليقولوا له : « إنما القروى مدين لابن أزيرى ، فلم يصنع هذا أكثر من استرداد حقه عنده . وعلى أية حال ، هل يعاقب توتى – ناخت على قليل من النطرون ، وشوية ملح ؟ فليردّ عليه قليل ملحه ونطرونه إذا ما لزم الأمر » . ويتغافلون قصداً عن الحمير التى استولى عليها ، وهى مصدر رزق القروى .

يقول برستيد : « يستمع القروى إلى هذا الحكم الجائر ، بينما يجلس رئيس ديوان الملك سارحاً صامتاً . إنها لصورة تجمع فى بساطتها قروناً وأجيالا من التاريخ الاجتماعى للشرق : فى ناحية : شرذمة من الدهاة المداهنين ، رجال رينسى ، ويمثلون

فئة الموظفين . وفى مواجهتهم الفلاح المغبون . يمثل صيحة أجيال المحرومين يطالبون بالعدالة الاجتماعية » .

ولم يثن الفلاح حكم الموظفين . ولا سطوة المحسوبية . عن أن يعيد بث شكواه إلى رينسى فى بلاغة وفصاحة . لا يجد بعدها رئيس الديوان مندوحة عن الذهاب إلى ولى النعم . نب — كاو — رع . ليقول له : « لقد وقعت يا مولاى بقروى ذرب اللسان . فياض البيان . وقد استولى واحد من رجالى على أموال له » . فيأمر الملك بأن يستمع رئيس ديوانه إلى الشاكى . دون أن يظهر استجابة إلى شكواه : حتى يفرغ ما فى جعبته . على أن تدون أقواله فى محضر . وبأن يرسل الرئيس إلى أهله وأطفاله رزقاً . وأن يوصى حاكم الإقليم بهم خيراً .

وهنا تنتهى تلك المقدمة التى أراد بها كاتبها أن تكون إطاراً لتسعة أحاديث . يضمنها حكمه على العهد . ونقده للرجال المسئولين . وهى صفحات كانت تدرس للأولاد كمحفوظات . وتتلى عليهم كإملاء . وينقشونها فى ألواحهم تحسيناً لخطهم :

« جعلت يا سيدى أباً لليتامى ، وعائلا للأيامى . وأخاً للمحرومين . اسمك على رأس شرعة العدل . ونفسك عالية تكبح جماح الظالم ، وتقيم ميزان الحق . أنصت إلى شكواى . واستجب إلى دعائى . ليعود الحق إلى نصابه . أغثنى وارفع عنى ما ألم بى من جور .

« يا سيدى الرئيس . أنت الصالح المؤمن . البار بأرزاق الناس . كأنك النيل تخضر به الحقول . ويحيا به موات الأرض . فى حماك يأمن الناس غائلة المعتدين . ولا يمنع السائل عن بابك . لا تستخف بأمرى . فى رقبتك شكاية الضعفاء . أنزل بالمسىء عقابك ، حتى لا يختل ميزان العدالة فى يدك ، فتهبط كفة ذنوبك يوم الحساب .

« واجبك أن تصغى إلى الشاكى ، وتفصل بين المحتكمين إليك . وظيفتك حمايتى من المعتدى ، لا أن تقف إلى جانبه . أقم من نفسك للفقير سداً يحميه من الفيضان . ولا تكن كالسيل الذى يجرفه .

« يا سيدى الرئيس ، أزح عنا الجور . وامنحنا عدالتك . هبنا من لدنك الخير ، تقطع دابر الشر . كن طعاماً للجوعان ، ورياً للظمآن ، ولباساً للعريان ، ودفئا لمن عضه القر بنابه .

« لقد علمك أهلك ، وأحسنوا تربيتك ، لا لتسرق ، ولا لتساعد السارق ، لا لتميل مع المعتدى ، فتكون على رأس المعتدين . حذار أن تصبح البستانى الضال ، فتروى أرضك بالظلم ، وينبت زرعك البهتان ، ويروج الشر فى سوقك .

« أنت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وهو ذا يتدفق من فمى أنيناً وشكوى .

« أنت مغيث الملهوف ، وموقظ النائم ، وملهج لسان الصامت . ليس من شيمك أن تحكم مغاليق قلبك ، وأن تضع أصابعك فى أذنيك حتى لا تسمع إلى من يتهم رجالك الذين أقمتهم لإنصاف الناس ، فكانوا عوناً على من لا خلاق لهم .

« أنصفنى بحق العدالة ، وربة الحق ، يا حامل الطرس والقلم ، كأنك توت الحكيم . فالحق بالحق أولى ، و « معات » إلهة الحق والعدل قائمة إلى يوم الدين ، تؤازر المنصف ، ومن عمل صالحاً ، وهو يوارى التراب مسجى فى ناووسه وحده ، وتخلد اسمه لأنه رفع شرعة العدالة ، وأصاخ إلى كلماتها إليه : « لا تنبس شفتاك بغير كلمة الحق ، ولا تقدم يداك إلا الصالحات ، فالحق عظيم ، قوى ، سرمدى ، وثوابه معك حيث تكون » .

« أما الخديعة فلا تورث إلا الندامة ، وريحها الخبيث يدفع بسفينة صاحبها إلى حيث لا مرفأ . ومن نكث عهد العدالة ، فقد الصاحب والولد ، وكانت سوداً أيامه .

« إيه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فلا تسمع ؟ لم يبق لى إلا أن أستجير منك بأنوبيس فى العالم الآخر » .

* * *

ومع أن نهاية هذه البردية الجميلة ، التى يحتفظ بها متحف برلين ، مشوهة غير واضحة الكتابة ، فإننا نتصور أن الوزير رينسى ، وقد سجل شكوى الفلاح ، حمل المحضر إلى ولى النعم ، فوجد فيه « ما تطيب له نفسه ، ويفرح به قلبه » .

ويتبين ، مما تمكن قراءته ، أن الملك أمر بفحص حالة الفلاح الفصيح ؛ ثم ترد بضع كلمات غير واضحة ، نرجو أن تكون سجلت قرار الملك بإعادة الحق إلى نصابه ، والأخذ من الظالم للمظلوم .

وقفة الحائر

اللهم قد بلغت الذرى ، وتسنمت قنات المجد ، وكان طريقى الطويل فى الليل المدلهم وعرا عسيراً ، يدمى القلب والقدم . بدأته فى جحيم التاريخ المصرى ، ظلامه وحميمه ، جوعه وزقومه ، جوره ومظالمه ، زبانيته الغرباء يعتدون على وطنى ، وأهل وطنى يعتدى بعضهم على بعض .

أقف أملأ رئتى من هواء الأعالى المخلخل ، وأرجع البصر حائراً . . . متردداً . . . وأنا من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف عام ، هى التى جعلت اسم بلادى على كل لسان ، منذ قدماء الإغريق إلى اليوم . الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم المتمدن ، قديمه وجديده ، هى التى نزلت بى إلى الحضيض عندما اشتبه العالم فى أننى غير جدير بأجدادى الأولين ، بل تشكك فى شرعية مولدى ، عندما عرفنى أقل الناس علماً بمجدى الغابر ، وأشدهم إنكاراً لأرومتى .

لست مستحقًّا رفعاً ولا خفضاً ، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب ، وصدق الناس أخيراً أن المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه . لا تحكم لى أو على ، لأن ماضىّ البعيد كان مجداً مؤثلا ، وماضىّ القريب كان ذلة وهواناً . أنظرنى حتى تتبين حاضرى ، وستعرف أن حرفاً واحداً لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى ، والمسيحى والإسلامى . فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه ، تالده وطريفه ، كراكيبه وتحفه الغالية ، عظيمه وحقيره .

فى قلبى الفسيح مكان لكل أسلافى ، عاقلهم وأحمقهم ، غنيهم وفقيرهم . « بهو الأجداد » فى بيتى لا يعنى بأسماء يتردد صداها فى رحاب التاريخ وقاعاته ، بقدر ما يعنى بالمجهولين المغمورين منهم ، ذلك الجبار المصرى الذى رمى وراءه ستين قرناً من الزمان ، مكلل الجبين بكل ذلك المجد ، مثقل الكاهل بكل ذلك العذاب والقهر .

أقف فوق قمة الجبل الشامخ الأشم ، لأملأ رئتى من هذا الهواء المخلخل ، يعترينى دوار ، وينعقد لسانى ويتعطل بيانى ، فما هو هذا التاريخ المصرى الذى

طال السرى بحثاً عنه ، وطلع الفجر علينا ، فإذا به ماثل أمامى من أوله ؟

* * *

عندما سأل هيرودوتس الكهنة المصريين عن عدد الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد مينا ، أجابوه بأنهم ثلاثون وثلاثمائة ، وادعى أنهم فتحوا له بهواً عظيماً ، اصطفت فيه تماثيل أولئك الملوك الثلاثمائة والثلاثين .

ويقول ديودورس الصقلى بأن المصريين يعتبرونه مقياساً على حكمتهم ، وسلامة شرائعهم ، أن يتولى الحكم فيهم قافلة من الملوك تتوالى على مدى سبعمائة وأربعة آلاف عام ، وكان جلهم من أهل البلاد .

وكان سولون يردد قول الكهنة المصريين له : أنتم يا علماء اليونان أبناء يومكم فيما تعرفون ، ويضيف أحمد كمال فى ترجمته المسجعة : ليس فيكم كهول فى الفضل ولا شيوخ ، ولا من له فى المعارف قدم ثابت ولا رسوخ .

* * *

التوغل فى العتاقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى . ومن المشكوك فيه جداً أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية .

ويتراوح التقدير الحديث لتاريخ مصر بين ما يعرف بالتقدير الطويل . وهو ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وبين التقدير القصير وهو مئتان وثلاثة آلاف عام . وهذا يتناول تاريخ الأسرات وحدها ، أما ما قبل الأسرات فتاريخ يمتد إلى آلاف مؤلفة لا نعرف لها عداً ولا حصرا .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : هل توصل العلماء إلى الكشف عن تاريخ مصر كله ؟ والإجابة عن هذا نفى بات ، فما أبعدنا اليوم عن معرفة هذا التاريخ كاملا . ولا يظن أن نبلغ منه يوماً مبلغ ما اجتمع للأوربيين عن تاريخهم اليونانى والرومانى .

وأمامى الآن كتاب أحمد كمال ، المؤلف منذ نحو ثمانين عاماً . وكتاب جاستون ماسبيرو من أواخر القرن الماضى ، وكتاب أحمد فخرى الصادر عام ١٩٥٦ ، ثم الطبعة الأخيرة من كتاب دريوتون وڤانديه ، المنشورة سنة ١٩٥٢ ، وتحتوى على تصويبات ومناقشات تحاول وضع الأمور فى نصابها ، حتى تاريخ تأليف الكتاب ، أو إعادة طبعه .

لا أتصور أن أدعى بأن هذه الأعوام لم تضف شيئاً ، بل أضافت الكثير مما يشهد للأثريين والمؤرخين من كل الشعوب بالمثابرة ، والكدح العظيم . ولكن الصفة المميزة للتاريخ المصرى القديم ، سواء طالعته فى كتابى ماسبرو وأحمد كمال أو فى طبعات كتاب برستيد ، أو فى أحدث الكتب ، هى إشعارك بأنك تطالع مجلداً قديماً أكلت القرضة صفحاته ، واخترقت الكثير من كلماته ، بالإضافة إلى ما تشعث وتفرك من أوراقه ، فضاعت فيها فصول بأكملها .

ثم أين الأدب المصرى فى أربعة آلاف عام ؟ أهذا هو كله ، بعصوره الثلاثة ، يجمعه كتاب متوسط الحجم وضعه أدولف إرمان ؟ حقاً إن الأدب بكيفه لا بكمه ، ولكن ما بقى لنا من الأدب الفرعونى لا يشتمل على صفحات تراع من جمالها كما يروعك هوميروس ، أو قصائد الرجفيدا . إنما هو أدب فيه فن ، وشعر صادق الرنين ، مصرى إلى نخاعه ، كما أحس به وأنا أطالعه فى ترجمات باهتة ، دون أن أستطيع تفسير هذه المصرية القح لشخص أجنبى .

وما هى تلك الآثار الباقية بالنسبة لما ضاع ودال واختفى ؟ أربعمائة أوخمسمائة قبر اكتشفت فى وادى طيبة وسفوح تلالها ، هى كل رصيد ألفى عام على الأقل من تاريخ الأسرات ؟

بل ما هى تلك المعابد المتهدمة ، والأصنام المشوهة ، التى أخرجها العلماء من وسط القمامة والرمال والتراب ، والعشش . وما هى تلك الأهرامات والمصاطب ، والقبور المحفورة فى بطن تلال بنى حسن والبرشة وأسيوط ، وما عددها بالنسبة لما كان موجوداً فى أخريات التاريخ القديم ؟ هل يمكن أن نتصور مصر القديمة كاملة بمبانيها وأهلها ، وحكوماتها المحلية والمركزية ، ونظمها القضائية والإدارية ، وإكليروسها وجيشها وبوليسها ومهندسيها وأطبائها ؟

ومما أضحك له كثيراً سعة خيال زوار الكرنك ، أعظم الآثار القديمة فى العالم أجمع دون شك . ولست أنوى الانتقاص مما يبعثه فى النفس من أثر عميق جداً ، سلحق ، يكاد يصرع كل حساس بالفن ، مدرك لمعنى التاريخ . ولكن أين هو معبد الكرنك ؟ وأين الصروح العشرة التى يحدثونك عنها ، ويثبتون موضعها فى رسوماتهم القطاعية ؟ إننى لم أعرف للمعبد المصرى رأساً من ذنب ، إلا قليلا بعد زيارة معبد الأقصر ، وكثيراً جداً بعد رؤية معبد سيتى بأبيدوس ، أمثولة لجمال

العمارة بمعناه الكامل ؛ وعندما تشاهد معابد دندرة ، وإسنا ، وإدفو ، ترى أبنية أقيمت فى عهود متأخرة ، تحمل فى كيانها جرثومة التدهور الفنى ، ولكنها احتفظت على الأقل بوضعها وشكلها ، فلا تطالب مخيلتك بأكثر من تصور الألوان ، وإضافة بعض السجف هنا وهناك ، ورفع الأعلام ، واستحضار حياة ذلك العالم القديم الذى احتفظ بالكثير من تقاليده ، وطقوسه ، ومثله الفنية والفكرية ، حتى انهار تحت معاول الهدم ، وسفت عليه رمال الحدثان ، وعوادى الزمان .

يجب أن ندرك ذلك وغيره لنفهم صعوبة الإحاطة بالتاريخ المصرى ، وربما استحالتها ؛ ولا أظن أننا واصلون إلى كتابة هذا التاريخ القديم بطريقة متصلة متناسقة . ومن أحسن الكتب حقاً ، فى هذا الصدد ، كتاب جيمس هنرى برستيد ، لأن الرجل ، مع استناده الطيب إلى النصوص التى نشرها فى أربعة مجلدات كبيرة ، وإلى غيرها ، لا يفتأ يحدثك حديث الحكاية ، عن ذلك التاريخ ، ويسحرك بأسلوب عفا الآن أمره ، هو أسلوب أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ذلك الأسلوب الأزهر الأنيق . ولكى تعرف ما يضطر إليه ذلك المؤرخ العلامة من التخيل والفروض فى كتابه ، أضرب لك مثلا اخترته عفواً ، مما كنت أطالعه ليلة أمس ، فى أول الفصل الثامن ، عن « تدهور الشمال ، وارتفاع نجم طيبة » :

« وتحول الكفاح الداخلى ، الذى أطاح بالدولة القديمة ، إلى نوبة من الصرع ، كانت فيها يد الدمار هى العليا . أما متى ، وعلى أيدى من نزل ذلك الخراب ، فليس فى مقدورنا حتى الآن أن نعرفه . بيد أن المدافن الفخمة ، التى أنشأها أعظم ملوك الدولة القديمة ، خرت تحت معاول الهدم ، حتى لم يبق للكثير منها أثر يدل عليها . والمعابد لم تنهب فحسب ، بل إن ذخائرها الفنية ، كتماثيل الملوك من الصوان ، وحجر الديوريت ، كانت تدك دكا ، وتتطاير شظاياها شذر مذر ، وتلقى فى بئر ببوابة طريق الأهرام . . . »

أو

« وكان النصر حليف أمينمحعت فى تلك المشاحنات ، ولكنه واجه موقفاً ممعناً فى الصعوبة . ففى كل مكان وقف النبلاء المحليون ، حكام الكور الذين شاهدنا ارتقاءهم فى الدولة القديمة ، موقف أمراء مستقلين بإقطاعاتهم ، وكأنهم ملوكها .

وكانوا يتأملون قائمة أجدادهم القدامى ، وقد انتهوا إلى جيل آبائهم ، أولئك الذين قضى سلطانهم على الدولة القديمة . فيعملون على ترميم مدافن مؤسسى أسراتهم » .

* * *

وفى أول الفصل التاسع : « وكان طبيعياً أن يسكن ملوك الأسرة الحادية عشرة فى طيبة حيث عاش مؤسسو الأسرة أيام الحرب الطويلة للتغلب على أهل الشمال . ولكن أمينمحعت لم يكن فى إمكانه السير على هذا التقليد . ويسهل تصور الأسباب التى حدت به إلى تقدير ضرورة انتقاله شمالا حتى يحتفظ بمقامه بين حكام الشمال ، ممن لم ينفكوا عن الميل إلى البيت المالك فى هرقليوبوليس . هذا إلى أن جميع ملوك مصر — فيما عدا الأسرة الحادية عشرة ، التى أزاحها أمينمحعت — منذ انتهاء دولة طينة [طينيس] ، أى منذ ألف عام استقروا هناك . فاختار موضعاً قريباً من النهر ، لبضع أميال إلى الجنوب من منف . وهو موضع لم نوفق بعد إلى تحديده ، والغالب أنه كان قريباً من الموقع المعروف الآن باسم لشت ، حيث اكتشفت أنقاض هرم يحمل اسم أمينمحعت . . . وكانت الأمة مؤلفة من مجموعة دويلات ، أو إمارات صغيرة يدين رؤساؤها بالإخلاص للفرعون ، ولكنهم لا يعتبرون موظفين عنده ، أو خداماً له . كان بعضهم من « اللوردات » الكبار : أى حكام الكور ، والبعض الآخر كانوا مجرد « كونتات » يحكمون على أبعادية ، يتوسطها مركز العزبة الحصين . كانت دولة إقطاعية ، لا تختلف كثيراً عما عرفته أوربا فى عصورها الوسطى ، تلك هى الدولة التى ساس أمينمحعت أمورها . . . »

* * *

ستجد الكثير من هذا فى كتاب برستيد ، وغيره ، وسأنقل إليك فى فصل تال صفحة طويلة من كتاب « موريه » عن « النيل والحضارة المصرية » ، تعرف منها وسيلة مؤرخى مصر القديمة فى إنشاء تاريخ يقرأ . فالمؤرخ إما أن يلزم حدود النصوص ، فلا يخرج عن مجرد آلة تسجل وتترجم ، وإما أن يعمل بعقله وقريحته وأسلوبه ، فيستنتج ويعلل ويحلل . ولو لم يفعل ذلك لظل تاريخ مصر « أرشيفاً » ميتاً . وأصدق ما طالعت فى هذا الصدد قول ولسون فى مقدمة كتابه عن الحضارة المصرية الذى نشره فى طبعته الأولى تحت عنوان « عبء مصر » ، قال :

« والكتاب التاريخى بمعناه يحاول الاحتفاظ بأكبر قسط من الطريقة العلمية ،

والتزام الموضوعية ، ويكون الكتاب مرجعاً للمشاهدات التى سجلت وروجعت ، فى أحقاب التاريخ المختلفة . وهذه المشاهدات والملاحظات يجب أن تعرض بحيث يمكن التحقق منها ، وتحليلها واختبارها بواسطة الآخرين . أما تفسير المشاهدات والوقائع ، أى محاولات المؤرخ أن يضفى عليها رواء التسلسل ، ويجعل لها قيمة ، فيجب أن يحدد ويوضح ، حتى لا يأخذ القارئ به إذا أراد أن يستنتج بنفسه من واقع الحقائق المعروضة . والطريقة المثالية لعرض التاريخ المصرى هى فى تقديم مكتبة تحتوى على الكتب التى تعالج مصر القديمة ، وإلى جانبها المصادر ، والمجلدات والدراسات المختصة ، التى تؤدى إلى تاريخ الحضارة . أى أن تعرض للقارئ : مجلدات تشتمل على ترجمات لجميع أنواع النصوص والمتون المصرية ، يضاف إليها الجديد أولا بأول ، وأن ترفق هذه الترجمات بتعليق كاف يقنع القارئ بقيمتها كترجمة ؛ ومجلدات تصف وتحلل البقايا المادية للحضارة المصرية ، ومن ضمنها الأعمال الفنية ، مع صور واضحة لها ، ومع تحديد تواريخها ، حتى تمكن للقارئ من الحكم عليها كمستندات ؛ ومجلدات تتناول الدراسات الخاصة بالديانة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنظام الاجتماعى ، والصناعات ، والعلوم ، والفن والأدب إلخ ، والتطورات التى مرت بها كل هذه . ثم تلخيص كل تلك المواد فى تأريخ للحضارة لا يخرج عن حدود الاعتدال ، يتاح فيه للمواد الأصيلة أن تتحدث بقدر الإمكان عن نفسها . وهذا هو الأساس الذى يمكن للمؤرخ من أن يتقدم بتعليلاته التى تستهدف ، أو تزعم ، تفسير قصة التاريخ ، وإبراز قيمتها » .

ويعترف ويلسون ، وهو يقدم لكتاب من أحسن وأعمق ما كتب دراسة للحضارة المصرية ، بأنه وضع فيه « العربة قبل الحصان . فالدراسة الحالية فى أغلبها هى عربة التعليلات ، والحكم الشخصى للمؤلف ، التى كان يجب أن تسبقها خيول من المصادر الأصيلة ، وتاريخ فى حدود الاعتدال » .

ثم يقول بأنه وضع العربة قبل الحصان لأن « أغلب خيولنا . . . لا وجود لها أو أنها بلغت من الكبر عتياً » ، مشيراً بهذا إلى نقص كبير فى النصوص ، وحاجة ملحة إلى إعادة النظر فى ترجمة ما سبق أن ترجم منها .

ويتساءل ويلسون عما هى « الحقيقة » فى التاريخ المصرى القديم ، وعما هو

السجل التاريخى ؟ يعنى بذلك أن من الخطأ الاعتماد على ما كان المصريون يقولونه عن أنفسهم ، تبريراً لأعمالهم ، عندما يقفون أمام الديان ، أو ليرسموا لأنفسهم صورة تاريخية معينة . وقد ثبت مثلا أن حكاية رمسيس الثانى التى تمدح بها الشعراء . ورسمها الرسامون . وسجلها المؤرخون : حكاية وقوفه بعربة الحرب وحده . يصد جحافل الحيتا . ليس لها ظل من الحقيقة ! ولم نكن بحاجة إلى إثبات علمى للزيف فيها . فقد كنت . وأنا غلام يعلمونه التاريخ . لا أرى فيها إلا ما يشبه وصف بشر بن عوانة للقائه مع الأسد . فى قصيدته المشهورة ، وإلا ما يذكرنى بأشعار عنترة العبسى يصور نفسه لحبيبته وهو فى نقيع المعامع : والسيوف تلمع « كبارق ثغرها المتبسم » . لم أكن أصدق البتة أن بشر بن عوانة كان « هزبراً أغلباً لاقى هزبرا » . ولم آخذ العبسى مأخذ الجد لحظة واحدة . وما كان أقسانى تشفياً فى المتنبى عندما عرفت أنه كان أى شىء إلا ذلك الفارس المقدام . والأسد الضرغام ، الذى صور به نفسه فى شعره الجزل الرائع !

إننى أحيل القارئ على مقدمة الدكتور ويلسون . فهى من أصدق وأعمق ما طالعت تعليقاً على كتب تاريخ مصر القديمة . والرجل معترف بأن كتابه واقع فى المحظور الذى يتحدث عنه .

لقد حاولت مثلا أن أفهم ولو قليلا من الديانة المصرية خلال تفسيرات وتخريجات ، ولف ودوران ، فأحسست إحساساً مؤلماً بأن أصحاب هذه التعليلات غير واثقين مما يكتبون . وأن حقائق الديانة ليست واضحة لهم . وإلا لما صعب عليهم أن يوضحوها لنا . ولست أظن بحال أن تلك الديانة كانت على شىء من التعقيد الذى نعرفه فى الديانة الهندوكية — وهى وثنية متعددة الأرباب كالديانة المصرية — ولكنهم أهل التخصص ، مؤرخو مصر القديمة ، هم الذين صوروا الديانة المصرية على شكل ذنب الضب . أو أعقد .

وليس من عملى فى هذا المجال . ولا فى غيره ، أن أوضح معالم التاريخ المصرى ، أو أصف الحضارة المصرية ، إنما هى انفعالات يجرى بها القلم هنا وهناك ، ورحلات فكرية فى رحاب ذلك التاريخ .

لا أعرف للتاريخ المصرى غير حقيقتين لا مرد لهما : الحقيقة الأولى هى النصوص المنقوشة على الجدران ، والمكتوبة فى البرديات ، أو فوق الشقفات والشظايا ،

مترجمة ترجمة أقرب إلى الصحة. وفى التاريخ المصرى نصوص ذات أهمية كبرى ، كنصوص برديات هاريس عن عصر رمسيس الثالث . وكاتون أهرام أوناس وأسرته ، ونصوص كتاب الموتى ، وبرديات إدوين سميث الطبية ، وكل ما يدخل فى عداد الأدب من آثار. ولكن هذه النصوص وأمثالها ، إن ألقت ضوءاً على بعض حقائق الحضارة المصرية والتاريخ ، فهى لا تمثل إلا قسطاً يسيراً من الحياة المصرية ، وهو القسط الممتاز الذى يخرج فى الغالب عن حدود الاعتياد .

فهل صورة مصر الموتى هى صورة مصر الأحياء ؟ وهل كانت فكرة الموت مستحوذة على المصرى ذلك الاستحواذ الذى يبدو فيما بقى لنا من آثاره ؟ هل من المحتوم أن أصدق كلام ديودورس وهو يقول : « أولئك الناس كانوا ينظرون إلى الحياة كأنها فترة قصيرة لا أهمية لها ، بينما هم يعنون عناية كبرى بحسن الأحدوثة التى تتخلف عن فضائل الإنسان بعد موته . لذلك هم يعتبرون بيوت الأحياء نزلاً يقضى فيها المرء بعض الوقت ، ثم يمضى ليقيم إقامة دائمة فيما كانوا يسمونه « بيوت الأزل » . فلم يعن الملوك ببناء قصورهم ، إنما بذلوا كل مرتخص وغال لإعداد مدافنهم » .

وماذا نقول نحن المسلمين غير ذلك ؟ وهل يقول إخواننا المسيحيون شيئاً آخر ؟ ألسنا نحيا فى هذه الدنيا بكل معانى الحياة وكأننا نعيش أبداً ؟ وما أقل ما نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً . ولكن إذا جاء بعدنا من يطالع أمثال هذه الأحاديث القدسية ، وروائع ما يؤثر عنا من كلم ، وما تأمر به الديانات وما تنهى عنه . هل يستطيع — إذا لم يكن عرف حقيقتنا — أن يتصورنا إلا قوماً . . . نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟ !

يصف العلامة أميلينو الجنس المصرى بأنه من أعظم الأجناس بشراً وحباً للحياة ، ويدعى بأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم — أى حتى أوائل القرن الحالى — أطفال كبار ، يحبون البحبحة ، ويقبلون على المسرات . أهل اجتماع وألفة ، ينزعون إلى كل مباهج الحياة الدنيا ومتاعها . وما علينا إلا أن نلقى نظرة — ولو عابرة — على الرسومات والتماثيل التى تزين المقابر منذ أقدم العصور لنتأكد من صدق ما يقول . والمصرى — على حد قول أميلينو — لا يكتفى بحقائق

الحياة وحدها ، مهما كانت مفرحة مبهجة ، فهو ما فتئ هائماً فى خياله بحثا عن الخوارق، وجرياً وراء المغالاة . . . وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم القديمة وبين دينهم الجديد ، ولم ينبذوا أساطيرهم العتيقة ، بل كسوها لباسا مسيحياً ، فتحولت آلهتهم القديمة وجنتهم ، إلى ملائكة وقديسين ، وإلى أبالسة وشياطين .

* * *

لقد حسب كابار عدد مقابر طيبة ، فكانت فى حدود الأربعمائة ؛ وقدرها بالنسبة للقرون التى دفن أصحابها فى خلالها ، وعلى أساس خمسة وعشرين عاماً للجيل الواحد فى الزمن القديم ، فإذا لكل جيل عشرة قبور لا غير . أى أن حسبته أوصلته إلى أربعين ميتاً فى كل مائة عام ! ثم قال بأن محاولة استخراج الطقوس الجنائزية من هذه القبور تشبه أن يحاول الناس . بعد بضعة آلاف السنين من اليوم ، التوصل إلى طقوس الفرنسيين والإنجليز فى الجنازات . . . من مدافن البانتيون ودير وستمنستر .

ما أصدق قول ماسبرو لسائليه، عما إذا كان تاريخ مصر القديمة تم ظهوره للعيان : « إننا لم نفعل حتى الآن شيئاً أكثر من خدش أحدثناه فى ذلك التاريخ ! » ماسبرو الذى فارقنا منذ أربعين عاماً وبعض الأعوام ، وكان من أعمق رجال عصره، وأوسعهم علماً بتاريخ مصر والشرق القديم !

ثم هل فهمنا النصوص المصرية ، التى تفرش على أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، على وجهها الصحيح ؟ أما نلاحظ تطور اللغة على مر القرون ؟ ونحن نعرف ما يصيب لغاتنا الحية من تحول فى مئات السنين ، حتى مع بقاء ألفاظها دون تغيير : تأمل على سبيل المثال كلمة « نكتة » عند الجبرتى منذ أقل من قرن ونصف ومعناها « واقعة » أو « كائنة » أو « اختراع » ؛ وقارن ذلك بمعناها المتداول اليوم : تحولت من « واقعة مهولة » إلى « قافية » . كما انتقلت كلمة « قافية » ، هى أيضا، من مكانها فى النظم ، لتعنى شيئاً آخر ، مع احتفاظها بمعناها الأصلى . وكلمة « كائنة » . وهى أيضاً « الواقعة المهولة » ، كانت إلى عهد قريب تستعمل فيما لا يخرج عن معناها الأصلى ، فى قولك : « دا كاينة » أى « مصيبة » أو

« داهية » . وتأمل كلمة « داهية » فى معناها المزدوج من الدهاء ، ومن دهته داهية !

فلنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لنتعجب من كلمة مصرية ما زال كل معناها عند جهابذة اللسان البربانى هو : « فعل يعنى حركة أو عملا عنيفاً » ! ؟ فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة من الكلمات ، إذا به يضيف فى ذيل شرحه ؟ « أو ما أشبه ذلك ! » ، كأن تقول : عجلة ، دائرة ، خاتم ، طوق ، حجر رحى . . . أو ما أشبه » ! !

وتذكرنى « ما أشبه » هذه بخاتمة الشروح والمباحث والهوامش فى كتب العرب ، وهى تختم بقولهم « والله أعلم » .

كلا ، إن مصر لم تكشف بعد عن كل مخبوءاتها ، وما برحت نصوص كثيرة تنتظر أن تترجم أو أن تعاد ترجمتها . ومتاحف العالم ما فتئت ملأى بالبرديات والشقفات والشظايا والألواح والشواهد من الحجر ، لم تفحص بعد ولم تترجم . هل تصدق أن البرديات العظيمة المعروفة باسم برديات إدوين سميث ، منذ سنة ١٨٦٢ ، وهى البرديات التى كشفت عن عبقرية – وأقول عبقرية ! – مصر فى الطب ، لم يترجم نصها وينشر بترجمته إلا عام ١٩٣٠ ، على يد جيمس هنرى برستيد ، ثم ألقى عليه محمد كامل حسين ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، ضوءاً باهراً من علمه وألمعيته الجراحية ؟

وكيف نأمل أن نتوصل إلى صورة أقرب إلى الكمال للتاريخ المصرى ، والعواصم المصرية الكبرى فى الدلتا – فيما عدا تانيس ! – لا عين ولا أثر . أين بوطو ، وبوباسطيس ، وعاصمة رمسيس الثانى فى شرق الدلتا ، وسبينيتوس (سمنود) ، وزويس (سخا) ، بل أين منف ، وايون (عين شمس) ؟

والحقيقة الثانية فى التاريخ المصرى ، والأخيرة ، وهذه لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هى الفن : فن العمارة ، والرسم ، والتصوير ، والحفر بالبارز – المنخفض [بارلف] ، والنحت المستدير . الفن هو العنصر الحى الخالد فى تاريخ مصر ، يعيش بين ظهرانينا ، يتحدث إلينا بلغة العقل والشعور . قد نفهم لغته وقد لا نفهمها . ولكننا فى هذا كمن يفهم لغة الموسيقى أولا يفهمها ، ويتفاوت

تقدير الناس للفنون وتختلف آراؤهم . ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الفن الماثل لعيوننا . حقيقة خرجت من تحت يد الفنان المصرى ، كأنه انتهى منها توًّا. ولست أعنى أن الصور احتفظت بألوانها وخطوطها كما تركها أصحابها ، إنما أشير هنا إلى صفة تختص بها الفنون التشكيلية عامة ، وهى أنك تشاهد العمل الفنى – إذا قدر له البقاء – بعد ساعة أو بعد ألف عام ، فكأنك تراه وقد انتهى منه الفنان على التو ، وانزوى عنك ليسمح لك بمشاهدته ، دون أن يسمع تعليقك عليه .

وضحت معالم طريقى ، وثبت لرشدى ، بعد ذلك الدوار الذى أصابنى ، وقد بلغت الذرى ، وارتقيت فى رحلتى عبر التاريخ إلى القمم العليا . فلأتحدث قليلا عما حققته لنا النصوص من تاريخ عام ، قاعاً للصورة وإطاراً لها ، أقدم فيه الفن المصرى .

ثلاثة آلاف عام

سأحدثك عن تاريخ مصر القديمة فى صفحات قليلة ، وهى كل ما أحب أن أتذكره من تاريخ بلادى فى العهد القديم . وقد لا يكفيك هذا القليل ، وإنما الذى يجب أن نتفق على إدراكه والإحساس به . هو الحضارة المصرية ، وأهم ما بقى لنا منها ، وهو الفن .

وادى النيل الأدنى ، وقد درجت فيه حياة ما قبل الأسرات ، يحكمه نظام مركزى يقتضيه رخاء البلاد ، واشتراك سكان ضفتى النيل فى حراسة فيضانه ، والاستعداد لتحاريقه . ما إن يوحد مينا شطريه البحرى والقبلى ، حتى تنتهى العصبيات الإقليمية ، ومشاحنات أمراء الكور ، وكانت فى الغالب اشتباكات مصدرها أنانية الأمراء ، مما لم يكن يرضى عنه الشعب . وهو يحس فى قرارة إلهامه بأن حياته ، المرهونة بالشمس والهواء والأرض والنيل . لا تتحمل التفرق والتناحر . وعندى أن سلطان الملك على الجميع ، والأساطير التى تتحدث عن الأصل الإلهى للفرعون ، وعن عهود كان ملوك مصر هم الآلهة ، تؤدى معنى واحدا : ذلك أن الشعب هو الذى أله الملك ، ووطد سلطانه .

والخرافة التى أطلقها هيرودوتس ، وتصور المصريين عبيداً للفرعون ، قضى عليها المؤرخون المحدثون . فأهرام الملوك . ومصاطب العظماء . كما نعرفها ، وما تدل عليه من براعة فى التصميم ، ودقة فى التنفيذ ، وما تحتويه من فن رفيع ، لا يمكن تصور تحقيقها على شعب من الأذلاء . لأن جو الاستعباد الخانق يقضى على الملكات ، ويعرقل تفتح العبقريات . وإمحوتب العظيم ، الذى ألهه المصريون فى الدولة الحديثة — وهو من رجال الدولة القديمة — لم يكن ملكاً ولا أميراً ، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى ، ارتفع بنبوغه . وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ . وغير إمحوتب العظيم . أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة . ونحتوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع — حوتب والأميرة نفرت ، ورسموا إوز ميدوم . لا أتصور تيقظهم الفنى ، وحريتهم فى التعبير ، فى جو عبودية

وكبت . تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة تى وفتاح– حوتب وميريروكا ، وتجول فى حرم الهرم المدرج ، وقف بأعمدة البهو القديم ، تحس بحب الحياة ، حياة شعب مطمئن هانئ ، لا شعب يعيش كما صوره هيرودوتس فى زمان رأى الشعب ذليلا مستعبداً تحت أقسى حكم عاناه فى تاريخه القديم ، لم يعرف الشعب له شبيهاً إلا تحت الحكم العثمانى : وهو سيطرة الفرس .

هذه الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة ، هى قمة الحضارة المصرية الأصيلة الخالصة ، النابعة من روح الشعب المصرى ، دون ضغط أجنبى ، أو تأثر بالغرباء . ولا تحسبن الأهرامات غروراً ودعاية ، بل طالع فيها ما طالعه ذلك الرومانتيكى المرهف الحس شاتوبريان حين قال :

« لم يشيد المصرى الأهرام لشعوره بالفناء ، بل لإيمانه بالبقاء . هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم أو بعض يوم ، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية ، إنها أبواب الخلود ، أقيمت على حدود الأزل » .

لا تصدق من يتحدثون عن الصلف والغرور والدعاية فى الدولة القديمة ، فلم يعمل ملك أو أمير ، ولم يشيد مهندس ولم يرسم فنان ، ليعرضوا بضاعة ، ولكنهم استجابوا إلى نوازعهم النفسية نحو حياة باقية ، لا تقطعها لحظة الموت .

تحس أمام آثار الدولة القديمة برخاء البلاد ورغد عيشها ، وإقبالها على الحياة بنفس رضية . تأمل أبا الهول ذات صباح عند شروق الشمس ، وطالع على سيماه صورة صادقة للحياة المصرية فى الدولة القديمة : سماحة الوجه ، وابتسامة الجيوكوندا ، رأس إنسان بكل معانى الإنسانية ، على جسم حيوان رابض ، رمز للهدوء والاطمئنان ، لا تحفز فيه لعدوان ، ولا توقع لعدو طارئ . تلك هى مصر الدولة القديمة ، آمنة داخل حدودها الطبيعية . فليست مواقع حربية تلك التى تجرى فى شبه جزيرة سيناء ، إنها حملات بوليسية تأديبية ، لتمنع عبث العابثين هناك ، ولتؤمن الطريق إلى المناجم . وحينما نام الأمير تحوتمس ، من أمراء الأسرة الثامنة عشرة ، بين ذراعى أبى الهول رأى فى منامه ما تراه أنت فى صحوك إذا طالعت وجه هارماخيس ، يستقبل شمس الصباح : آتوم – رع – هاراختى .

ويفاجئك المؤرخون بقولهم إنهم لا يفهمون تماماً ما حدث بعد الأسرة السادسة .

ومن حقهم أن يحسبوا البلاد تفرقت شيعا وأحزاباً ؛ فكل هذا جائز ، والغالب أن يكون قد حدث كما يظنون . ولا تنس أنها مئات السنين ، لا عشراتها ، انقضت بين بناة الأهرام والأسرة الثانية عشرة . والملك پيپي الثانى ، آخر ملوك الدولة القديمة ، حكم نحو مائة عام حكماً صالحاً ؛ ولكن استطالة ملكه انتهت إلى نهاية محتومة ، من نزوع أمراء الكور إلى الاستقلال ، كما يحدث فى الأسرة الواحدة ، حينما يطول عمر كبيرها ، ويمتد عهد خدمه معه . ومتى انفرط عقد مصر ، انهار كيانها السياسى والاقتصادى والفنى ، ويمكنك أن تتوقع حدوث أى شىء للبلاد . فى أوقاتها المضطربة ، يكفى أن يتأخر الفيضان ويتراخى ، حتى تنزل بالناس المجاعة ، وتشوطهم فى إثرها الأوبئة . كل ذلك نعرفه عن يقين فى مصر العصور الوسطى ، والتاريخ لا شك يكرر نفسه فى المكان الواحد والظروف الواحدة ، بل هو يحاكى نفسه فى أمكنة متباعدة ، إذا كانت ظروفها متشابهة .

وإذا كانت القوة المركزية ستعود إلى الدلتا فى أكثر من حقبة من أحقاب التاريخ المصرى القديم ، فإنه يمكن القول من الآن بأن عهد منف العظمى قد انتهى ، وبدأ الصعيد يرفع رأسه ، أولا على أيدى أمراء مصر الوسطى ، وسيكونون سلماً لهيمنة أمراء الصعيد الأعلى فى الطيبائيدة . وسيبدأ فى الدولة الوسطى عصر التوسع والفتوح نحو الجنوب فى بلاد النوبة . ولكن هذه الدولة الوسطى ستكون عهد حضارة أقرب إلى عصر الدولة القديمة منه إلى الدولة الحديثة ، عهد تنظيم الرى والزراعة ، وإقامة المنشآت العظيمة ذات الأهداف العمرانية ؛ وستعود الملكية إلى سلطان ليس كالقديم فى إطلاقه ، ولكنه شبيه له فى إحكامه وبسطته وعدالته .

ثم يختفى تاريخ مصر فى غياهب عثمانية ، عندما ينزل بأرضها كالجراد شعب جائع بربرى ، جاء من الشرق ، من آسيا ، يظن آنا أنه فخذ من أفخاذ إسرائيل ، وآنا آخر أنه ينتمى إلى جنس هندو — أوربى ، وينتهى بعض المحدثين إلى أنهم كنعانيون . وسواء أكان هذا البلاء إسرائيلياً أو قحطانياً أو هندو — أوربياً ، فقد حل معه الخراب والدمار ، ونزلت مصر إلى حضيض لن نعرفه فى تاريخها الحديث إلا تحت حكم باشوات آل عثمان . إلا أن الصعيد المصرى يظل كما هو — وكما سيظل دائماً — مهد الخلاص ومأوى الأحرار . فليهيمن الهكسوس فى الدلتا ما شاء لهم

جوعهم وعريهم وتبربرهم ، وليقيموا معسكرهم الكبير فى أواريس فى شرقى الدلتا . أما أمراء الوجه القبلى ؛ فلم تخب حميتهم ، ولا بردت نخوتهم ، وما فتئوا يعملون حتى نظفوا البلاد من أولئك الهمج الدخلاء .

ويبدأ عهد الأسرة المجيدة . الثامنة عشرة فى حساب الأسرات ، عهد أحمس وتحوتمس وحتشبسوت وأمينوفيس وأخناتون . تلك هى الإمبراطورية المصرية التى رفع عمادها ابن من أبناء الصعيد ، يروق لبعض المؤرخين أن يشبهوه بنابليون . وللبعض الآخر أن يقرنوه بيوليوس قيصر : هو تحوتمس الثالث . فإذا كانت الدولة القديمة هى عهد الأمن والرخاء والاطمئنان . فقد كان الأمن خداعاً . ولم تعد الحدود المصرية أرصاداً سحرية تمنع الأعداء ، وأصبح لزاماً على ملوك الصعيد ، وهم يطاردون الهكسوس إلى ما وراء الحدود، أن يتعقبوهم شمالا حتى جبال طوروس، وأن يبسطوا سلطانهم جنوباً حتى فوق الشلال الرابع ، وغرباً إلى بلاد برقة . فالدولة الحديثة ، اضطرتها ظروف الغزو الهكسوسى ، وقيام القوى الخارجية . إلى أن تدخل فى مغامرات هائلة ، مغامرات فى الحرب والسلام على السواء . وفى العقائد والأدب والفن ، وستدفع مصر غالياً ثمن هذه المغامرات ، وهى أثاوة الشعوب التى تنزع إلى التوسع والسيطرة البعيدة . أيًا كانت أسباب هذا التوسع . لن تعود مصر ، بعد طرد الهكسوس ، إلى أمنها وطمأنينتها ؛ فقد عرفت قيمة الاعتماد على الحدود الطبيعية ، عندما تقوم وراء تلك الحدود دول تطمع فى خيراتها . وسيكون طريق الشرق هذا هو سبيل الغزو على مدى التاريخ المصرى حتى العصور الحديثة ؛ ولن يجىء الغزو من الغرب إلا أيام المعز لدين الله الفاطمى ، وإلا فى محاولات الأتراك والألمان الفاشلة ، فى الحربين العالميتين الأخيرتين .

حق لمصر أن تتمثل بالحكمة القائلة : إذا أردت السلام ، فعن طريق الحرب . وستحارب إبان الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . وستضطر إلى إنشاء جيوش مدربة ، تمارس فنون القتال الحديثة ؛ فلم يعد يكفى تجنيد المواطنين لشدة أو لعملية تأديب البدو ، يعودون بعدها إلى زراعاتهم وصناعاتهم . وإذا ما أنشئ جيش عامل محترف ، فهو يبدأ بالمصريين ، ثم يضم إلى صفوفه كل من تقع عليه اليد من أمم العالم القديم المحاربة ، من أمثال الليبيين والنوبيين والإثيوبيين واليونان .

وظاهرة من ظواهر الحرب فى كل الأزمان . أن يعتمد مثيروها على آلهتهم ، يسألونهم العون اعتماداً على عدالة قضاياهم فى تلك الحروب . وملوك الصعيد بررة بآلهتهم ، وبكبير هؤلاء الآلهة . آمون . ولن يعزو الملوك انتصاراتهم إلى أسلحتهم وأذرعتهم وحدها ، بل إلى مؤازرة آمون هذا . فهم يغدقون عليه الخيرات ، ويقدمون له الأسرى والغنائم . وبذلك طغى سلطان آمون وكهنته ، فى الدولة الحديثة ، على كل سلطان . ، وجاءت ثورة أخناتون . وإخفاقها بعد موته ، سنداً جديداً لآمون . وسبيلا لتضاعف سطوته وبطشه ، ومن ورائه كهنته . ولن يجدى مصر نفعاً فتوحات رمسيس ومغامراته . ما دام كهنة آمون من ناحية ، والأجناد الأجنبية من ناحية أخرى . يشعرون بسلطانهم . أى أن مصادر تضعضع الإمبراطورية الحديثة كانت داخلية وخارجية : داخلية بسبب هذا الصراع بين كهنة طيبة وبين الملكية ، وخارجية فى تلك الدول الأجنبية التى عرفت أن مصر يمكن أن تغزى كما غزاها وحكمها الهكسوس ، وتخضع للقوة كما خضعت لأجناد أورايس .

وإذا خشعت الشعوب المغلوبة بعض الوقت ، واستكانت للحكم الفرعونى ،فمآلها أن تنتقض على السيادة المصرية . وما عليها إلا أن تتربص بالدولة المستعمرة تتلمس تبلبل أحوالها . وضعف حكامها . لتثور عليهم ، وتنتزع منهم استقلالها .

سيحكم مصر كهنة آمون ، وستحكمها أسر ليبية وإثيوبية ، ولن يرتقى هؤلاء وأولئك عرش مصر كغزاة جاءوا من الغرب أو من الجنوب ، بل كرؤساء جند بالجيش المصرى ، أو كحكام محليين من قبل فرعون . كل هذه الأسماء . من أمثال شيشونق وطهارقة . أسماء ليبيين وإثيوبيين ، اقتحموا مرتقى العرش بسواعدهم من بين قواد الإمبراطورية المصرية ، كما سيفعل المماليك فيما يجىء من الزمان .

وقد ترنو مصر إلى المجد فى العهد الصاوى ، فتتخذ مثلها فى الفن والإدارة من الدولة القديمة ، وستتوهج جذوة الحضارة زماناً غير طويل . ولن يصون استقلال مصر إلا تخاذل الدول الحديثة حولها . أما حينما تقوم من بينها دول قوية ، كالأشوريين والفرس . فما أسرع أن تهاجم مصر وتحتلها . وكان الفرس ، بعد الهكسوس ، وقبل الأتراك العثمانيين ، من أسوأ من عرفتهم مصر ظلمة مفسدين . وسيجىء الإسكندر ليخلص مصر من حكم الفرس ، وتنتهى بذلك سلسلة الأسرات المصرية الثلاثين .

والأسرة الفارسية التى يعدها بعض المؤرخين القدماء الأسرة الأولى بعد الثلاثين ، وتدخل مصر فى حومة الحضارة الهلينية .

* * *

أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرى حساب سنوات الاستقلال المصرى ، بالنسبة لسنوات الاستعباد . وفى هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد استقلالها وإن قامت على حكمها أسرة أجنبية ؛ كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . إنما مصر تفقد استقلالها عندما تنزل إلى مرتبة الولاية والإيالة والإقليم . ويحكمها ملوك أو إمبراطرة أو خلفاء أو سلاطين ، يعيشون فى عواصم خارج مصر . ومع أن الهكسوس حكموا فى أواريس قرب صا الحجر . إلا أننى سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال . كما أسقط حكم الفرس .

فلنبدأ من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد . حسب التوقيت القصير . حين يتوحد الوجهان البحرى والقبلى ، ويلبس أول ملوك الأسرة الأولى التاج الأحمر والتاج الأبيض . مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج « بشنت » . وعندما ينتهى حكم البطالسة . وتضم مصر إلى أملاك أغسطس قيصر الخاصة . عام ٣٠ قبل الميلاد . يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام . كانت فيها دولة مستقلة. دون نظر إلى نوع الأسرات الحاكمة .

ومنذ الحكم الرومانى حتى بدء الدولة الطولونية . مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام كانت فيه ولاية لروما . ثم لبيزنطة . فالعرب بالمدينة ودمشق وبغداد .

ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثمانى . عاشت مصر دولة مستقلة نحو ٦٠٠ سنة .

وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد على استقلالا عن الدولة العثمانية . أو تبعية لها — ولقد حرصت على أن أدقق فى سنوات الاستقلال. حتى أصل إلى نهايتها الصغرى. فى سلسلة الاحتمالات . فلا يتطرق شك إلى ما أنا بسبيله . ولهذا واعيت أن مصر إيالة تركية . تابعة اسميًا لتركيا. حتى زالت عنها تلك السيادة العثمانية عام ١٩١٤ . بإعلان الحماية البريطانية — فإنك واصل معى إلى أن مصر . فى تاريخها الذى يقدر

بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة ، منها حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسر مصرية ، ونحو ألف سنة حكمتها أسر أجنبية .

أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رءوس الشباب ؟ أمة ألفية ، أطول الأمم تاريخاً . تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تتنقل بين الحضارات : من حضارة مصرية صميمة ، إلى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية إسلامية .

وذلك بدلا من الادعاء — الذى مجته أسماعنا منذ الحداثة — بأن مصر فقدت استقلالها نهائياً فى القرن الرابع قبل الميلاد . عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيبوس الملك . وما زلت أذكر ، حتى هذه اللحظة . الألم الذى كان يحز فى قلبى ، وأنا غلام بالمدرسة الابتدائية . أردد أسماء أمازيس وبساماتيك ونكتانيبوس : فقد انطبعت تلك الأسماء فى نفسى انطباعاً عجيباً ، لأن أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة : أولهم انهزم أمام جيش قمبيز . والثالث ختم عهد الأسرة الثلاثين ، وهرب إلى إثيوبيا أمام الزحف الفارسى الأخير .

وعندما انتقلت إلى المدارس الثانوية . كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ! وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سمرتهم ولمع شعرهم ، سادرين فى الزعم والتفاخر بأنهم من عائلات تركية أقول هذا ليعلم شباب اليوم أن جيلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلا !

الصفحات الأخيرة

فكرة هذا الكتاب هى أن الحضارة المصرية ، أعنى مجموع الحضارات التى تداولت مصر فى مدى خمسة آلاف عام ، تلقت ضربتها القاضية فى الغزو العثمانى ، وأن النهضة المصرية يجب أن تقوم روحياً على استيحاء التاريخ المصرى كله ، دون تفضيل عهد على عهد ؛ فكما أن أهل الغرب يخطئون إذ يختصون حضارة الفراعنة بتمجيدهم ، ويعتبرون غيرها دخيلا على مصر . فإن فريقا من مواطنينا لا يعطف عطفاً خاصا على حضارة مصر القديمة .

ولعل للمتخصصين بالتاريخ المصرى القديم العذر فى حرصهم على الحقبة الكبرى ذات المقام الرفيع فى التاريخ العام ، لقدمها ، وطولها ، وأثرها المباشر وغير المباشر فى حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ولأنها أصيلة نبعت من صميم التربة المصرية ، وعلى أيدى أبناء هذه التربة وبناتها وحدهم . ثم أخذت الاتصالات الخارجية فى الاتساع والازدياد بعد غزو الهكسوس ، وصحوة مصر فجأة لتدرك أنها ليست كنانة آتوم وفتاح وآمون ، تحميها الصحارى والبحار والجنادل ، وأن عليها ، كى تعيش فى عصرها الحديث ، أن تدفع غائلة هؤلاء الغزاة الأسيويين الذين أذاقوها علقم الاستعباد مائة وخمسين عاماً ، وأن توسع رقعتها بالفتوحات إلى ما وراء حدودها الطبيعية .

وبرغم هذه الصلات الأجنبية ، وتبادل السلع والخبرات ، فإن الحضارة المصرية ظلت محتفظة بخصائصها حتى آخر عهد الأسرات ، بل وبعد غزو الإسكندر ، وقيام البطالسة ، وبعد أن دخلت مصر فى حوزة الرومان . ولم تنته هذه الحضارة إلا بنهاية العقائد القديمة ، وتحول السكان من الوثنية إلى ديانة الناصرى .

فكل ما يجىء عقب الحقبة الفرعونية ، لا يعتبره إخصائيو تلك الحقبة ، ولا غيرهم ، فناً ولا حضارة مصرية أصيلة . العهد اللاجيدى كان إغريقياً ؛ والعصر القبطى تأثر مكرهاً بما يجرى فى بيزنطة وأنطاكية وسورية ، والعصر الإسلامى انقاد للحضارة الإسلامية، فكان طولونياً وإخشيدياً وفاطمياً وأيوبياً ومملوكياً وعثمانياً .

لذلك أردت أن أثبت هنا أقوال بعض مؤرخى مصر القديمة فى نهايات كتبهم .

وأبدأ بجيمس هنرى برستيد ، لأن للرجل فضلا كبيراً علىّ ، فقد كان أول من أشعرنى أننى حقًّا من أحفاد ذلك الشعب العريق ، وصحح الأفكار الخاطئة الطائشة التى خرجت بها من مدارس وزارة المعارف المصرية ، يسوقها المستشار البريطانى دنلوب . كانت محاضرة ألقاها برستيد فى مكان بحى المنيرة ، أظنه كلية من كليات الجامعة حالا ، وألقاها فى وقت هز مشاعر العالم نحو مصر الكشف عن مقبرة توت عنخ – آمون . وقد نسيت اليوم ما قاله الأستاذ الأمريكى الكبير ، ولا أذكر إلا طشاشاً شكل المحاضر ، وأظنه كان رجلا طويل القامة منتصبا ، يلبس نظارات تقربه كثيراً من هيئة القسس الأنجليكان . ولكنى أذكر ، كأنه بالأمس ، أننى خرجت من المحاضرة شخصاً جديداً ؛ ويظهر أن الرجل – الذى عاش « مجاوراً » للتاريخ المصرى القديم ، وقد وجد نفسه أمام مجموعة من شباب المصريين ، فى وقت كانت ثورة ١٩١٩ أعلنت للعالم أجمع أن قد صدقت نية مصر فى أن تنهض – لمح فى عيوننا بريق الأمل فى مستقبل هذه الأمة ، التى كانت عظيمة جدًّا ، ورأى فى لون بشرتنا ، وعلى سيمانا ، ما ذكره بصور المعابد والمصاطب وتماثيل القدماء ، فراح يبعث روح التاريخ المصرى فى نفوسنا ، ويوقظ فينا معنى المجد المؤثل ، الجاثم فيما بين صحراء الأهرام ووادى حلفا .

ولا أغلو إذا قلت إن كتابى اليوم – وأنا أؤلفه فيما بين السنوات ١٩٥٤ ١٩٥٩ – هو ثمرة محاضرة جيمس هنرى برستيد عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ .

يقول الأميريكى الكبير ، فى نهاية كتابه « تاريخ مصر » ، الذى نشرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٥ .

« وبسقوط بساماتيك الثالث ، دخلت مصر فى عالم جديد ، كانت قد قامت بعمل كبير فى سبيل تقدمه وتطوره ، ولم يعد لها فيه دور إيجابى ؛ لقد انتهى عملها الجليل . ولما كانت لا تستطيع أن تختفى من الميدان ، مثلما فعلت نينوى وبابل ، فقد واصلت حياتها المصطنعة بعض الوقت ، تحت حكم الفرس فالبطالسة ، وهى تتدهور إلى الوهدة ، حتى أمست أهراء غلال روما ، ومزاراً لأثرياء الرومان واليونان ، يفدون عليها ليتفرجوا على عجائبها ، كما يفعل السواح فى أيامنا .

« أما شعبها الذى لا يحب الحرب ، الشعب الذى يواصل إعدادها لتكون متنزهاً للعالم ، فلا يبدو عليه أنه يفيق من غفوته ، وقد صدقت فيه نبوءة حزقيال ، وهو القائل : " لن يقوم بعد ملك من أرض مصر " » .

* * *

وأنا أدعو الله أن تصدق نبوءة حزقيال هذا فى الحاضر والمستقبل ، كما صدقت فى الماضى ، فقد شبعت مصر خلفاء وسلاطين وملوكاً وأمراء ، وشربتهم حتى كيعانها . ونرجو أن تكون حرفة الملوك فى مصر آلت نهائياً إلى البوار ، وأن يواصل أبناء البلاد حكمها ، والتطور بها ، إلى أحدث ما تنادى به مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية .

وألتمس العذر لجيمس هنرى برستيد ؛ فقد ختم كتابه سنة ١٩٠٥ . ومصر تهوى إلى قرارة يأسها ، إذ تتخلى عنها فرنسا ، نصيرتها ضد بريطانيا فى ذلك الوقت . وتجرى اتفاقها الاستعمارى مع بريطانيا على اقتسام مناطق النفوذ فى أفريقيا ! فلن أنسى برستيد . الذى رأيت وسمعت ، فى أوائل العشرينات ، محباً لمصر ، معجباً بحضارتها القديمة ، والذى ترك لنا آثاره شاهدة على بعض ما صنعه لتنبيه أذهان العالم إلى روحانية تلك الحضارة . وأكاد أوقن أن الرجل مات قرير العين ، مطمئناً إلى مستقبل أحفاد بناة الأهرام والبرابى !

وأذكر له بالخير فقرة وردت فى الفصل الختامى لكتابه الذى نشر عام ١٩٣٣ . بعنوان « فجر الضمير » ؛ قال ، وهو فوق جبل الزيتون بفلسطين ، ينقل ناظريه بين وادى الأردن والبحر الميت ، وخلفهما جبال مؤاب ، ومدينة بيت المقدس :

« وكان منظراً طبيعياً ، يحقق عملياً وقائع الانتقال المعجب من عالم تعمل فيه قوى الطبيعة وحدها ، إلى عالم تشرق فيه القيم الإنسانية . فذلك حدث فعلا فوق أرض الشرق الأدنى القديم .

« وإذ كنا نجلس مطلين على قرية النبى إرميا ، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، واخترقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء ، إلى أرض وادى النيل ، منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية — تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى — فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكاً

لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس ، وذلك قبل أن يولد النبى إرميا بألفى عام ! »

* * *

أما الأب دريوتون والسيد ڤاندييه ، فيختمان كتابهما عن مصر ، فى السلسلة التاريخية المسماة « كليو » ، بقولهما :

« ويظهر أن مصر كانت قد استنفدت قدرتها على المقاومة . لأن قبولها عن رضى ، واستقبالها لسيدها الجديد ، الإسكندر ، فيه البرهان على تدهورها . ختام تاريخها لم يعد بالمستطاع أن يعالج وحده . لأن مصر انضوت . منذ ذلك التاريخ ، فى مجموعة العالم الشرقى الذى سيخضع شيئاً فشيئاً للمؤثرات الإفريقية . نعم إن الأفكار المصرية العتيقة ستعيش فترة تطول إلى مئات السنين . ولكن فى صيغ ممسوخة ، ينقل عنها الأغراب ويفسرونها . فيبدو على لسانهم كأن دور مصر لم ينته بعد ، والحقيقة أن ما بقى منها لن يكون إلا خيالا وظلالا تنشرها البلاد العريقة فوق صفحة العالم » .

* * *

ويختم جاستون چكييه كتابه : « تاريخ الحضارة المصرية » . متحدثاً عن ظهور الكتابة الديموطيقية . والاقتصار عليها دون الهيراطيقية ، إبان الحكم الفارسى ، فى تسجيل العقود . ونسخ المخطوطات المختلفة . أى فيما لا يدخل فى عداد الأثر القائم ، ويقول بأن هذا الانتقال من الهيراطيقية إلى الديموطيقية ، يمثل فى رأيه خاتمة مصر المستقلة :

« فحين ينزل بمصر ملوك أغراب . ليحتلوا نهائياً مكان الأسر الفرعونية فوق عرش مصر . نستطيع أن نقطع بنهاية الحضارة المصرية . ومع أنها سوف تعيش بضعة قرون أخرى . بل وستتقدم فى بعض النواحى . كالعمارة مثلا . أعمالا مصرية أصيلة . فإن حياتها لن تزدهر . بل سوف تتدهور سريعاً .

« فالحضارة التى أشرقت على العالم القديم آلاف السنين . ووهبته عن طيب خاطر كل ما فيها من خير . سوف تعمرها حضارات جديدة ، والدم الجديد الذى ينقل إليها . سوف يكون غزيراً إلى حد يوردها مورد قضائها . بدل أن يجدد شبابها .

ومنذ الآن ، لن تكون مصر أكثر من إيالة من إيالات العالم الهليني . وولاية من ولايات دنيا الرومان ، سواء من الناحية السياسية ، أو من وجهة نظر الحضارة » .

* * *

وإذا لم تكن الصفحات التالية خاتمة لكتاب جوتييه . فى مجموعة « مجمل تاريخ مصر » ، الذى نشر بالقاهرة فى ثلاثينات هذا القرن ، فإنها ، فى صدد كلامنا هذا ، ومعنى مختاراتنا ، تعتبر حكمه الأخير على نهاية الحضارة المصرية . قال فى مقدمة الفصل العاشر وهو خاتمة فصوله :

« بقى لنا أن نلقى نظرة خاطفة على مختلف أشكال الحضارة المصرية فى السبعة أو الثمانية قرون ، التى انقضت فيما بين سقوط دولة الرعامسة ، وظهور الإسكندر . وهى الحقبة التى نطلق عليها اسم « العصر المتأخر » .

« فإذا دققنا النظر فى الملكية . يفجأنا أن لم تعد سدة قومية . وإذا جانب بعض المؤرخين الصواب فى حكمهم على ملوك الأسرة التاسعة عشرة بأنهم لم يكونوا خلصاء الأرومة المصرية . بحسبان اختلاطهم ببعض العناصر السامية ، فإن مما لا شك فيه أن الدم الأجنبى اختلط بدم الملوك ، منذ تبوأت العرش أسرة الملوك — الكهنة . ولقد رأينا ، منذ الأسرة الأولى بعد العشرين ، أن الليبيين يتسربون إلى الحياة المصرية . وأن كبير كهنة آمون يحمل اسماً ليبيًّا ، وهو مصحرتا ، وهذا التسرب لم يتعد الفئة العسكرية . وعندما يتولى الملك زعيم من كبار زعماء « المشاواشة » ، وهو شيشونق ، فى بوباسطس ، تصبح الأسرة الثانية والعشرون ليبية لحماً ودماً . ثم يعقبهم الملوك الملقبون بالإثيوبيين ، وكانوا فى الحقيقة من أصل بوباسطى ، أى ليبى ، يحملون أسماء ليبية ، ولكنهم اقترنوا بأميرات إثيوبيات ، بحكم إقامتهم فى بلاد النوبة ، وكانت ملكات الأسرة الخامسة والعشرين نوبيات خاصاً ، وسوداوات فى بعض الأحيان . وكان ملوك الأسرات الصاوية — الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين — من أصل ليبى أيضاً ، وآية ذلك أسماؤهم ، من أمثال اسم بساماتيك . احتفظوا بأرومتهم الليبية خالصة . لأنهم لم يقترنوا بأميرات من النوبة . ويبدو أخيراً أن فراعنة منديس وسمنود ، وهم ملوك الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين ، لم ينحدروا من صلب مصرى غير مهجن .

« واستمر هذا الدم الأجنبي ، وهو ليبي فى أغلبه ، ينساب فى عروق أبناء البلاد ، وهو قبل أن يجرى فى أوعية الفراعنة ، كان قد جدد قوى الطبقة العسكرية المعروفة بالمشاواشة ، وهى الطبقة التى تحمل أكبر عبء فى الحكم بعد الملك . ولقد رأينا المرتزقة الليبيين يؤلفون ، على مدى أجيال عدة ، العنصر الأكثر نشاطاً وحيوية فى الجيش المصرى القديم ، الذى دب فيه الوهن . ولم يتقهقر أثرهم إلا رويداً أمام سيل المرتزقة من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى اختفى تماماً بعد الغزو الفارسى .

« والحق أن هذا التسرب لم ينفذ إلا قليلا جداً فى دم الشعب المصرى ، سواء فى ذلك صناع المدن أو الفلاحون . إنما الطبقات الحاكمة هى التى تلقت العصارة الأجنبية ، الليبية فى غالبها ، واليونانية والأناضولية والسامية فى بعضها ، فاستطاعت ، بدمها المتجدد ، أن تحفظ على مصر حياتها المستقلة لبضع مئات أخرى من الأعوام .

« والطبقات العليا هى التى كانت فى مسيس الحاجة إلى تجديد قواها . أما الطبقات الوسطى ، والدنيا بخاصة ، فلم يعتورها الانحلال الذى دب فى الأرستقراطية المصرية . وظلت تلك الطبقات العاملة محتفظة بدمها المصرى الخالص ، وبخاصة فى الريف ، لم تهجن أرومتها الناشطة ، ولم يتبدل عنصرها الموسوم بالاعتدال وذلك على الرغم من حالة الحرب المستمرة ، والثورات الداخلية ، التى كانت تعيش خلالها حياتها المتواضعة القميئة » .

* * *

ويختم ولسون كتابه عن « الحضارة المصرية » ، أو ما سماه فى الطبعة الأولى « عبء مصر » ، بهذه الكلمات :

« وإن انهيار أسلوب الحياة المصرية العميقة فى أيامها الأخيرة كان مأساة . ولكن من حق مصر علينا أن نقول بأن هذا الأسلوب عاش نحو ألفى عام ، وصمد كل ذلك الزمن ، لأن مصر حبتها الطبيعة مزايا العزلة ، مما حقق لها التطور الداخلى ، والإبقاء على وسائلها فى هذا التطور . فكان المصرى مستطيعاً أن ينهج نهجه فى الحياة فى ظل الطمأنينة الجغرافية والروحية ، وهو نهج له من المرونة ما يفسح المجال للتطور التاريخى ، وآية هذه المرونة كانت سلسلة من الموازنات والتوافقات ، سمحت

للقوى المتعارضة أن تعمل دون أن يفنى بعضها بعضاً . . . فمرونة الأسلوب المصرى ، والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام ، على أساس التوازن بين القوى المتطاحنة ، تظهرنا على عبقرية شعب عظيم .

« ولا يصح أن نزعم بأنهم كانوا أعظم الشعوب ، ما دامت سماحتهم قد حالت بينهم وبين بحث المشاكل والوصول إلى حلول لها تطبق تطبيقاً عملياً كاملا . فالمرونة ، التى حققت لهم الهناء كل تلك الأحقاب ، كانت رخاوة فى تكوينهم ، تقابلها حدة العبرانيين التى لا تلين ، أو الصفاء المتأصل فى قرارة النفس اليونانية . هذا إلى أن المصريين لم يستمسكوا بصفاتهم العالية . ففقدوا فى النهاية تسامحهم العملى الموفق ، وأمسوا صلاب العود فى تمسكهم بظواهر الأمور . ولكن حكمنا عليهم يجب أن يتناولهم فى أحسن أحوالهم ، وقد عاشوا أحقاباً طويلة من التاريخ البشرى وهم على خير حال ، يحققون حضارة رفيعة من النواحى المادية والفكرية والروحية .

« ولقد جاءت كلمات النبى إشعيا ، فى مأساة الأيام الأخيرة للتاريخ الفرعونى ، دليلا على أصالة الحكمة القديمة ، ورفعة الشأن ؛ قال إشعيا : « إن رؤساء تانيس أغبياء ، حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية » ؛ وذلك مقابل القول القديم : « أنا ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء » .

* * *

وختام كتاب موريه ، « النيل والحضارة المصرية » ، صورة من العقل الفرنسى ، وحرصه على التجميع فى وحدة فكرية ، مع براعة فى التلخيص . ولهذا نقدم فصله الختامى بأجمعه ، لأنه سيعيننا على فهم الحضارة المصرية القديمة ، يحللها رجل من خير من درسها وفهمها ، وعاش لها ودافع عنها :

« ماضى المصريين هو أطول الأحقاب التى يسجلها تاريخ البشرية . وإذا كان تاريخ ما بين النهرين يوازن فى قدمه التاريخ المصرى ، فإن حقبته السابقة على التاريخ ، ما زالت تستعصى على الباحث . إنما مصر وحدها هى التى تعرض لمن يدرسها تاريخا يمتد من العصر الحجرى القديم حتى العهد المسيحى . فإذا لم ندخل فى حسابنا سوى الحقبة التى تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة آلاف سنة من حضارة خلفت آثارها المدونة . ولكن من يستطيع حساب آلاف السنين التى

عاشها المصرى فى الانتقال من عصر الحجر المشظى ، حتى بلغ عصر التنظيم الاجتماعى والسياسى ، إبان حكم المملكة الطينيسية ؟

« فلنلخص ، فى إجمال ، الحقبة التى عالجها هذا المجلد ، والمجلد الذى سبقه ، مع بيان أوجه النقص فى معارفنا :

١ — عهد أول ، ينقلنا من أبعد الأصول حتى الآثار التاريخية الأولى ؛ وهنا يعد الحساب كله تقريبياً ، فنقول مثلا : الحقبة السابقة على الألف الخامسة ، حين كان الإنسان يستعمل أدوات من الظران . ولكننا نجهل كل شيء عن تقدمه فى العصر الحجرى الوسيط . لا ندرى كيف حقق أولئك الناس ما ظهر من جديدهم فى عصر ما قبل الأسرات : الحجر المصقول ، والفخار ، واستخدام المعادن (النحاس والذهب) ، وصناعة النسيج ، واستئلاف الحيوان والزراعة . إنما نعرف أن المصريين فى ذلك العهد كانوا مبدعين ، دون منازع ، فى فنون الحجر والمعادن ، وأنهم يعيشون فى مجتمع مؤلف من عشائر ، تقودها الطواطم والأرصاد السحرية .

٢ — وباستقرار العشائر ، يبدأ عهد ثان ، تظهر فيه الكور ، وآلهتها المحلية ؛ وزعماؤها وارثو الطواطم . ولكن أنى جاء فيما بعد المحاربون المؤسسون للمملكتين المركزتين فى الصعيد والوجه البحري ، عباد هوروس ، وآلهتهم العالميون ، وملوكهم ، وكتاباتهم المصورة ، وفنهم ذو الأسلوب الواضح ؟

تقول أساطير العهد التالى بأن هذا النظام نشأ فى الدلتا ، وأن آلهة الطبيعة ، هوروس وسيت وأوزيريس ، لقنوه للناس . إلا أن مناخ الدلتا — بعكس مناخ الصعيد ، حيث الآثار غير قليلة — محى بقايا ذلك العهد ؛ ومن ثمة لا نملك أثراً مباشراً من تلك المنطقة ، حيث نشأت الأفكار والمذاهب التى ازدهرت فى العصور التالية . وإن « متون الأهرام » هى التى مكنت لنا من محاولة رسم صورة عامة لتلك المذاهب ، وذلك عن طريق الاستدلال بها عما حققته الأزمان السالفة . وما زال أمامنا مجال واسع للبحث فى هذا الموضوع . وقد أعلن القارئ ، فى حينه ، بأن تلك الحقبة كانت حقبة الإعداد ، وأنها كانت طويلة، وذات أهمية عظيمة ، وفيها بدأ العمل بالتقويم [عام ٤٢٤١ قبل الميلاد]، وأنها تنتهى بتولى الملك مينا [حوالى عام ٣٣١٥] .

٣ – والآثار العديدة التي تخلفت عن الأسرة الطينيسية ، وما تلاها حتى نهاية الدولة القديمة (٣٣١٥ – ٢٣٦٠ ق . م .) ، تصور لنا طبيعة المجتمع المصرى وتقاليده ونظمه ؛ وتتوحد مصر تحت سلطان ملكية مركزة مطلقة مستبدة ، ذات حق إلهى ، وتصبح الأهمية الاجتماعية مقصورة على شخص الملك حياً وميتاً. فمصر ملك خاص للأسرة المالكة . وتنتهى دولة بناة الأدرام بنهاية الأسرة السادسة . وإلى عهد قريب ، كان المؤرخ يتخبط فى ظلام المجهول حيال انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٣٦٠ ، دون أن يجد لاختفائها تفسيراً . فقد عفت الآثار الملكية ، وتراجعت مصر إلى أسلوب حوشى فى الفن ، وعمت فيها الحروب الأهلية ، وحات بها الضيقة الاجتماعية ؛ ولكن كيف ، ولماذا ؟ لقد كشفت الحفائر الحديثة عن مراسيم أصدرها آخر ملوك منف ، جعلتنا نتابع تهجم الكهنة والموظفين والشعب على سلطة الملك ، يهدمون حصن الملكية شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهى إلى الخراب التام .

وحاولنا ، من واقع نصوص منشورة منذ أمد بعيد – لم يتضح معناها التاريخى حتى الآن – أن نعزو الأمر إلى ثورة شعبية تحت حكم الأسرات الهرقليوبوليتية ، فيما بين عام ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ، حدثت إبانها وقائع دموية وحوادث غريبة ، أوضحنا أثرها ، وهو حصول الشعب على حقوقه الدينية والسياسية ؛ وما زالت بعض نقاط تنتظر التفسير ، ولكن الثابت ، على ما يبدو ، هو أن استبداد الملوك قد زال بزوال دولة منف القديمة .

٤ – ويظهر مجتمع مصرى جديد ، بظهور الدولة الطيبية (٢١٦٠ – ١١٠٠)، وسوف تحتفظ هذه الدولة بكل سماتها الأساسية حتى زوال الاستقلال القومى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وذلك خلال تطورات وأحداث سياسية . ولا غرو أن تظهر لنا فجوات وفراغات فى دنيا الآثار ، خلال هذه الحقبة الطويلة التى دامت خمسة عشر قرناً . فجوة فيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة الطيبية ، إبان الاحتلال الهكسوسى ، وفجوة انهيار الإمبراطورية المصرية فى آسيا انهياراً سريعاً بعد مرتفتاح ، وفجوة انحلال الرعامسة ، وفجوة تشتت شئون الحكم وانفراط عقده ، إبان دولة بوباسطة ؛ وبعدها يجىء عهد الإحياء الإثيوبى والصاوى . كل تلك فترات دقيقة ، وحقبات غير معروفة تماماً ، نقر فيها بنقص معلوماتنا نقصاً بالغاً . ولكن الاضطرابات

التى وقعت فى مصر كانت من نتائج قارعات السياسة الخارجية وأحداثها ، أى أنها تناولت الأسرات الملكية ، لا المجتمع المصرى ، الذى ظل حياً برغم الغزوات ، يتابع حضارته المتناسقة ، ويتطور داخل إطار مبادئه الثابتة .

وتحولت فكرة السيطرة الملكية المطلقة إلى ناحية إنسانية ، بفعل إصلاحات ملوك مشرعين ، حكموا بعد الملوك المستبدين . كان سلطان الملك فى الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، نفذها الفراعنة فى دقة وصرامة ، ورضى بها المحكومون دون تردد . . . ولكن هذه العقيدة تتحول تحت حكم الأسرة الثانية عشرة إلى مبدأ ومذهب فى الحكم ، أى إلى تعاليم تحاول أن تكون إنسانية ، تقوم على حكم العقل . ويصبح دار الملك مثابة القانون ؛ ولم يكن مجرد قانون تعاقدى ، يطبق فى العلاقات السياسية والتجارية (فإن بابل شرعت فى هذا تشريعاً أكثر أصالة من التشريع المصرى) ، وإنما هو قانون اجتماعى ، ينشئ العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الإلهية فى العالم الآخر . فلا يحسب الملك أنه مضعف من سلطانه إذا أشرك الشعب فى إدارة أملاكه . وبذلك يتطور نظام الحكم إلى شىء قريب من نظام اشتراكى فى الدولة . نعم إن الفرعون يظل مالكاً للأرض وما عليها ، ولكن بشرط أن يكون للجميع هدف واحد ، هو « خير المجتمع » . فالملك يؤدى خدماته فى الدولة ، كما أن الشعب ، خاصته وعامته ، رفيعه ووضيعه ، يعمل من أجل المجموع ، فى الأرض ، وفى الحرف ، وفى وظائف الدولة . بل إن القوى الإلهية ، والطبيعة ذاتها ، تدرج هى أيضاً وتحشد فى عداد الآخرين .

ودليلنا على قولنا هذا نتلمسه فى برديات من أواخر الدولة الطيبية ، يعدد نصها قائلا : « هذا بلاغ للناس ، جاهلهم وعالمهم ، بما خلق فتاح وأبدع ، وما سجل توت وأثبت ، من كل ما يوجد تحت قبة السماء ، أو على ظهر الأرض » ؛ أولا العوالم : السماء وقرص الشمس والقمر والنجوم . . . والعواصف والرعد والفجر والظلمات والنار والماء والفيضان والبحر والبحيرة والأرض والرمال والزرع ، ثم الأحياء : الرب والربة ، والروح « آخ » (الميت المؤله) ، والملك القائم ، والزوجة الملكية ، والملكة الأم ، وأولاد الملك ، والأمراء ، والوزير وأمير الصحبة . . . إلخ . ويتبع ذلك موظفو الدولة المركزيون ، وموظفو الأقاليم (الشئون المالية والعدل والجيش

والمعابد) ، وتنتهى القائمة بالكتبة وأصحاب الحرف الفنية ، والطهاة والنجارين والحفارين وعمال المعادن وصانعى أحذية الملك . . . (والبردية ناقصة) .

وهكذا يبدو لنا المجتمع المصرى مجتمعاً مجنداً للخدمة العامة ، يضم ما حوله من العناصر إلى المخلوقات : الكل مسجل مدوّن ، كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى معاهدة الصلح بين رمسيس الثانى وملك الحيتا ، حيث يستشهد على توقيعها بالسماء والأرض والرياح والسحاب

* * *

« تلك إذن كانت الأدوار التى مرت بها نظم الحكم : مجتمع على الشيوع أيام العشائر ؛ وحكم مطلق مؤسس على الحق الإلهى أيام الدولة القديمة ؛ واشتراكية ملوكية بعد الثورة .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها ، فإن النظام الذى ظل المصريون مخلصين له — وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم — أظهر بحيويته ، وطول بقائه ورخائه ، قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستنداً إلى محكومين جبلوا على النظام .

فالحضارة المصرية ، بأوضاعها المتعاقبة ، توحى إلينا بصورة شعب متماسك متناسق فى أصله ومنبته وروحه ، شعب ، وإن قل عدده ، ينبئ بالقوة فيما أبدعته عبقريته الخارقة المدبرة ، وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وإيمانه بالبعث ، ومثله فى العدالة .

ومرد هذا النظام إلى ظروف المعيشة التى فرضتها عليه القوى المسيطرة على البلاد : النيل والشمس . وإلى أنه — من ناحية أخرى — وريث مباشر للمجتمعات البدائية . أى أنه فى حالته الراهنة ، كما كان فى عصور البداوة ، يخضع الفرد للجماعة ، ويعيش على اتصال دائم بالأرواح واحترام بنوى للتقاليد .

والمجتمع المصرى ، فى نظام الحكم ، وفى طباعه وأخلاقه وعاداته ، يظل حتى النهاية فى صف المجتمعات الخاضعة للمقدسات . وهو فى هذا متخلف عن المجتمع الإغريقى الرومانى . تأمل المعابد المصرية يرعاها أمبراطرة روما ، ويتوج الكهنة فى داخلها ملوكهم الأجانب ، ليدعموا ويطيلوا سلطانهم وحياتهم بممارسة الطقوس . ويدفع هؤلاء الكهنة عن الآلهة والناس غائلة الموت ، وذلك بتلاوة التعاويذ وإجراء

الطقوس التى وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، من أجل الفراعنة القدماء . عباد هوروس . فلا غرو أن نقرأ ، فى مؤلف مكتوب فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس . هذا القول :

« مصر ظل الإله على الأرض . وهى قدس أقداس العالم ، وحاضرة الأديان » .

فالعقلية القديمة، على الرغم من الجهود المواتمة. ظلت تتحكم فى مصر المتطورة ؛ والمصرى لا يجنح إلى الحرية ، ولا إلى تكوين الشخصية الفردية ، إلا فى فترات نادرة من أزماته الاجتماعية . وإنما هو استعداده للكمال ، دفع به إلى التجديد فى فنونه وصناعاته . أما التحرر ، الذى يضمن للفرد حقوقه فى مواجهة مطالب المجتمع ، ويطلق المرء من عقال العقيدة الدينية ، والفنان من قيود الأساليب المرسومة ، والمؤمن من حدود الطقوس الجامدة . والمفكر من التقاليد ، ذلك التحرر لم يظهر فى مصر بوجه عام ، بل إن فلاسفة اليونان ومشرعيهم هم الذين سوف يحررون الفرد من ربقة هذه القيود كلها .

وعندما يفتح ملوك العهد الصاوى أبواب البلاد للغرباء ، يجىء أول من يجىء الأغارقة الذين تربوا فى بحبوحةالديمقراطية المعروفة بالمدناليونانية ، أولئك المتشككون ، أبناء دولة العقل ، الفنانون الذين أبدعوا أسلوباً إنسانياً ، يجيئون إلى مصر ، فتثير دهشتهم تلك الآثار الهائلة ذات الطراز الثابت ، وتلك الحيوانات تؤله ، والملوك — الآلهة يحكمون دولة عظمى دون منازع ، وتلك الإدارة المركزية تتغلغل فى كل شىء ، والشعب المستكين لآلهته ولملوكه وأمرائه ! ما أشبه بها دهشتنا ونحن نشاهد حفريات الحيوانات الضخمة ، المنقرضة منذ عهود سحيقة ! فلا هيرودوتس ، ولا الآخرون ، فهموا عقلية المصريين . ولكنهم ، مع هذا ، أدركوا أنهم حيال مشهد كله روعة ، فريد فذ فى دنيا العالم المعروف إذ ذاك ، يستوجب منهم أن يفهموه ويتمثلوه جيداً ، قبل أن يضيع فى عباب التطور والتقدم . ظهرت لهم مصر وكأنها الكنز الحافظ لحضارة الإنسان منذ مهادها وأصولها . فهى عندهم أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، تحيا حياتها وقد آذنت بالأفول ، وتحتفظ بآثارها منذ عصور واغلة فى القدم ، تحت سمعهم وبصرهم ، عبرة وأمثولة للمجتمعات « الجديدة » . وهنا أقبل الأغارقة ، أهل الشك . فى رجعية عقلية غريبة على العقل

البشرى . يسائلون كهنة هليوبوليس . لعلهم يتعرفون على أقدم التقاليد وأعرقها .

هنا يبدأ دور مصر ، معلمة الأجانب ، عندما يقبلون عليها أفواجا : يجيئها المشرعون والفلاسفة يستوحون تجاربها الاجتماعية . وفلسفتها فيما وراء الطبيعة ، ويؤمها من يتلمسون عقيدة تطمئن إليها النفس . محاولين فهم أسرارها الروحية . ويدخلها الفاتحون يتلقون عليها مبدأ من مبادئ السلطان . ويأخذون عنها أساليب الإدارة . فأى مثل يفوق هذا المثل ، يضرب لمؤسسى الإمبراطوريات . وهم يرون سلطة الملك ممثلة فى وظيفة مرصودة للخير والنفع العام ، قائمة على وحى الآلهة ، يرضى عنها الناس . لذلك يخترق الإسكندر سباسب ليبيا ، يطالب إلى آمون واحة سيوة أن يضفى عليه أبوته ، ويخرج المقدونى للناس فى صورة آمون وابن آمون ، ويتأثر البطالسة خطاه ، ويتلقى عنه قياصرة روما هذه الأمثولة، فيتحولون وشيكاً ، فى إمبراطوريتهم ، إلى أرباب يعبدون .

أما عن تلك الأداة المتكاملة فى الإدارة المصرية . وهى أس عمل المجموع من أجل الدولة . فقد عرف البطالسة قدرها وميزاتها العملية . فحولوا مصر إلى مصنع كبير للإنتاج . واستغلوا ثروتها الزراعية وصناعتها استغلالا تاماً لفائدة المقيمين على ضفاف بحر الروم كلهم . وعند ما تتحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية، تمسى مصر لا مخزن غلال العالم اللاتينى فحسب ؛ وإنما الولاية النموذجية فى نظام الحكم الإمبراطورى ، يحتفظ بها قيصر ملكاً لشخصه .

ومع كل هذا ، فإن الرخاء والعمل المنظم والإدارة الحكيمة لا تكفى لإطالة عمر أمة ؛ لأن الشعوب بحاجة إلى عقيدة ومذهب . ولقد ابتدع الفراعنة مبدأ الحق الإلهى لسلطة الملك ، ومذهب التعاون الاجتماعى ، وسادنه الكهنة آلافاً من السنين ، وآزرته قوى الشعب الروحية والمادية . ثم جاءت الأجناد المرتزقة والغرباء يستولون من المصرى على مثله الاجتماعية العليا ، ويسلبونه إيمانه بالسلطان ، وعقائده وعاداته وتقاليده وكتاباته . فالحق أن الفكرة الفرعونية للمجتمع كان قد انتهى زمانها ، وقضى عليها بالعفاء . وأمست مصر فى قول أحد نصوصها : « جسماً بلا روح ، ومعبداً بلا إله » ، وانطوت أسرار كتابتها عندما طارد المسيحيون السلالة الباقية من كهانها ، وانزوى حتى اسم مصر وكلمها المقدس ..

فلنستمع إلى المرثية التى تقطع نياط القلب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة الإسكندرية . وعند هذا الحكيم أن زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها إلى اليوم ، يفيض بها الوداع الذى يودع به أسكليبوس (فى القرن الرابع الميلادى) حضارة كانت فى زمانها خيرة مجيدة ، وهى تسير دون رجعة فى طريقها المحتوم إلى الزوال :

« سيجىء زمان يظهر فيه كأن المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقوس الآلهة ، بروح العباد البررة ، والصلاح المؤمنين . وما دام الصلاح والعبادة والإيمان لم تؤد إلى شىء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوت واليأس . سترتفع الآلهة عن أرض مصر ، وستهجرها إلى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات ، وتغدو يتيمة من آلهتها ، لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . ولن تهمل أركان الدين فحسب ، بل إن المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التى تجعل من إيمانهم وصلاحهم وعبادتهم أمراً محظوراً ؛ وهذا أقسى ما يرزؤها به القدر . وحينذاك ستتحول تلك الأرض القدسية ، مثوى المعابد ومعرش الآلهة ، إلى أجداث وأرماس .

يا مصر ، أى مصر ! لن يبقى من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة إيمانك ، لا يأخذها الخالف مأخذ الجد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى » .

* * *

فإذا كان هؤلاء الأقطاب من المؤرخين الأجانب يقفون بتاريخ مصر وحضارتها القديمة عند حدود تخصصهم ، ويعتبرون موت الحضارة الفرعونية نهاية لتاريخ مصر ، فإن تلاميذهم المصريين — وهى ظاهرة طبيعية ، ولكنها جديرة أن ينوه بها — كان من غير المعقول أن يقفوا منها هذا الموقف . لذلك أختم هذا الفصل بما انتهى إليه مؤرخان مصريان ، أولهما أحمد بدوى . صاحب كتاب « فى موكب الشمس » . ولن ننقل آخر كلماته . لأن كتابه فى حكم غير المنتهى ، فقد وقف منه عند آخر الرعامسة ، وإنما نقتبس الكلمة التى اختتم بها ما سماه « نظرة عابرة » ، فى آخر مقدمته ، قال :

« وبعد ، فهذه صورة عاجلة من تاريخ مصر . ومن سيرة حظها العجيب ، ترينا كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل . كل عرض يمضى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى . فخالد لا يموت » .

* * *

وثانيهما أحمد فخرى ، فى كتابه « مصر الفرعونية » . وهو يختمه بهذه الكلم :

« لقد سكتت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى العازفين . ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبهائها وحجراتها ، يهتف بمجد مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب الكبير الضخم ، الذى سطره المصريون بأنفسهم .

« إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .

« لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت الدول وزال الغزاة ، وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين ؛ وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة ، طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه . يفيض بالخير والبركات ؛ وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين » .

الحضارة المصرية

بالفصل السابق مختارات مما ختمت به بعض كتب التاريخ ، ونريد الآن أن نفهم لماذا يجمع المعجبون بمصر القديمة من المؤرخين الأجانب على القول بأن مصر انتهت بانتهاء الحضارة المصرية ، ويهملون أمر مصر كله بعد ذلك . ولا يمكن أن يتهموا بسوء القصد ، أو الخطأ فى التعبير ، وجلهم يختمون كتبهم بما يشبه ما جاء فى أحدها ولم أسجله فى الفصل السابق ، احتقاراً لشأن كتيب عن مصر القديمة ليس فى العير ولا فى النفير ، إذ يقول : « جاءت الساعة المرصودة فى لوح القدر ، وآن لمصر أن تموت » . كذا !

لا أظن هذا مجرد إجماع على الحط من شأن أمة عاشت فى عين الدهر ، بعد نهاية الأسرات ، نيفاً وألفى عام ، وما تزال حية ، وفى عنفوان الشباب ، وكأنها خلقت خلقاً جديداً . وأذكر فى شبابى أول لجنة دولية جلست فيها مندوباً عن بلادى ، وكانت اللجنة تضم ممثلين لبلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان موضوع اجتماعها علمياً محضاً ، لا علاقة له بتاريخ حضارة قائمة أو بائدة ، وكنت أصغر الحاضرين سناً ، فجاءت فى خطابى إشارة إلى مصر « الدولة الفتية » ، وإذا بأولئك الشيوخ الأعلام حولى يتبادلون النظرات ، ويعلق أكبرهم على كلامى قائلا : كنا نظن قبل أن يتكلم المندوب المصرى أن مصر أقدم البلاد وأعرقها ! فأجبته على التو بأننى لم أقل الأمة ، أو البلاد ، وإنما قلت « الدولة الفتية » .

ولم يكن فى تعليق المندوب الكبير ما يتعدى مداعبة شيخ لشاب ، وفى حدود الاحترام لبلادى القديمة والحديثة . هذا وأغلب العاملين فى الدراسات المصرية القديمة من أصدقاء مصر . لذلك أحب أن أضع على لسانهم فيما يلى ما أحسبه منحى تفكيرهم :

إننا نرى الحضارة المصرية القديمة شيئاً رائعاً حقاً ، وما حدث على ضفاف النيل من انتقال الإنسان من البداوة إلى تلك الحضارة الرفيعة ، وقبل كل الشعوب ، ودون

مساعدة من الآخرين ، هو ما أردنا أن نقص عليك أحسن قصصه ، بعد أن قضينا حياتنا ، وأساتذتنا من قبلنا ، ننقب عن آثار مصر ، وننقل ونترجم . ونسجل ونقارن . فإذا انحدرت شمس تلك الحضارة نحو المغيب ، شعرنا بالحزن يملأ قلوبنا ؛ وأحسسنا بأن أروع صفحة من صفحات التاريخ البشرى تطوى نهائياً

أى نعم ، ستعرف بلادك حضارات ، ولن تغرب شمس الفن والعرفان عن بلادك . فلسنا نحن الذين ننكر حضارة الإسكندرية ، ولا ما أدته مصر للمسيحية الأولى ، ولا أن مصر قلب الحضارة الإسلامية الخفاق منذ أكثر من ألف عام . ولماذا نذهب بعيداً ، وإليك ما قاله أستاذنا أوجست ماربييت :

« مصر لا تشرق بضع لحظات ثم تغيب فى ليل طويل ، كما حدث فى بلاد أخرى ، بل العكس هو الصحيح ، فإن يمن طالعها العجيب أراد لها أن تواصل عملها سبعين قرناً . وأن تترك أثرها فى ناحية من النواحى واضحاً جلياً ، فما يكاد يشمل جميع حقبات هذا التاريخ الطويل . فى العصر الفرعونى ظهرت مصر ، فى غابر الزمان ومطالع الدهور ، جداً أعلى لجميع الأمم ، بملكها خوفو ينشئ بناء لا يتفوق عليه الفن الحديث ، وبملوكها تحوتمس ، وأمنحوتب ، ورمسيس ، يسحبون خلف عرباتهم الحربية أسرى من جميع الأجناس التى عرفها ذلك الزمان . وإبان الحكم اليونانى والرومانى نرى مصر تتحكم فى عالم الفكر ، كما تحكمت من ذى قبل بأسلحتها ، فهم فلاسفة الإسكندرية الذين تولوا الحركة الفكرية فى غضون أزمة من أشد الأزمات الروحية ، وهى الحركة التى تمخضت عن العالم الحديث . وفى القرون الوسطى شاد الفن العربى بالقاهرة منشآته التى تعز على التقليد ، ووقفت مصر سداً منيعاً أمام الصليبيين ، وأسرت عاهلهم لويس بالمنصورة . وفى أيامنا تجىء الحضارة الحديثة لتعيش على ضفاف النيل، فتستأنف مصر سيرها بخطوات واسعة فى ركب التقدم ، وإذا العالم أجمع يتنبه إليها » .

ونحن نؤمن على ما يقول مؤرخ من مؤرخى مصر الحديثة ، إدوار دريو :

« ليست مصر طريقاً ، ولا معبراً ، ولا هى ورقة كوتشينة ، فى الألاعيب المعقدة بين الدول ، ولا يمكن أن تكون مصر مستعمرة للاستغلال ، أو لاستيطان الغرباء .

« مصر جذوة إنسانية ، من أقدم الجذوات اشتعالا . وأروعها وأظهرها للعيان ، فى كل ما أوقد حول البحر الأبيض المتوسط من مشاعل الحضارة على مدى الأجيال .

« مصر صنعتها رواسب حضارات لا يعادلها فى الثراء إلا طمى نهرها الإلهى ، وامتزجت فى تربتها ملايين من الأجساد : أربعة آلاف عام من حكم الفراعنة : منف ، طيبة ، الكرنك والأقصر . ضفاف النيل أجداث ألفية ، طابقاً فوق طابق ، تنطوى على كنوز من الفكر والفلسفة .

« وألف عام من الحضارة العربية ، أضافت كنوزاً إلى العلوم والآداب ، إلى جانب تلك الآثار الفنية من جوامع ومساجد ، بوحى القرآن . تتحلق حول الجامع الأزهر » .

ولكن ما حققتموه فى عصوركم التالية لعصر الأسرات ، حققه غيركم فى أصقاع أخرى من العالم . ولم تعد لكم ميزة التفرد والتفوق ، وهى الميزة التى كانت لكم فى فجر الإنسانية .

وهنا يضيف العلامة كورت لانجه :

« لتكفى برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيرة من الشعوب — منها مصر وسومر والصين - استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة فى الأزمان السحيقة. وأن تنتهج لنفسها أسلوباً فى الحياة يعد من أغنى وأصح ما حققه الجهد البشرى فى هذا السبيل ، وهو أسلوب لا تدين به لغير نفسها ، ورجاحة عقلها ، وصدق شعورها . وتتسنم به ذروة رفيعة من ذرى التمدن ، وبهذا تمهد للبشرية طريقها إلى الرقى . وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر فى الحضارات التالية لحضارتها — وما أكثر من ينكرون عليها هذا الأثر — ولكن الرأى مجمع . حتى عند هؤلاء الجاحدين ، على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل إلى اليوم » .

فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة ، وإذا لم تنفعلوا بتاريخكم الأول مثلما ننفعل نحن الغرباء ، فلا تلومن إلا أنفسكم !

* * *

قال ولسون فى كتاب « قبل الفلسفة » :

« الميلاد اليومى للشمس . والميلاد السنوى للنهر يشكلان قسمات الطبيعة المصرية . كانت مصر غنية ولكن فى غير إسراف ، ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمراً جنياً . ليغتنمه زرّاع كسالى . الشمس والنيل يشتركان فى إعادة الوادى إلى الحياة ، ولكن بفضل جهاد الشعب المصرى ضد الموات : فالشمس تدفئ ولكنها فى حرارة القيظ تلوح وتلفح . والنيل يحمل إلى مصر المياه والطمى والخصب ، ولكن فيضانه السنوى قلب . لا تنفع فيه نبوءة ، فالفيضان العالى يغرق الأرض والحرث والنسل ، والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء . عالياً كان أم واطئاً ، فهو يجيء دفعة واحدة . وينتهى عاجلا . مما يلزم سكان الوادى بالعمل المضنى لخزن مياهه . وتنظيم الرى نوبة بعد نوبة . والصحراء عدو متحفز . يقرض الأرض المزروعة . ويحيل الخصب محلا . وهى إلى ذلك موطن الأفاعى والضوارى والغيلان والسعالى . وبطائح الدلتا وقد تحولت أجمات ومستنقعات . تتطلب الرى الدائم حتى تعود حقولا مزروعة . والبلاد تشرف على الفناء فى ربع العام تلفحها الرمضاء ، وتلوحها الشمس . وتهددها التحاريق . حتى يعود الفيضان . فيعتدل الجو . ويبارك الله أرض الكنانة . ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين . ولكن ذلك لم يكن ليعفى أهلها من الكفاح الدائم والحرمان . أو ليحميها من الأخطار . مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثراً وأصدق . إذ لم يجيء نعمة سابغة . وإنما حققه التعب والنصب .

« وثمة صفة أخرى لوادى النيل تنعكس فى أخلاق أهلها : وحدة المناظر . واتزان عناصرها : الشاطئ الشرقى يوازن الضفة الغربية . وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا . وسواء أكان هذا التقابل فعالا أم غير فعال . فإن المصرى كان شديد الإحساس بالاتزان والنظام والهندسة . يتجلى إحساسه ذاك فى فنونه وآدابه . وتتسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع :

أصغ إلى أقوالى . أعرنى سمعك .
إننى ألقى إليك بالكلم لتعرف أننى ابن رع .
خلقت من صلبه . لأجلس هانئاً على عرشه .
مكن لى فى الأرض . سيداً على الوادى .

سديد رأيي ، يتحقق على الأيام تدبيرى ،
أنا حامى الحمى ، أنا المدافع عن مصرى »

* * *

لا شك أن وحدة الشعب المصرى أقدم وحدة تمت لأمة ظهرت على وجه البسيطة ، وأقواها . سوّاها النيل وطميه ، وأحيتها الشمس المشرقة . فالشعب المتحضر ، أى الشعب الذى يفلح الأرض ، اضطر إلى ترتيب معاشه حسب ارتفاع النيل وانخفاضه ، ونظم تقويمه على حركات الشمس والفصول ، وضم شمله ليستطيع أن يحقق أعظم النفع من طمى النيل وشمس مصر ، وليدفع عنه غوائل الفيضان ، أو خطر القحط والأوبئة إذا ما أصيب بفيضان منخفض . لذلك نفهم أن تتجمع العشائر المصرية الأولى حول وادى النيل فى مراكز أو مديريات عرفها الإغريق باسم « نومس » وهى الكورة ، ولكل كورة إلهها ، وربما مجموعة آلهتها ، وقد تكون مجرد طواطم ؛ ولكن تجمع الكور فى أقاليم ، ثم فى إقليمين كبيرين ، قضى بتجميع تلك الآلهة ، وتغلب بعضها على بعض . بيد أن أساس ديانة المصريين كان عبادة الشمس والنهر ، وكما تعود الحياة إلى الأرض الموات بعودة الفيضان وبقوة الشمس ، فإن المصرى الأول بنى عقائده على فكرة النشور ، أى الحياة بعد الموت ، وبذلك يمكن القول بأن الإله الأكبر الذى اشتركت فى عبادته الأقاليم كان رع — الشمس ، وكان أوزيريس الذى بدأ معبوداً للوجه البحرى ، إله النشور ، والعالم الآخر .

والهندوكية أيضاً — وهى وثنية متعددة الآلهة ، ما تزال قائمة إلى اليوم — تقول بعودة الميت إلى الحياة ، لا فى العالم الآخر — فليس للهندوكى عالم آخر — بل فى هذه الدنيا ، وفى صورة متناسخة ، صعوداً فى سلم المخلوقات — إن كان المتوفى من الصلاح — وانحداراً إن كان طالحاً ، ولكنه فى الحالين معذب ، فالحياة عذاب . وينتهى عذاب هذا التناسخ بعد سلسلة من العود إلى الحياة فى صور متشكلة من إنسان أو حيوان ، عندما يبلغ الهندوكى مرتبة القداسة القصوى ، فينتهى بموته إلى التلاشى التام فى البراهمان .

فالهندوكى ، سجين التناسخ ، شقى حزين ؛ كل ما يأمله أن يتخلص من

هذه الحياة ويفنى . . . فى النرفانا !

أما المصريون القدماء فقد دفعهم حب الحياة إلى الحرص على امتدادها بعد الموت . ألا يكون تفسير هذا أن المصرى السعيد بعيشه الرغد ، كان لا يطلب إلا أن تطيل الآلهة عمره فى الدنيا . وفى الآخرة ؟

* * *

يتقدم البشر من الفطرة إلى البداوة . ومن البداوة إلى الحضارة . أو قل إنهم ينتقلون من التوحش إلى التبربر . ومن التبربر إلى التحضر . والإنسان الأول صياد قناص . ولكنه لم يكن ليستطيع أن يكون وحشاً ضارياً يضرب بمخالبه ، ويمزق بأنيابه وأظلافه كالأوابد . فهو حيوان ضعيف البنية بالنسبة لسكان الغاب والأحراج ، ثالم الأسنان ، مفرطح الأظافر . يدرج فى زمرة أهل الحيلة والمكر من الحيوان . هيأته الطبيعة ليأكل من خشاش الأرض ، وأوراق الشجر وفواكهها . . . ومن لحوم الحيوان والسمك . هدته حيلته إلى مخترعات هائلة فى بساطتها : اكتشف طريقة لإشعال النار . وصنع البومرانج والنشاب والقوس والسهم . واخترع الشص والجوبية لصيد الماء ، وحذق « المقالب » يحفرها لأخيه الحيوان . . . والإنسان ، دون أن يقع هو فيها . وقد يقع . ثم حول قطاع جذع شجرة يتدحرج ، إلى عجلة تدور . واستألف الحيوان يقتنيه لغذائه ، ويروضه لمعونته . وعرف الزراعة ، مقلداً الطبيعة . وصنع الأوانى ليخزن فيها الحبوب . وكان قد ترك سكنى الكهوف وأعالى الأشجار ليحفر فى الأرض مأوى ، أو قبراً . وتعلم كيف يكسوه بأغصان الشجر ، ثم بجذوعها . وكيف يجدل سوق النبات حصيراً ، ثم عرف كيف ينشئ من جذوع الأشجار وأغصانها كوخاً مسقوفاً . أى أنه انتقل من حياة الهائم يطارد ويطارد ، إلى نوع من الاستقرار انتهى إلى النجع والمحلة والقرية .

والمصرى مر بكل تلك الأدوار . وقد عرفنا بعض آثاره فيها . درس العلماء « حضارة » عصوره الحجرية . وظهر أنه اتجه قبل الأسرات بزمان طويل اتجاهات اجتمعت فيها خصائصه الإنسانية كيفتها طبيعة بلاده . وفى آخر عهده الحجرى الحديث . قبيل الأسرات ، ابتكر رموزاً مصورة يسجل بها بعض كلامه . وعرفناه

يواصل صناعة الظران طويلا ، حتى فى عهد الأسرات . وإذا كان استعمل النحاس مبكراً ، فلن يصل إلى الحديد إلا متأخراً ، وربما فى العهد اليونانى ، أو قبل ذلك بقليل .

بلغ الإنسان المصرى قبل عهد الأسرات « حضارة » فيها النحاس ، وفيها الكتابة ، ولها نوع من التفكير الدينى بالخلق ، وبالحياة قبل الميلاد ، وبعد الموت . وفيها فن بدائى استودعه انفعالاته بشىء سماه « نفر » ، ربما عنى به « الجمال » وربما « الخير » ، وربما كل شىء طيب .

والمصرى ، فى الأسرات الأولى ، حقق ما أخطأ العالم الأوربى فى وصفه بالمعجزة ، كما سبق له أن وصف حضارة الإغريق بهذا الوصف . وليست هناك معجزات فى تكوين الحضارات ، مصرية أو سومرية أو يونانية .

ولسنا مرتبطين فى هذا الكتاب بخطة جمع المعارف وحشدها ، إنما نحن رحالة فى رحاب التاريخ نشاهد آثار الحضارة المصرية حولنا ، ونقرأ عنها ، ونقلب صفحات الكتب التى تسجل صورها ، لنتذكر ونتمعن فيما رأيناه منها بين الركام ، وفى هجير الحر ، تحت الأرض وفوقها ، نسف التراب والرمال ، ونهش الذباب والهوام . . . والأدلاء . وينادى علينا من باب المقبرة ونحن فى أسفل سافليها بأن الأنوار ستطفأ ، و « الأسطى عاوز يروح الأقصر ، وابور الكهرباء حايقف ! » . فهى الكتب بصورها تجدد الانفعالات التى انطبعت فى نفوسنا أمام الأصول . ثم نسجل ما وعته ذاكرتنا عندما نأوى إلى مخادعنا بعد يوم عناء للجسد ، وغذاء للروح . وخطأ الرحالة أنه يريد أن يشاهد كل شىء ، فينتهى به الإجهاد إلى ثلم إحساسه ولقد عرفت ، كرحالة قديم ، كيف أختار ، وكيف أقنع بالقليل من الكثير ، لأحتفظ برواء الأثر الفنى وجدته .

وما زلت أتصور متحفاً للآثار المصرية تكفى ساعة أو ساعتان لارتياده ، نتخير له القطع الفذة من فن المثال والحفار والرسام ، وننسقه بطريقة فنية تحيط كل تحفه بما يبرز محاسنها ، ويؤكد خطوطها وأقوامها ، وانبعاجاتها وتكورها . يتنقل الإنسان فى ذلك المتحف الصغير وكأنه يتريض فى « نزهة الفن والروح » ناعماً بما يرى ، لا يستعجل الزمان خطاه ، ولا تشغله مئات التحف يمنة ويسرة ،

تزوغ بينها عيناه ، وتتصلب رقبته ، فهو يتلفت كمن يخشى مباغتة طارئ مهاجم ، يرفع الرأس ويخفضها ، ويميل بها ، يركع ويسجد ، يصوب النور إلى عينه هنا فلا يرى شيئاً ، ويضايقه الظلام حيث يحب أن يشاهد ويتأمل .

المتحف الذى أتصور ، بناء مستقل عن دار الآثار المصرية ذات التاريخ المجيد ، ردهاته محدودة ، ويا حبذا لو استوحى المهندس فى بنائه ذلك المعبد الصغير الجميل الذى أعاد بناءه هنرى شفرييه فى ساحة الكرنك حديثاً ، وهو من آثار سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة . كان يودع فيه تمثال الإله آمون الفحل ، وسفينته المقدسة .

ولست هنا متخيلا أو حالماً . فقد نشأت فكرتى هذه منذ ابتدع متحف اللوفر ، قبيل الحرب الكبرى الثانية ، بدعة الزيارات الليلية ، وخصص لها قاعات صغيرة فى بدرون القصر . واختار لها قطعاً ممتازة من مجموعاته الغنية التى انتهت هى الأخرى فى الطوابق العليا إلى ما يشبه « سوق الكانتو » المعروف عندنا قديماً باسم « الأنتكخانة المصرية » . هناك فى ذلك البدرون على ضفة السين اليمنى أحسست ، وربما لأول مرة ، بروعة جمال الفن المصرى . وبذلك رحم اللوفر زواره من الإرهاق، بمثل ما نرهق به زوار المتحف المصرى .

والفنان المصرى لم يكن « أرتست » بالمعنى الذى نعرف . لم يصور ولم يحفر ولم ينحت تماثيله لتراها العين فى معرض ، أو ليقتنيها الأثرياء فى دورهم . إنه يعمل للأبدية ويشتغل فى نطاق الطقوس الدينية ، فهو والمحنط والكاهن الذى يتلو التعاويذ والبناء والمبيض ، يعدون « للمرحوم » — باعتبار ما سيكون — مثواه فى الآخرة .

ونحت التماثيل نشأ فى أول أمره حلا لمشكل بقاء الجثمان . فإن المصرى لم يضمن مع التحنيط ، الاحتفاظ به ، وعفريت الميت ، أو قرينه « كا » فى الأصح، بحاجة إلى جسد يتمثل فيه بشراً . فإذا ما اختفت المومياء ، راحت على الميت حياته الأزلية . فتماثيل الأسرات الأولى بدأت غالباً كبديل للجثمان ، أو احتياطى لها .

ومجموعة التماثيل التى انحدرت إلينا من تلك الأسرات لا تمثل الفن المصرى فى ذروته فحسب ، بل إنها تضعه إلى جانب آثار الفنون العالمية التى عرفها التاريخ فى أجمل عصوره ، بعد قرون من انهيار الحضارة المصرية .

فلنؤم المتحف المصرى لنشاهد بعض هذه التماثيل . ولنتصور تحقيق فكرتنا فى متحف « المختارات » فنقتصر على قلة منها . إنك ستعرفها كلها واحداً واحداً ، وتكاد تقرئ « شيخ البلد » ، السيد كا – آبر ، السلام فى شيء من الألفة ، وتحدج الأميرة نوفرت بنظراتك وأنت تحسد زوجها رع – حوتب على حسن ذوقه فى اختيار رفيقة حياته ، جمالا ودعة . وللعثور على هذين التمثالين الجالسين قصة أحب لك أن تذكرها وأنت ترى الوجوه المزججة ، والعيون البراقة ، والألوان المشرقة ، يكاد يهم صاحباها بالتحدث إليك . فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كان العمال القائمون بالعمل فى حفائر المدعو دانينوس باشا يفتحون مصلى مقبرة مكتشفة حديثاً لأمير من أمراء الأسرة الرابعة ، بوادى ميدوم ، وإذا بهم يتراجعون مذعورين ، وهم يؤكدون للعلامة المشرف على الحفر أنهم رأوا عيون الأرصاد السحرية التى تحرس الكنز ، تلمع غضباً ، وتهددهم بالويل والثبور !

هذه أعمال النحات المصرى تصور الإنسان أميراً . أو كاتباً ، أو موظفاً عمومياً ، كلا على سجيته . ولكن فى تشخيصه للملوك استطاع أن يحقق أعجوبة بسيكولوجية . فلنلق نظرة على أعظم قطعة فنية فى التاريخ المصرى كله ، ومن أجمل وأقوى ما حققه فن المثال فى العالم أجمع : تمثال الملك خفرع ، من حجر الديوريت الأسود مجزعاً ببياض . لن تتمالك من الشعور بأن هذا الجالس أمامك إنسان رفيع المقام ، والألفة بينك وبينه ليست ميسرة ، تلك الألفة التى شعرت بها أمام الأميرة نوفرت . والجنرال رع – حوتب ، والسيد كا – آبر . لم يصنع المثال شيئاً خارقاً يعلن أنك بحضرة ملك عظيم ، لأنك إذ تنظر إلى التمثال من أمام ، لن ترى علامة ملكية واحدة ، إذا لم تتبين رأس الصل فوق جبينه . إنما هى النظرة الجانبية تقدمك إلى الإله هوروس فى صورة باشق يحمى رأس الملك بجناحيه. وستطالع على جانبى المقعد رمز مصر العليا والسفلى . فأنت إذن فى حضرة ابن هوروس – رع – هاراختى . صاحب الهرم الثانى ، أجمل الأهرامات فى عينى ، يزهو على جاره الأكبر بتاجه الهرمى الكامل . لم يصوره المثال فى جلال الملك ، وقوة السلطان . جباراً عاتياً . ولكنا نواجه ، من دون شك ، شخصية بارزة ، رافعة الرأس فى ثقة بنفسها ، واطمئنان إلى قوتها . ولست أدرى من أين جاءتنى فكرة قديمة فى شبابى –

عرفت تفسيرها فيما بعد — وهى أننى كلما رأيت وجه أبى الهول ملأت فراغاته ، وأكملت سيماءه وتقاطيعه برأس خفرع هذا . كم أحب أن يوضع تمثاله الهائل فى مكان منفرد بمتحف المختارات فى صدر المكان ، يبلغه الزائر بعد أن يتم مشاهدة روائع الأسرات الخمس الأولى . ومن رأيى أن الزائر الفنان ، إذا أحب أن يحتفظ فى نفسه برعدة الفن ، يجدر به أن يكتفى من يومه بزيارة مختارات فن الدولة القديمة ، وأن يعود إليها مثنى وثلاث ورباع ، لأنه سيكون حينئذ قد تشرب روح الفن المصرى فى أرقى وأخلص أعماله .

وليس فى نيتى ، بطبيعة حال هذا الكتاب ، أن أعدد الأعمال التى أقترحها لمتحف « المختارات » . فلن يعسر على حسنى الإرادة ، إذا ما استقر الرأى على تنفيذ مقترحى ، أن يلهم من هم أقدر منى على ما يختارون ، وكيف ينسقون مواضع مختاراتهم .

• • •

هل ساءلت نفسك إن كان المصريون عرفوا كلمة « فن » ؟ وما علامتها الهيروغليفية ؟

يقول فقهاء اللغة البربائية إن الرمز الهيروغليفى الذى يمثل « مثقاباً للصخر » معناه هذه الكلمات : فن ، صنعة ، حرفة ، فنان. صانع . فلم يكن لدى المصريين — ولا عند اليونان فى هذا الشأن — كلمات تميز الفنون عن الصناعات . والمثال الذى صنع تمثال « شيخ البلد » من خشب ، أو نحت تمثال « تى » من الحجر الجيرى ، لم يكن إلا صانعاً فى « شركات المقاولات المتحدة لبيوت الأبدية »، أى أجيراً لنقابة الحانوتية . فمتى يتحول هذا الصانع إلى فنان ؟ لاشك أن عنايته أولا وآخرا — وهذا شىء يميز الصانع المصرى فى كل عصوره الفنية الزاهرة ، من عهد الأسرات وما قبلها ، حتى قضت على فنه حضارة القرن التاسع عشر الآلية ، والتفرنج الذى طمس على عيوننا ، ومحى بقايا الذوق الفنى من نفوسنا — أقول إن عناية الصانع المصرى كانت فى إجادة عمله فحسب ، حتى يجىء تمثاله مطابقاً للأصل . لأن فى هذا ضماناً لنجاح التحول السحرى عندما تنفخ « كا » فى التمثال حياة صاحبه ، أى عندما يلبسه عفريت المرحوم . ولكن الفنان ، فى محاولته

المطابقة ، تتداخل فى نفسه تلك العوامل المجهولة التى تقود يده إلى اللمسة الروحية اللماحة ، فيجىء التمثال صورة للواقع . وصورة لانفعالات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك . كما بحثت أنا طويلا . عن مركز هذا الصانع الفنان فى المجتمع المصرى القديم ؟ لأننى حقًا غلوت فى الدعابة عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفز بجواب . لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك فى الصعيد شيئاً غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق . وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطبل عنتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراها مفتشو الآثار ويحفراؤها ، أو من واتاهم الحظ والثراء فصعدوا النيل فى ذهبية أو باخرة .

لو أننى فى ذلك اليوم البعيد ذللت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت فى أية فلاة أترك السيارة ، لتوصلت إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثالها الأكبر « تحوتموزى » . ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتموزى الخاص ومرسمه . وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبيانه . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه . ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصه وحده ، لأن بيت المثال توتموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التى فازت منها متاحف برلين بالنصيب الأوفر . ومن هذا النصيب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التى صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صنع قالب من حمأة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء فى أوربا على ما يعرف بال« القناع الجنائزى». وفى متحف القاهرة رأس لنفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامه من هذا الرأس المصبوب . حتى ذلك الرأس الجميل لزوجة أخناتون الموجود حاليًا ببرلين .وقد زعمت ألمانيا قبل الحرب

أنها على استعداد لرده إلى أهله ، لولا أن المصور الفاشل ، مبيض الجدران ، المدعو أدولف هتلر ، زعيم ألمانيا فى ذلك الوقت . . . وقع صريع هوى . . . نفرتيتى !

هذا ما أردتك أن تعرفه : الفنان المصرى القديم ، مع ما تقيد به من محاولة نقل الطبيعة ، ومن التزام قواعد وتقاليد مرسومة منذ عهد الأسرات الأولى ، استطاع ، على الرغم من تلك القيود ، أن ينفعل بوحيه الداخلى ، وهو يترجم عن الطبيعة .

ولعلك أن تعود إلى تمثال خفرع لتحاول لهذه الأعجوبة الرائعة تفسيراً .

* * *

الحضارة المصرية ، إن لم تكن أثرت تأثيراً مباشراً على الأمم التى اتصلت بها ، كما لا يزال ينكر ذلك عليها بعض المؤرخين ، فإنها على الأقل عمات عمل الخمائر فى العالم القديم والحديث ، بما قدمت من أمثولة على ما يبلغه جهد الإنسان العقلى والجثمانى والاجتماعى . وهى حضارة يمكن أن تجد فيها العناصر التى تثير عجبك وإعجابك ، من أية زاوية نظرت إليها ، وأية ناحية طرقت دراستها ، بشرط أن تكون مدركاً لحالة البشر فى العهود الأولى لتلك الحضارة : فى العلوم التطبيقية ، لا سيما الهندسة والطب ، فى المعاملات ، تنظمها التقاليد والتشريعات ، فى نظم الحكم ، فى الرى والزراعة وتربية الحيوان ، أو فى تلك النواحى التى لا يكابر فيها مكابر ، وهى هندسة البناء ، وفى فنون العمارة والحفر والنحت والتصوير والصناعات الزخرفية ، وأخيراً ، وليس آخراً ، فى تلك المغامرات الروحية للإنسان بحثاً عن الخالق ، وتحديداً لعلاقاته بما وراء الكون والطبيعة ، وما بعد الحياة الدنيا .

كما أن للطاعن فى حضارة أجدادنا أن يكشف عن أوجه الضعف فيها ، سواء فى نظرته إلى روحانيتها أو إلى حياتها المادية : توقف الفردية وجمودها عند حلول لم تتغير مدى الثلاثين قرناً التى لبثتها تلك الحضارة ، وقصور فى مجال الفكر المطلق والمغامرات الذهنية التى تميزت بها الحضارة اليونانية أو الهندية . والتغيرات التى حدثت لم تتجاوز حدوداً مرسومة أملتها العقائد الراسخة . ووضعتها المبتكرات الأصلية التى تفتقت عنها أذهان شعب الدولة القديمة .

والحضارة المصرية غريبة عنا – حتى نحن أحفادها الأصلاء ! – إلى درجة أن حكمنا عليها يصح أن يكون موضوعياً بحتاً . فنمتدحها أو نقدح فيها ، تبعاً

لحكم العقل وحده ، دون العاطفة . فلا تعجب أن ترى الناس بيننا فريقين أو ثلاثة: الجيل القديم المحافظ ، وما تزال نظرته إليها موسومة باحتقار « تلك الكفريات » ، والجيل الحديث يشمل القادح والمادح ، والمدح والقدح يتسمان بالمبالغة والمغالاة . والواقع أن الموضوعية تباعد بين الناس وبين إدراك معنى هذه الحضارة المصرية ، لأنها ليست موضوعية منزهة ، فنحن نتأثر دون شك بظروفنا الحاضرة وبتفكيرنا الحديث . كما نتأثر بماتلا الحضارة المصرية من حضارات ما بين النهرين واليونان والرومان والإسلام والرنيسانس وما بعده . فلا تحسبن أنك واصل إلى قلب الحضارة المصرية بانتهاج موضوعية زائفة . إنما الموضوعية المثمرة أن تحاول الاندماج فى الحياة المصرية القديمة ، وأن تحاول التفكير كما كان يفكر أسلافك فى سنة ألفين أو سنة ثلاثة آلاف قبل الميلاد ، وأن تعمل ، فى كل ناحية من نواحى الكشف عن هذه الحضارة ، بنصيحة ناقد فنى كبير تخصص فى فن الرسم عند المصريين القدماء قال : يجب أن نبدأ بنسيان معارفنا الحديثة فى فن الرسم ، حتى نستطيع فهم الصور المصرية والحكم عليها .

* * *

قلت منذ لحظة إنك حين تلتقى بتماثيل الدولة القديمة بالمتحف المصرى ، ستقبل عليها فى شىء من الألفة ، وستحس كأنك أمام أشخاص تعرفهم جيداً . وكنت أود أن أضيف : حتى لو أنك التقيت بأحد هذه التماثيل فى بلاد الغربة ، مثل لقائى بتمثال « الكاتب المتربع » بمتحف اللوفر .

لقد حدثت فى حياتى الطويلة ببلاد الغربة ظاهرة ربما لم أنتبه لها فى وقتها . ولعل أغلب من سافر مثلى شاباً ليقضى سنوات فى الخارج ، خبر إحساس الحنين إلى الوطن الذى يعرف فى لغات الغرب بالنوستالجيا ، وهو شعور يستولى عليك بحدة فى الأشهر الأولى من إقامتك ، ولكنه لا يفارقك طوال إقامتك بعيداً عن أرض « كيمى » .

ومع أننى سافرت إلى أوربا كلفاً بحضارتها — وما زلت ، مما حكيت بعضه فى كتابى « سندباد إلى الغرب » — فإن انصرافى التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك الحضارة وأصولها ، لم يحمنى من نوستالجيا أرض كيمى ، وكان الحنين إلى الوطن

يعاودنى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيداً عن بلادى . ويرى بعض المواطنين علاجاً له فى أن يجتمعوا للاستماع إلى اسطوانات المطربات والمطربين المصريين . أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم .

وعرفت . إلى مثل هذه العقاقير ، علاجاً كنت أمارسه دون قصد أو وعى . إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى . كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة . وأذكر جيداً زيارتى « للكاتب المتربع » الذى يعتز به متحف اللوفر ، لأنه حقاً من أجمل أعمال الدولة القديمة . وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذة لا تتجه إلى محدثه ؛ خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى « لغط » ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى، وأننى أسمع هذا اللغط الموسيقى ينزل على قلب النازح عن وطنه برداً وسلاماً.

كما لا أنسى زيارتى الأولى للمتحف البريطانى . وكانت أول مرة أسمع فيها أن لنا تاريخاً وآثاراً سابقة على عهد الأسرات. حتى رأيت أميناً كهلا من أمناء المتحف يشرح لمجموعة صغيرة من شباب البريطانيين حياة ما قبل الأسرات المصرية ، أمام قبر من قبور أهلها . لحظ الرجل ذلك الشاب الغريب الدخيل على محاضرته. وكنت أغطى رأسى ببيريه من بلاد الباسكيين . فبدأ حديثه قائلا : « نحن هنا ندرس حياة أعرق الشعوب حضارة . . . (ثم يحدجنى بنظرة المتبرم بى) . . . لسنا مجرد عابرى سبيل . . . نحن هنا نتفحص ونعود إلى كتبنا لنذاكر . . . (نظرات كأنها تقول : سامع يا بارد ؟) . . . لسنا من أولئك الأشخاص السطحيين الذين يمرون بهذه الآثار العظيمة ، وكأنهم يشاهدون فترينات بوند ستريت . . . (فهل فهمت يا بنى آدم ؟) . . . »

ولما يئس الرجل قطعاً من صرفى عن جماعة الدارسين ، بما كان يحسبه « صنعة لطافة » ، بدأ محاضرته التى استمعت إليها وكلى آذان ؛ ولولا البرود الإنجليزى ، وما أعرفه من طبع هؤلاء الناس ، ولومهم لمن لا يكبت عواطفه ، لقصدت الرجل بعد المحاضرة لأؤكد له بأنه لن يجد بين تلاميذه من كان أشد إحساساً . وأعظم حماساً لكل كلمة قالها . . . من ذلك الشاب الدخيل الغريب !

فلنستأنف رحلتنا . ونغادر المتحف المصرى لنذهب إلى سقارة، أعجوبة التاريخ المصرى كله . خرجت من رأس عبقرى واحد حفظ لنا التاريخ اسمه : إمحوتب . ربما كان مهندساً أو كاتباً أو طبيباً أو فناناً . فالمصريون القدماء يذكرون اسمه محاطا بهالة من الإكبار والإجلال ، حتى لقد رفعوه إلى مرتبة الآلهة فى عهد متأخر . هذا هو الرجل الذى يقرن اسمه بروائع سقارة التى تحيط بهرم زوسر ! فلندخل حرم المعبد ، ولنتأمل أعمدة ذلك البهو الأبيض . أتعرف أنها أول أعمدة أقيمت فى تاريخ العمارة ؟ ومنها العمد المضلعة ، وإن لم تستقل بعد عن حوائطها . تأمل نحت قطاعاتها الحجرية ، ودقة صنعها ، ورقة إحساس صانعها . لقد حسب الأثرى إنجلباك دقة نحت عمود من الصوان الأحمر من الأسرة الخامسة ، فوجد أن الخطأ فى كل قطاع سمكه ٢٦٠ سنتيمترا ، يتدرج بين قطاعات قطرها من ٩٢,٢ سنتيمتراً إلى ٧٩,٨ سنتيمتراً ، لا يتعدى ثمان ملليمترات . وقدر فلندرزپترى الخطأ فى ناوس من الجرانيت لسيزوستريس (سنوسرت) الثانى ، فلم يكتشف أكثر من ثمن ملليمتر فى أسطحه الجانبية ، وهى صقيلة كأنها لوح زجاج مصنفر .

ولننزل إلى مقابر تى ، وفتاح — حوتب ، وميريروكا . وهناك ستعرف أن حياة أسلافك فى الأسرات القديمة هى حياتك الحاضرة . هنا ، لأول مرة وربما لآخر مرة ، ستحس بأنك حقاً حفيد أولئك الفلاحين والصيادين والصناع ، وستقاسمهم كفاحهم ، وتشاركهم فى مشاحناتهم ، وتتعرف على أسماك نيلك ، وتسمع خوار ثيرانك ، ووشوشة هيشك وقصباك . سيعيد فنان الحفر بالبارز — باريليف — أمام عينيك حياة الشعب فى الدولة القديمة . ويقول الأثريون إن مصريى الأسرة الخامسة قد تنبهوا إلى نقش مقابرهم لا للزينة ، ولكن للغرض نفسه الذى عمل له المثال فى الأسرات السابقة ، أى لتتقمص « كاوات » الشعب صور نشاطه فى الحقل والمصنع ، وعلى ضفاف النهر ، وفوق صفحة مستنقعات الدلتا كى ينعم المتوفى بكل ما حوله من مباهج الحياة . فجاء الفنانون يحفرون على الجدران صوراً أمينة لحياة الشعب المصرى فى جده أكثر من لهوه . . . وسيجىء فنان الدولة الحديثة ليصور المصريين فى لهوهم وجدهم وعبادتهم . لا أعرف كيف أصف لك هذه المحفورات البارزة وتنسيقها فى صفوف متراصة — لأن الفنان المصرى لم يكتشف المنظور ولا عنى

بإثباته — والكتابات الهيروغليفية تملأ فراغات الصورة بطريقة الموازنة والمقابلة ، بحيث تحس وأنت ترى هذه الصفوف الرتيبة كأنك تسمع موسيقى بعينيك ، موسيقى ذات إيقاع هادئ ، وتكاد تسمع أصوات أولئك الصناع والزراع والمراكبية والصيادين سكون صحراء منف .

ولست أنسى أنني دخلت هذه المصاطب آخر مرة مع بعثة ثقافية أجنبية ، من ضمن أعضائها موسيقى محترف . ما كان أشد عجبي إذ رأيت الشاب ينتحى منا مكانًا قصيًا ، ويخرج من جيبه دفتره الموسيقى ، ليدون ألحانًا أوحت بها إليه صور المقبرة . وكان الرجل من تلك الشعوب الجديدة التي لا تعنى بتعلم اللغات الأجنبية ، فاستحييت أن ألجأ إلى المترجم لأتبادل مع الموسيقى حديثًا يتصل بمصادر الوحى الفنى . المهم أن الرجل سمع بعض الموسيقى التى كنت أسمعها بعيونى منذ فجر شبابى !

وما بنا حاجة إلى الانتقال من منف إلى طيبة لنطمئن إلى أن هناك تجوزاً كثيراً فيما يقال عن جمود الحياة الفنية فى مصر القديمة . وإنما يغتر الناس بالشبه العام بين مظاهر الحضارة المصرية ، وهو الشبه الذى نراه بين نماذج كل مدرسة فنية : فى الفن الكلاسيكى اليونانى . أو فى فن الرينسانس . أو الفن الهندى أو الفارسى . إنها القرابة العائلية ليس غير . فما لم تتفحص تفاصيل فن من الفنون . وتعرف مؤثراته ، وشيئًا مما وراءه من تاريخ . تظل نظرتك إليه نظرة سطحية . ترى فيها جميع الصينيين واليابانيين يشبه بعضهم بعضًا . . . كأنهم التوائم !

أما ترى الفارق العظيم بين معبد أبى الهول ومعبد زوسر ؟ ألا تلاحظ تطور بناء الأهرامات خطوة خطوة ؟ ألم يعمل المثال المصرى فى الخشب والصوان والديوريت وحجر الجير ، وفى كل مرة تملى عليه المادة خطوط تطوره الفنى ؟ إذا امتدت أمامه صفحة حجر جيرى متماسك . رسم عليها . ثم أعمل فيها إزميله على طريقة الحفر البارز . وإذا لم تطاوعه مادة الجدار للحفر . طلاها بطبقة من الجير ، أو من ملاط الطين المخلوط بالقش . وصور عليها بريشته وألوانه ، كما فعل فى صور إوز ميدوم من أعمال الدولة القديمة ، وفى جميع مقابر وادى طيبة فى الأسرات الأولى للدولة الحديثة .

ما هو الحرم بضخامته الشامخة إلا تاج مسلة مكبر إلى أضعاف أضعافه ، كما عرفت المسلات فيما بعد ، رمز عبادة آتوم – رع ؟ أو أنه مصطبة فوق مصطبة ، حتى يرتفع هرماً مدرجاً ، ثم هرماً هندسياً ؟

إننا نتابع خطوط التطور حتى فى ذلك القليل الباقى من آثار الدولة القديمة . أين آثار مدينة إيون بعين شمس ، بل أين مدينة منف ذاتها ومعبد فتاح بها ؟ وهل هذا الذى نرى هو كل ما بقى من آثار دهشور وأبو صير وميت رهينة وسقارة ؟

كلا ! لم يكن الفن المصرى جامداً ذلك الجمود المزعوم .

جامداً ؟ ألا ليته ثبت طوال هذه القرون ! فما إن تنتصف الألف الثانية بعد الأسرة السادسة ، حتى ينهار كل شيء ، وتتقلص الأهرامات ، وفى ظلالها المنكمشة تنحل أربطة الحكم المفرد المتماسك ، وتنهار الملكية القديمة . فهل كانت ثورة هبت من أسفل لا تبقى ولا تذر ، حتى اختفت فى أتونها ثلاث أسرات ملكية أو أربع؟ أو أن هناك تسرباً أسيوياً، أو غزواً شبيهاً بغزو الهكسوس فيما بعد؟ ما معنى أن تضمر أهرام الملوك ، وتنفسح جنبات مصاطب الوجهاء والأعيان ؟

جاء فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى عصر غامض يعرف بالفترة المتوسطة الأولى ، يعتقد المؤرخون أنه كان عهد ثورات واضطرابات عنيفة وتسرب أجنبى . ولا تنس أن مصر مجموعة من الكور وحدها إيمان أهلها بأن الفرعون ابن إله الخير والفيضان والشمس ، بل وحدتها آلهة عظام ، وأنصاف آلهة ، قبل أن يوحدها أول ملوك الأسرة الأولى . فإذا اعتقد كبار الموظفين وحكام الأقاليم أن الأهرامات والمعابد أنشئت على أكتافهم ، وبفضل سلطانهم على الشعب ، وإذا استطال حكم الملك پيپى إلى نحو مائة عام ، ألا تتوقع أن يدرك أولئك الرؤساء بأن حقهم هضمه الفرعون فينتقضوا عليه ؟ تأمل حين عاد ملوك الأسرات الأولى فى الدولة الحديثة من مغامراتهم الحربية ، وتوسعهم الإمبراطورى ، يغدقون على معبد آمون وكهنة آمون بطيبة أسلاب فتوحاتهم . أفلا تتوقع ، عند ما تتقاعس همة الزعامسة ، أن يزحزحهم كهنة آمون عن عرشهم ؟ وهذا ما حدث فعلا عندما تولى كبير الكهنة، هيريهور ، عرش مصر فى نهاية الأسرة العشرين .

أما فى المرة الأولى ، بعد استطالة حكم پيپى ، فإن الذين تولوا الحكم كانوا

مجموعة من الأشراف والأعيان ، كل يستقل بكورته أو مجموع كوره . ومصر لا تعيش هانئة دون التعاون الوثيق بين أجزائها ، ولذلك راحت البلاد تتخبط أجيالا فى المجهول المظلم الذى كان يعرف فى وقت ما باسم عهد الإقطاع ، ويفضل المؤرخون الآن تسميته بالفترة المتوسطة الأولى ، تمييزاً لها عن الفترة المتوسطة الثانية ، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة ، والتى فيها نزل البلاء الهكسوسى بمصر .

والفترتان ستزيحان الغشاوة عن أعين المصريين المؤمنين إلى آخر حدود الإيمان بالبقاء والخلود ، المطمئنين إلى منعة حدودهم الصحراوية والبحرية . الفترة الأولى أطاحت بفكرة أن هناك وسائل مادية تحقق الخاود ؛ والغزو الهكسوسى أطاح بفكرة أمة لا تغزى ولا تغلب . استمع إلى أثر الفترة الأولى فى نفس الشاعر المغنى :

« لقد ترامى إلى ما جرى على أسلافى عندما تخربت بيوتهم ، وامحت أسواقهم ، وكأن لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئًا مذكوراً .

« لا تفكر بما بعد هذى الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك . حيث تغرب الشمس .

« أى جدوى لما ينثره على الأرض كهان يلبسون جلد النمر ، أو لما يقدمون من قرابين ؟

« افرح بيومك المشرق . وتمتع بما توحى به إليك نفسك . فليس من دأب القدر أن يكرر أيامه .

« وكل ما هو آت آت . ولم نر من الذاهبين إلى هناك من عاد » .

لكأنى به قس بن ساعدة القائل :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

يقول هيرودوتس ، وقد زار مصر فى أواخر سنى حضارتها وهى ترزح تحت النير الفارسى ، بأن رجالا يدورون فى المآدب على المدعوين يحثونهم على التمتع

بمباهج الحياة الدنيا، ويعرضون لعيونهم دمى صغيرة تمثل ميتًا مدرجًا فى أكفانه . وقد نبهنى ذلك إلى عادة متبعة فى الريف ، وهى ترك خشبة الميت مكشوفة فى العراء إلى جوار المسجد أو الزاوية من ناحية الميضة . أذلك لعدم وجود مكان خاص ، أم ليعتبر الناس ويذكروا أنهم كلهم ، وبعد عمر طويل أو قصير ، راحلون إلى هناك فوق تلك الآلة الحدباء ؟

أما الفترة الثانية ، فطالع ما تركته من أثر فى نفس المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى ، الذى ألف تاريخ أسلافه باللغة اليونانية ، أيام بطليموس الثانى ، وسماه « إجيبسياكا أبومنماتا » ، أى « مذكرات مصرية » :

« وفى حكم الملك ديدوميس استشاطت الآلهة غضبًا علينا لسبب لا أعرفه ، فَرَزَأَتْنَا دون سابق إنذار ، بفئة من الناس لا نعرف لهم جنسًا ، وتجرأ على اقتحام وطننا قوم جاءوا من الشرق ، فامتلكوا البلاد عنوة دون ممانعة منا أو قتال ، وقبضوا على الزعماء ، وأحرقوا المدن دون رحمة ، وقوضوا معابد الآلهة ، وأذلوا أهل البلاد ، وذبحوا الرجال وسبوا النساء والأطفال .

« ثم أقاموا على مصر ملكًا اسمه صاليتس ، سكن منف ، وفرض الجزية على إقليمى الصعيد والوجه البحرى ، ووضع الحاميات العسكرية حيث راق له ، وحصن القطاع الشرقى بخاصة ، توقعًا أن يتقوى الأشوريون يومًا فيطمعوا فى المملكة ويغيروا عليها » .

ومنف عاصمة الدولة القديمة لن يعود إليها مجدها ، وإن ظلت تحتفظ بمركزها كمدينة المجد القديم ، حتى جارت عليها العوادى ، وتاه الخاف فى معرفة مكانها زمانًا طويلا . ولو أن الطبيب البغدادى عبد اللطيف وقف بآثارها وتحدث عن عزها مليًّا ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى . وستظل مثل الدولة القديمة نصب عين المصريين القدماء حتى آخر أيامهم .

وحان الوقت لقرية حقيرة بالصعيد أن يرتفع نجمها فى فلك التاريخ ، هى طيبة . ولن يكون ذلك قبل أن يقوم أمراء الصعيد بالقضاء على فوضى الفترة الأولى ، ويؤسس أحدهم : منتوحوتب — نبحـنب — رع أسرة جديدة ، ويجىء سنوسرت الأول ليكبح جماح الأمراء ، ثم يمهد من جاء بعده من المنتوحوتبيين الطريق للأسرة الثانية عشرة ، أسرة أمينمحعت ؛ وستختار تلك الأسرة عاصمة عند مدخل الفيوم فى

هرقليوبوليس ، غير المعروف مكانها الآن ، وإن قيل بأنها على مقربة من لشت ، أو بين لشت ودهشور .

والأسرة الثانية عشرة هى أمجد أسرات السلام بعد الدولة القديمة فى التاريخ المصرى ؛ هى أسرة البناء والإنشاء ، وملوكها طاردوا الأسيويين أمامهم حتى سورية، وتوثقت العلاقات التجارية بين ملوك مصر وأمراء ببلوس (جبيل) كما يظهر ذلك فى قصة « سنوهى » ، ولو أننا لا نعرف على اليقين إن كانت هذه مجرد قصة ، أو أنها مذكرات من واقع حياة رجل البلاط سنوهى .

وفى أبيدوس لوحة تشير إلى حرب فى آسيا ، أيام الملك سنوسرت الثالث ، وهو البطل الذى يتحدث عنه هيرودتس فيما يشبه الأساطير ، تحت اسم سيزوستريس إنما الواضح أن ملوك الأسرة الثانية عشرة أعادوا لمصر مقامها فى النوبة ، حيث يذكرنا نص لأمينمحعت الأول بانتصاره فى كوروسكو على شعب « واوات » . وللأسرة آثار عند الشلال الثانى . وأعيد فتح طريق قفط — وادى الحمامات حيث مناجم الذهب ، وقد أمن سنوسرت البلاد ، وأقام التحصينات فى الجنوب ، وأوقف زحف السود على مصر ، إلا من دخل منهم بتجارة الجنوب .

ولكن أعظم ما تذكر به ملوك الأسرة هى مشروعات الرى الكبيرة ، وما قاموا به فى منخفض الفيوم ليكون ميزاناً لمياه الفيضان ، تختزن فيه المياه العالية وتطلق منه لرى الشراقى ، تبعاً لحاجة البلاد ، وتمشياً مع حالة الفيضان .

ولقد اختفت معظم أعمال جبابرة الدولة الوسطى ، لولا أن هيرودتس وديودورس وإسطرابون وبلينيوس تحدثوا عنها فيما يكاد يدرجها فى عداد الأساطير . ولم يكن معقولا أن يجمع كل هؤلاء على خرافات ، وبعضهم رأى بعينيه قصر اللابرانت عند مدخل الفيوم . وقد عثر الأثريون على بقايا منشآت خزان المياه الكبير منخفض الفيوم ، وتتبعوا أسماء ذلك الخزان فكان « هونت » ، أى « المياه التى تفيض » و «مېرى» أى البحيرة و «فاوم» أى البحر . ومن كل هذا خرجت أسماء الفيوم ، وموريس — وهو الاسم القديم لبحيرة قارون حسب طبوغرافيتها القديمة — أما القصر فكان معبدا،وبه مدفن لأمينمحمعت الثالث . وقد عرف فى اللغة المصرية باسم « لوبى — رو — هونت » أى « المعبد عند مدخل المياه التى تفيض » ، وهو

الاسم الذى حرفه اليونان إلى ما يقرب من قصر مينوس بجزيرة كريت المسمى « لابيرانت » .

وكان « قصر » لابيرانت يقع إلى الشرق من البحيرة ، على مرتفع من الأرض فى مواجهة مدينة التمساح (الفيوم) . وقامت البعثة البروسية ، برئاسة ريشارد لپسيوس ، بقياس أبعاد ما تبقى من آثاره ، فكانت مائتى متر فى عرض ١٦٠ متراً . وقد بقى قائماً ، رآه فى القرن الخامس قبل الميلاد أولئك الزوار من الشمال ، وكان من أسباب إعجابهم بحضارة المصريين ، قال هيرودوتس :

« رأيت اللابيرانت ، فكان مرآه يفوق كل ما سمعته عنه ؛ ولو أننا جمعنا كل ما بناه الإغريق لما تطاول ، عملا وتكاليفاً ، إلى اللابيرانت . هذا مع أن معبد إفسوس عظيم ، هو ومعبد ساموس . ولقد رأيت الأهرامات فكانت هى أيضاً أعظم من شهرتها ، وواحد منها يساوى أعظم منشآت اليونان ؛ فإذا باللابيرانت يفوق فى نظرى الأهرامات ذاتها . أما خزان موريس فهو عجيبة تفوق اللابيرانت نفسه » .

وبرغم تلك الشوامخ ، وما تحدث به المصريون عنها إلى الرحالة الإغريق ، فقد اختفى اسم أمينمحعت . فن قائل إن منشئها هو بساماتيك أو موريس — وقد عرفنا مصدر الاسم من « ميرى » أى البحيرة — ومن قائل إنه منيتس أو إمنديس أو غيرهم ، وكلها أسماء ملوك مجهولين لا أثر لها فى قوائم مانيتون ، ولا فى غيرها . ولم يكتشف اسم منشئها الحقيقى ، أمينمحعت الثالث ، فى خرابات آثاره إلا فى القرن الماضى .

ولا تعليل لاختفاء أعظم آثار الدولة الوسطى ، بل أعظم آثار الشعب المصرى القديم ، إلا فيما نكبت به البلاد من أولئك البرابرة الأسيويين الذين نزلوا بمصر نقمة . ولما طهر ملوك الدولة الحديثة البلاد منهم ، أخذوا فى حمل أطلال الدولة الوسطى ، ليستعينوا بها على إنشاء معابدهم . وقد اكتشف الأثريون فى بقايا صرح للملك أمينوفيس الثالث بالكرنك ، حجارة معبد صغير من الحجر الجيرى ، أنشأه الملك سنوسرت الأول مقاماً لتمثال آمون وسفينه المقدس . واستطاع المعمارى مسيو هنرى شفرييه ، بعد جهود مضنية ، أن يعيد بناء ذلك المعبد فى ساحة الكرنك . وكذلك ظهرت تحت أنقاض قرية مدامود بقايا من مبان للملك سنوسرت الثالث .

ومسلة المطرية من آثار سنوسرت الأول أو « أوسرت — سن » ، كما كان يكتب اسمه فى القرن الماضى ، وهى أقدم المسلات المعروفة .

وكل هذا قليل بالنسبة لما اختفى من آثار دولة الأمينمحعتيين والسنوسرتيين فى تانيس وهليوبوليس والفيوم وقفط وطيبة ، ولا تعوضنا إلا قليلا عن زوال معبد أمينمحعت الثالث ، الذى عرفه اليونان باسم قصر اللابيرانت .

بل إن أسرة المنتوحوتبيين كان من حقها على التاريخ أن يبقى معبد ملكها بالدير البحرى ، لا لأن منتوحوتب قد وحد الإقليمين ، وافتتح العهد الذهبى الثانى للحضارة المصرية فحسب ، بل لأن أسلوب بناء ذلك المعبد كان شيئاً جديداً فى العمارة ، تأثرته الملكة حتشبسوت عندما أقامت معبدها فى بطن جبل طيبة ، إلى جوار معبد سلفها الكبير .

وكأن هذه الدولة الوسطى محكوم على آثارها بالفناء ! فقد حفظت الأجيال منها مجموعة قبور فى سفح الجبل عند قرية بنى حسن ، أمام المنيا ، وفى البرشة ومير وأسيوط ، وبالقرب من أسوان . وتفطر قلبى أسى وأنا أزور مقابر بنى حسن ذات يوم فى مطالع عام ١٩٥٥ ؛ فإذا هذه الروائع من فن الدولة الوسطى مهملة ، يسطو عليها ما هو أقوى من اللصوص . . . يمحوها الزمن محواً من فوق جدران المغارات ذات العمد السابقة على الطراز الدوريكى ، والعمد ذات التيجان اللوتسية . وهى قبور أمراء الكور فى الدولة الوسطى ، صورة من فن الريف المصرى بعيداً عن العاصمة القديمة منف ، والعاصمة الجديدة هرقليوبوليس ؛ تصور ، كالعادة ، حياة الزرع والضرع ، ولكنها تصور أيضاً شيئاً جديداً على الحياة المصرية . وهو إعداد الشباب بكل أنواع التمرينات الرياضية والعسكرية للقيام بواجب الدفاع عن الوطن . تفطر قلبى لأن تصاوير بنى حسن ستختفى حتماً فى بضع سنوات إن لم نتداركها . ولأن تصاوير مقابر سقارة مآلها هى أيضاً إلى الزوال ، وبخاصة الواقع منها فى ممرات المداخل ، ولأن تصاوير الدير البحرى مآلها هى أيضا أن تمحى . ولا أعرف على من نلقى اللوم يوم يعلن فى العالم محو صور بنى حسن ، أو بعض صور سقارة أو الدير البحرى ، كما لم أعرف إلى من وجهنا اللوم عندما انهار صرح من صروح الكرنك فى أوائل عام ١٩٥٩ ، وتفركت صور مقبرة نفرتارى !

وماذا يفيد اللوم بعد أن خرج من مصر الكثير من تماثيل هذه الدولة الوسطى ، وهى كنوز غالية تحتفظ بها متاحف العالم المشهورة . فمن المسئول عن خروج رأس للملك سنوسرت الثالث من زجاج الأبسيديان الأسود ، وتمثاله فى شكل أسد رابض من حجر الديوريت . وتمثال الأميرة سنوى . أميرة أسيوط ، وكان زوجها حاكماً على النوبة من قبل سنوسرت الأول ؟

وبالمتحف المصرى مجموعة تماثيل وصور حائطية لملوك الأسرة الثانية عشرة، أرجو أن يخرج بعضها إلى « متحف المختارات » يوماً . حتى لا تضيع وسط المخزن العام الذى ضاق بسكانه العظماء . فهى صور ناطقة بالتحول الذى انتقل بالمصرى من عهد الطمأنينة والسلام والمنعة، إلى عهد عرفوا فيه ثورات لا تبقى ولا تذر ، وذاقوا مرارة تسرب الأسيويين البرابرة إلى وادى الحضارة .

وقاعة الحلى بالمتحف المصرى احتفظت لنا بأجمل ما أنتج صاغة الجواهر فى الدولة الوسطى. تلك العقود والخواتم والغوايش والتيجان والصدريات الملكية لأمينمحعت الثالث وسنوسرت الثالث . تلك النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور ، ليست مجرد ذهب وزمرد وياقوت ولازورد ، ليست مجرد صور للبذخ والثراء أغدقه المصريون على موميات أميراتهم وملوكهم . وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة ، تعنى بالجمال فى الأثاث واللباس والصحاف والأوانى، من أية مادة صنعت ؛ حتى لنعجب اليوم بتلك العقود « الفالصو » التى يقتنيها السياح ، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز وزجاج وقطع الميناء . لا لشىء إلا لأنها تقلد . وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى العجيب .

* * *

وفى الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الأسرة العظيمة ، الذى دام أكثر من قرنين ، أخذ يغشى مصر ظلام تاريخى وإبهام لم يكشف عنه بعد ، والغالب أن يكون الهمج الأسيويون قد عادوا إلى التسرب فى شرق الدلتا ، أو تكون موجات الهجرة قد تحركت من أواسط آسيا فاكتسحت الشرق الأدنى ، ودفعت أمامها ذلك الشعب المجهول الأصل والنسب . فنزل بمصر ، وقضى على استقلالها وحضارتها . هى فترة مجهولة ، لأن حكم الهكسوس فى المائة أو المائتى عام التى أناخ فيها بكلكله

على مصر ، لم يترك لنا من آثاره . . . إلا مجموعات من الجعارين !

وهذا الغزو الماحق أزاح عن عيون المصريين نهائياً غشاوة الاطمئنان داخل الحدود، فلم تفد بشيء حصون الأسرة الثانية عشرة التي تذكرنا بمآل خط ماجينو الفرنسي ، عندما تحول إلى مصيدة هائلة لحماته ، خرجوا منها إلى معسكرات الاعتقال الألمانية مباشرة !

تعلم المصريون ، في الألف الثانية قبل الميلاد ، أنه غير كاف أن تطرد الدخيل إلى خارج بلادك ، وتقيم وراء حصون حدودك ؛ بل يجب أن تطاردهم إلى ما وراء تلك الحدود ، حتى تطمئن إلى البلاد الواقعة وراء حدودك ، سواء باستعمارها أو بضمان صداقتها وحيادها .

يفسر لك، هذا الدولة الحديثة كلها ، أو الإمبراطورية المصرية العظمى ، ضعفاً وقوة . فضعفها نشأ عن قوتها ؛ تعتدى على جيرانها لتؤمن حدودها ، فتضيف إلى الخطر الذي يهدد نظامها في الداخل ، كلما ضعفت أداة الحكم ، خطراً جديداً ، وهو تحفز الدول المحكومة ، أو الدول التي تخضع بطريقة أو بأخرى ، وتربصها بمصر ، وتحركها للانفصال عن الدولة المسيطرة ، بل والانقضاض عليها ، كلما أحست بتخلخل الضغط واضطراب الملك . سيحدث ذلك كلما قامت في الشرق الأدنى دولة جديدة ، حتى يقضى القضاء الأخير على استقلال مصر الفرعونية ، تحت سنابك الجحافل الفارسية ، ثم تحت أقدام كتائب المقدونيين المتراصة ، التي اقتحمت كل شيء أمامها منذ خرجت من بلادها ، بقيادة الإسكندر ، حتى بلغت حدود الهند .

وما أكثر ما خلفت لنا الدولة الحديثة من آثار ، وآثار عظيمة ، ولكنها لا تقارن في قيمتها الفنية، ولا في أصالتها ، بآثار الدولة الوسطى ، ومن أولى ، بآثار الأسرات القديمة . إنني أستجمع في خيالي كل ما تركته آثار الدولة الحديثة ، سواء ما رأيته منها على طول الوادي ، أو ما تزدحم به قاعات المتحف المصري ، ومتاحف العالم الخارجي ، فأحس حيالها بشيء من القلق ، لا تفسير له عندي إلا في أن أصحاب هذه الآثار يتكالبون على الدنيا، ويحاولون إقناعك شخصياً بأنهم خير أمة أخرجت للناس . وترتفع في هذه الدولة جعجعة الملوك ، وتصطخب دعاويهم الطويلة ،

ويسردون عليك حكايات هى إلى الفشر أقرب ، من أمثال حكاية رمسيس الثانى الذى وقف وحده أمام جيوش الحيتا كلها ، فى العام الخامس من حكمه ، إبان موقعة قادش، وهى القصة التى تكررها معابد الرمسيوم والأقصر وأبو سمبل، وغيرها ، كأنها بلاغات رسمية ، ويترنم بها شاعر العهد ، المدعو بنتاؤر ، فإذا ببردية فى متحف تورينو تسرد الحكاية بتفاصيلها ، ووقفة الملك وحيداً أمام أعدائه يدعو إلهه آمون ، فيهب إلى نجدته ، ويرتد الأعداء فى هرج ومرج من عرباتهم الحربية تتحطم ، ويتساقطون غرقى فى نهر العاصى ... ولكن هذه البردية تصف الحادث على أنه وقع للملك ... تحوتمس الثالث ، وهو الملك الفاتح، فى الأسرة السابقة على أسرة الرعامسة، ولا يبعد أن تكون أمثال هذه الحكايات أكليشيهات شعرية تعار لمن يستعير .

ورمسيس الثانى ربما كان أصعب الشخصيات تحليلا لدى المؤرخ ، ومؤرخ الفنون بالذات . لقد تولى العرش شابا ، ومات بعد أن حكم سبعة وستين عاماً ، وحكم على إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأنشأ من المبانى ما لا يكاد يدخل تحت حصر ، وبعضها من أعظم ما أبقى التاريخ عليه من آثار الأمم الماضية . ماذا دهى ذلك المتكالب على الدنيا والآخرة ، المسعور بالسطو على آثار غيره ، ومنها بعض آثار ملوك الدولة القديمة ؟

كنت أطالع ، بمحض الصدفة ، وأنا أكتب هذا الفصل ، «سفريشوع» [يوشع] من أسفار « العهد القديم » — أتذكر قصيدة شوقى : أيا شمس يوشع خبرينا إلخ ؟ — وهو سفر من أكثر أسفار التوراة إثارة للملل والضجر ، فكله طنطنة وشنشنة تشبه ما عرفته من أخازم الأسرة التاسعة عشرة . وإذا كان رب الجيوش ، « الأدوناى » الذى وعد بنى إسرائيل بامتلاك الأرض وما عليها، هو الذى يأمر يوشع بأن ينفخ فى الصور فتندك حصون أريحا ، وهو الذى يستجيب ليوشع فيوقف له الشمس فى مسارها ، فإن رب الجيوش فى مصر ، المدعو آمون ، يتكفل بتحقيق الكثير مما يشبه تلك الأساطير العبرانية .

إنما الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هى أن الدولة الحديثة — بإهمال أمر الفتوة الفردية لملوكها التى تذكرنا بفزورة المشط : « قد الكف ، ويقتل مابة وألف ! » — هى قمة من قمم الحضارة المصرية فى كل ما عرف عنها، بل هى اجتماع تيارات

العصور السالفة فى مجرى حضارى هائل ــ أفكر به دائماً كلما اقتربت من شاطئ النيل فى عنفوان فيضانه ــ حتى ولو اتسمت أعمالها الفنية بالقلق . كما فى عهد التحوتمسيين ، أو بالمرض والعقد النفسية كما فى عهد أخناتون ، أو بالعنجهية والطنطنة كما فى عهد رمسيس الثانى . ولنا أن نعتز بالعاصمة المصرية فى زمانها ، إذ كانت طيبة حاضرة العالم المعروف فى عهد الدولة الحديثة ، كما كانت الإسكندرية فى عهد البطالسة ، وكما كانت القاهرة ، كبرى العواصم الإسلامية فى القرون الوسطى ، وفى العصر الحاضر .

كادت طيبة ، عاصمة آمون ، تجعل من إلهها رب العالم ، وإننا لنسمع صدى طيبة فى أشعار هوميروس ، وهو يقول فى الإلياذة : « طيبة حيث القصور المنيفة تنضم على الكنوز ، وأبوابها المائة يخرج من كل منها مائتا فارس مغوار مدجج بالسلاح » .

طيبة أعادت مجد منف إلى مائة ضعف وأكثر . وستصور قبورها حياة المصريين ، فإذا هى حياة متاع وبذخ ورقص ومآدب . لم نعهدها كثيرا فى قبور الدولة القديمة ، فبيربوكا ، من الأسرة السادسة ، الجالس إلى مائدته ، هو التقشف بعينه إذا قيس ذلك بالحفلات الراقصة فى الدولة الحديثة ، والغوانى تتولى الوصيفات زينتهن ، وعازف الصنج الأعمى ينشد قصائده ، وفتيات يعزفن على آلات وترية ، أو ينفخن فى مزامير رقيقة مثل قدودهن. وذلك إلى جانب صور الحياة الجادة للزارع والصانع والصياد كما فى عهد الدولة القديمة . إنما الجديد حقا هو تصوير حياة الملاحم والوقائع الحربية تتساقط فيها الرءوس ، وتتطاير الأكف ، وتدك المعاقل ، وذلك فى كل شبر على جدران المعابد وصروحها ، لا تحتله صور الأسرى الأسيويين والجنوبيين ، أو تشغله لحى الأغراب وأنوفهم المعقوفة وشعرهم الأجعد . ولنتصور حياة طيبة عاصمة العالم القديم إذ ذاك ، وقد تزاحمت فى طرقاتها وساحاتها ومغانيها ومعابدها أجناس وأخلاط من الشعوب ، تتدلى ألسنتها عجبا ، ويرتد منها البصر وهو حسير ، أمام صروح الكرنك والأقصر ، ومعبد سيتى بالقرنه ، والرمسيوم ، وقصر أمينوفيس الثالث ، ثم معبده الجنائزى ، وعلى أبوابه قام تمثالان هائلان ، عرفا فيما بعد باسم « جبارى ممنون » ، وكانت شمس الصباح وهى تدفئ صخورهما ، فيتبخر عنهما ندى الليل ، تحدث ذبذبات عجيبة ، ينبعث عنها من أحد

التمثالين صوت كالصفير أو الرنين .

ولكى تعرف ضآلة ما بقى من تلك الآثار بالنسبة لما كانت عليه ، اذكر فى عودتك من مدينة هابو أن قصر أمينوفيس الثالث كان قائماً قرب معبد رمسيس الثالث . إلى الجنوب الغربى منه ، وأن معبده الجنائزى كان أمامه . ممتداً إلى الشرق حتى تمثالى أمينوفيس الثالث (جبارى ممنون) . ثم تأمل تمثالى الملك الآن ، مشوهين تشويهاً كاملا ، وقائمين وحدهما وسط المزارع الواسعة كأنهما خيالا مقاتة أقامهما أبناء العملاق عوج بن عنق .

ويقابل صور هذه الحياة الصاخبة فى مقابر الأشراف والوجهاء بقرية الشيخ عبد القرنة ، عناية سكان بيبان الملوك بالحياة الآخرة ، وحرصهم على أن يقفوا بمحكمة أوزيريس وتوت وقفة البرآء طاهرى الذيل . ألم يملأوا خزائن آلهتهم بخيرات الدنيا ؟ ألا تستحى عيون أولئك الأرباب وقد أطعمت أفواهها ذهباً وجواهر . وأقيمت لها الهياكل والنصب والمعابد ، من ضفاف الفرات حتى ما فوق الشلال الرابع ؟

وكأن التمسك بالدين فى الدولة الحديثة لم يعد هو أيضاً ذلك الإحساس الصافى الصادق ، النابع من روح شعب متدين دائماً ؛ وكأنى به وقد أصيب بحمى الإعلان والدعاية ، والتوكيد بأن الملوك كانوا من الصلاح المتقين .

لست أنسى ذلك الصديق الكاتب المبدع محمود طاهر لاشين ، ونحن نزور المتحف المصرى ، أيام أرخى شبل إسماعيل لحيته ، وعرض على الأنظار سبحته ، وإذا بطاهر يشير إلى تمثال ملك لست أذكره الآن ، وقد تدلت من ذقنه لحية مستعارة ، ويقول : ما من جديد تحت الشمس ! ألا ترى أن هؤلاء أيضاً كانوا يضحكون بذقونهم على ذقن شعبهم ؟

وتلفتنا حولنا . . . ولكن بعد أن أطلق صديقى دعابته الصادقة فردد صداها بهو المتحف الكبير ، وأتبعها بضحكاته المعهودة التى تمثل صراحة طاهر لاشين وصدقه أحسن تمثيل .

ومهما كان من أمر فتوحات تحوتمس ، وهى ضرورة قومية ، وكان الرجل يجمع إلى عبقرية السياسى قدرات رجل الحرب، فإن طبيعتى المصرية لا تميل إلى تلك

المغامرات البعيدة وراء الحدود ، إذ أنها ستأتى إلى بلاط فرعون بالأغراب من أمراء ينشأون على التقاليد المصرية . وأميرات أجنبيات يثرن فى حريم الفرعون ما المرأة أعرف به ، وستأتى بالأجناد المرتزقة من كل حوب . يلتمسون العيش أينما كان ، وبالتجار والمغامرين يهربون إلى داخل البلاد سمومهم الخلقية . طبيعتى المصرية المحافظة تخشى ما سيحل بالشعب المصرى الأصيل عندما يختلط بالغرباء اختلاطاً يتعدى المدى القديم ، وقد عاش تاريخه بمنأى عنهم . وكأنه أقام «كردون» صحياً بينه وبينهم !

وعندى أن فن العمارنة الجذاب يحمل جرثومة الانحلال من أثر هذا الاختلاط ، فقد يتوه أخناتون فى بوادى فلسفته الدينية . ويدور فى أبهاء قصره يتغنى بأشعاره ، متغزلا فى ربه القرص ، أو فوق درج معبده المفتوح إلى السماء . ألم يتح الفرصة لما يجىء به الغرباء من أفكار فى الفن والأدب ، يدلسون بها على المصريين . تحت ستار تمجيد الثورة وصاحبها ؟

يخيل إلى أننى تماديت حتى تورطت فى الخطأ المعروف بالحكم الجزاف على هذه الدولة الحديثة . فكيف أنسى آثار سيتى الأول فى أبيدوس وطيبة ، وبهو أمينوفيس الثالث بالأقصر ، وبعض آثار رمسيس الثانى فى شبابه ، كيف نسيت كل ما نشاهده فى بيبان الملوك والملكات ، ومقابر عبد القرنة ، ومعابد الرمسيوم وهابو والدير البحرى ، من قرائن على قوة الخلق فى حياة هذا الشعب الفنان ، وتمسكه بمثله العليا فى الجمال والخير ؟

ورمسيس الثانى هو اللغز الذى لا أفهمه ، وهو المسئول عن جموح رأيى . فكلما قارنت بين البهو الخاص به فى معبد أبيدوس — وأبيدوس عندى ، هو والأقصر ، أجمل المعابد المصرية كلها ، قديمها وحديثها — وبين البهو الخاص بأبيه سيتى الأول ، ظهر الفارق العظيم بين فن الأب وفن الابن . فن سيتى عريق رائع ، يرتفع إلى مقام فن الأسرات القديمة ، وتشغف به النفس شغفها بأجمل الآثار ، بينما فن رمسيس متعجل ، مكلفت ، يذكرك بما خرج فى حكمه الطويل من أعمال تتميز بالضخامة والجعجعة ، وحب الدعاية والتفاخر . كيف حدث هذا بين عهدين يتلو أحدهما الآخر ؟ فمن غير المعقول أن يكون جيل الفنانين

الكبار فى عهد سيتى الأول قد انقرض هكذا سريعاً ، ولا سيما أنك ترى فى بعض آثار رمسيس جمالا ورقة وعمقاً لا تعهدها فى آثاره الأخرى: تمثاله الجاثى وهو يدفع قارباً ، وصور مقبرة زوجه نفرتارى ؛ جيل فنانى سيتى لم ينقرض ، وإنما بواعث العهدين اختلفت ، كما أن تميز ملك عن آخر فى حسن اختيار مهندسيه وفنانيه ؛ لا دخل فيه لقرب أو بعد فى الزمان أو فى المكان . وعندى أن سيتى الأول كانت تتغلب عليه نزعتان : النزعة الدينية العميقة ، وتتمثل فى السبعة المحاريب التى أنشأها بمعبد أبيدوس لكل واحد من كبار آلهة المصريين : أوزيريس وإيزيس وهوروس وفتاح وهوروس — هاراختى ، ومحراب الملك المؤله ، ويتوسطها محراب آمون . وبها أجمل الصور بالحفر البارز فى تاريخ الفن المصرى كله . النزعة الثانية عند سيتى إحساسه التاريخى بالماضى — فى مقابل اهتمام ابنه السوق باسمه ، ومستقبل اسمه فيما يجىء من الزمان — وهو الإحساس الذى أطالع أثره فى القوائم الملكية التى أمر بنقشها على جدران « قاعة الأجداد » ، وقد صور فيها نفسه يحمل مبخرة ، وأمامه ولى عهده ، بشوشة الغلمان المضفورة ، يتلو من لفافة بردى ، وهما يمجدان ستة وسبعين ملكاً نقشت أسماؤهم على الجدران ، من أول مؤسسى الأسرات حتى سيتى ، الآمر بأن تكتب هذه الكلمات فوق القوائم الملكية :

« فروض الصلاة على أرواح الذاهبين ، يؤديها الملك سيتى ، ويقدم لأرواحهم القرابين : ألف رغيف ، وألف دن من الجعة ، وألف رأس من الماشية ، وألف كيلة أذرة ، وألف وزنة من البخور ... فليضاعفها فتاح — سوكر — أوزيريس ، رب القبر الذى يسكن ،فى معبد سيتى» .

ولم يأخذ الصبى ذو الضفيرة عن أبيه هذا الدرس الأخلاقى ، بل راح يعتدى على آثار الأجداد يدعيها لنفسه ، تغلب عليه نزعة التفاخر ، ويتملكه جنون العظمة . اندفع يذرع أرجاء الإمبراطورية طولا وعرضاً ، كمن به مس ، يستحث المهندسين والبنائين ، كمن يتعجل تخليد ذكراه ، فإذا به يحكم سبعة وستين عاماً ! لم يكن يعنى كثيراً باختيار مهندسيه وفنانيه ، وهو شبيه فى ذلك بجميع الملوك والحكام الذين حذقوا فن الإعلان ، فما أسهل أن يدخل عليهم الفنانون السوقيون بالخنجل والمنجل ، فيزيحوا الفنانين الأصالى الصادقين ، كما يطرد النقد الردىء ، النقد

الجيد . ولعل رمسيس ، لتعجله ولهفته ، حشد الجميع حشداً دون تمييز فخرجت فى عهده أعمال تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى تعبيرها الفنى ، ويغلب عليها التعاظم والتضخم ، والضرب فى العالى . ولهذه جمالها ، وجلالها دون شك ، فإن بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك يأخذ عليك أنفاسك . وصدق شامبوليون وهو يقول عنه : « هؤلاء الناس كانوا يبنون لعمالقة طولهم مائة قدم ! »

* * *

أما العهد المتأخر فقد كان موضع إشفاق المؤرخين الأثريين إلى عهد قريب ، حتى جاء رجال أكثر إحساساً بالفن ، وأقل تأثراً بوقائع التاريخ . فأدركوا أن هذا العهد مرّ بحتمبات فنية هامة ، تقف إلى جانب الأحقاب السالفة رأساً برأس . ومرد ذلك تياران : الأول تيار التطور ، ولم يكن تطوراً قاصراً . فقد اعتنى فيه بإجادة تمثيل الجسم الإنسانى . أما التيار الثانى فهو التزام الفنان للقوالب والطرز المعهودة . ونشأ عن التيارين أسلوب فيه من الحيوية ما حدا باليونانيين إلى التأمل والدرس ، فاستطاعوا أن يتطوروا بفن المثال عندهم . ويحققوا ما بدا لنقاد الفن كأنه « المعجزة الإغريقية » . عنى الفنان المصرى فى العهد المتأخر بثنيات القمائص الرقيقة فوق الجسم العارى ، مما يحول كساءه عرياً ، نتيجة تأثر الفنان المصرى باللمسة الحسية ، سابقاً فى ذلك زميله الإغريقى .

وفى متحف القاهرة تمثال من الصوان لكاهن من كهنة آمون فى العهد الإثيوبى ، ارتقى إلى منصب حاكم الإقليم ومحافظ طيبة . وبمتحف برلين تمثال صغير للكاهن فتاح — أمينوفيس جالساً القرفصاء ، وضاماً ذراعيه فوق ركبتيه . ورأس تمثال يعرف بـ « الرأس الأخضر » من أواخر ما أنتج الفن المصرى . وبمتحف اللوفر رأس كاهن من الصوان فيه ثورة واضحة على فن النحت القديم ، توحى بالتساؤل عن مدى تأثر الفن المصرى بالفن الإغريقى ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نتساءل إلى أى حد تأثر فن المثال الرومانى فى آخر عهد الجمهورية بهذا الفن المصرى المتأخر ، النابض بالتعبير النفسانى .

وفى الوقت الذى كان فيه الإسكندر يستولى على مصر ، كان كاهن مصرى اسمه بتوزيريس يأمر بأن تنقش على مقبرته هذه الحكمة : « سعادة المرء فى مراعاة

العدالة ... وإذا كنت قد بلغت إلى هنا، حيث الحياة الباقية، فبفضل ما قدمت يداى من خير على الأرض ، ولأن قلبي سلك طريق الهداية إليه تعالى . . . عملت هذه الصالحات حتى أبلغ ربى بعد موتى . ولأننى لم أفتر عن ذكر أسياد العدالة فياصل الخير والشر . سعيد من أحب الرب . وسيبلغ مثواه الأخير مبرأ من كل ذنب . »

ومقبرة هذا الكاهن . القائمة فى منطقة تونة الجبل ، من الفن المصرى المتأخر . وليست من الفن المتدهور . أعجب ما فيها محفوراتها الحائطية : صميمة فى مصريتها عندما تصور الطقوس الدينية ، فالفنان يلتزم هنا الفن الكلاسيكى التزاماً . ولكنك تحس فى التصوير بيقظة وحركة لا يفسرها إلا الصف الأخير من تلك الصور ، حيث ترى واضحاً جليا تأثر الفنان المصرى بالفن الإغريقى .

والتأثر غير التهجين الذى نراه فى مقبرة كوم الشقافة ، وهى من آثار القرن الثانى بعد الميلاد : تهجن الفن المصري بالفن الغريقو رومانى . فكان كالغراب الذى حاول أن يقلد الطاووس ففقد شخصيته الغرابية . فلا هو يخطر كالطاووس . ولا هو يخطو كالغراب .

مقبرة بتوزيريس هى الفن المصرى يتأثر فيتحرر . لا يتحور .

* * *

ثلاثون قرناً من الفن المصرى تحيا برغم الاضطرابات والثورات والغزو الهكسوسى والرزء الفارسى والحكم المقدونى والرومانى . أليست هذه هى الأعجوبة الحقة فى تاريخ الفنون الإنسانية كلها ؟

وإن احتفاظ المصريين بتقاليد مجتمعهم وحكومتهم . وأهم من ذلك : تمسكهم بعقائدهم ، هو الذى يفسر لنا ذلك الاستمرار ، بل تلك العودة إلى التفتح والازدهار : لا فى العهد الصاوى وحده . فى الأسرة السادسة والعشرين — وهو عهد معروف بالحرص على إنتاج الأعمال الممتازة ، واستيحاء فن الدولة القديمة — بل حتى الأسرة الثلاثين آخر الأسرات المصرية . فلا يمكن أن يعيش الفن طوال ثلاثة آلاف عام إلا إذا كانت نظرة المصرى تتجه دائما إلى ماضيه ، يتمثل بتاريخ أجداده وأسلافه . ويرى فى أعمالهم . وأعمال الأسر الأولى بخاصة ، أن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . وحب المصريين لماضيهم ذلك الحب ، وتمسكهم به حتى آخر رمق من

حياة حضارتهم ، هو فى الحق عجيبة الأعاجيب . فإلى ما حفظته لنا الآثار من قوائم الملوك وسلسلة الأسرات ، نجد قوائم ، أو شجرات نسب ، لآحاد من الناس : مثل ذلك المهندس المعمارى الذى نقش على صخور بوادى الحمامات شجرة نسبه ، من عهد رمسيس الثانى حتى أيام حكم داريوس الفارسى . وفى متحف برلين صور من الحفر البارز لستين تمثالا لأسرة خرج من بين أفرادها عشرون كاهناً من رؤساء كهنة فتاح ، وذكرت مع أسماء ستة وعشرين من أعضائها أسماء الفراعنة الذين عمل هؤلاء الأشخاص إبان حكمهم . فهذه وثيقة تبدأ فى الأسرة الحادية عشرة ، وتختم فى حكم الأسرة التالية . ووجدت لوحة بمقبرة المدعو « تونروى » ، المعاصر لرمسيس الثانى ، وتبدأ باسم « آجب » وهومن يظن أنه منشئ مدينة منف . وفى مقبرة أوخ — حوتب ، بقرية مير ، جدار نقشت عليه قائمة أجداد صاحب المقبرة، وكانوا يتوالون وظيفة حاكم كورة القوصية ، من الأسرة الخامسة حتى الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان أوخ — حوتب نفسه معاصراً للملك سنوسرت الأول : أى أنها شجرة نسب تسجل تسعة وخمسين جيلا .

إن مجرد التفكير بالارتقاء فى شجرة الأسرة كل تلك الآلاف من السنين ظاهرة بسيكولوجية تؤيد ما نحن بسبيله . وإذا تأملنا الحضارات العظيمة فى التاريخ ، استوقفتنا دائما علامتها المميزة : الاستمساك بالأجداد وما صنعه الأجداد . استمع ما يقوله ، فى مقدمة تاريخه ، شيخ من شيوخ التاريخ ، وأب من آبائه العظام : تيتوس ليفيوس ، مؤرخ روما الأكبر :

« موضوعى فسيح الرحاب انفساحاً هائلا ، فهو يرقى إلى سبعمائة عام . بدأ بدايات متواضعة ، ثم أخذ يتسع علىّ ، حتى لأخشى أن أضيع فى رحابه ؛ هذا إلى أن الكثيرين من قرائى لن تهمهم فى قليل أو كثير أصول روما ، ولا مطالع دورها فى التاريخ ؛ وسيتعجلون تحدثى إليهم بتاريخهم المعاصر ، حيث نشهد بأعيننا كيف يسير قومنا إلى العفاء ، وهم يقضون بأنفسهم على مصادر ثروتهم . أما أنا ، فخير ثواب لى أن أريح بصرى ، طوال الوقت الذى أصرفه مسدداً غرضى نحو استحضار الماضى البعيد ، وأن أريح بصيرتى مما حل بأهل هذا الجيل من شقاء وهوان » .

• • •

يبقى بعد كل هذا السؤال المعلق ، والذى سيظل معلقاً زمناً طويلا : هل تعتبر مصر أم الحضارة الحديثة ؟

وسأجيب عنه بسؤال آخر : هل فهمنا الحضارة المصرية على وجهها الصحيح ؟

إننى واحد من عامة قراء التاريخ أحس بضعف العلماء المفسرين لديانة مصر القديمة ؛ وما لم نوقن من فهمنا الصحيح لهذه الديانة ، ستظل روح الحضارة المصرية تحاورنا وتداورنا . وشعورى بضعف تفسير العلماء لديانة أجدادى مرجعه التعقيد الذى أصابوها به ، وهو تعقيد لا أحس بوجوده فى طبائعنا نحن المصريين . اعتنقنا الإسلام فى بساطة وسماحة ، لأن الإسلام عقيدة بسيطة سمحاء ؛ وعندما تقبل أجدادنا المسيحية ، حولوا أوزيريس إلى السيد المسيح فى يسر ، وإيزيس إلى سيدتنا مريم ، ورفضوا تعقيدات اللاهوتيين القائلين بطبيعة ناسوتية وطبيعة إلهية لابن مريم ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة ، الإلهية ، كما نتمسك نحن المسلمين ، فى الناحية الأخرى ، بطبيعته الواحدة ، البشرية ، وبأن خالقه هو الله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

كنا فى تاريخنا القديم — وما برحنا فى ظنى — رجالا عمليين . وإذا كان أسلافنا قد آمنوا بالتعاويذ والتمائم والسحر ، فلأنهم وقفوا عاجزين عن تفسير ما وراء حسهم ، ولم يندفعوا فى تلك المغامرات الفلسفية التى عرفتها شعوب أخرى ، كالإغريق والهندوس .

ويعجب أطباء اليوم من طب المصريين القدماء ، إذ جمع بين الملاحظة الدقيقة والممارسة العميقة والمهارة العملية ، وبين الاعتماد على السحر والتمائم والتعاويذ ، وهى تؤلف شطراً لا ينفصل عن الشطر العملى فى المؤلفات الطبية . فإلى جانب وصفاته من الأملاح والأشربة والعجينات والمراهم ، قوائم من الأحجبة وما إليها من وصفات « الطب الروحانى » . ولكن اللورد دوسون ، فى فصله الموجز الوافى عن طب المصريين فى كتاب « تراث الحضارة المصرية » ، فهم مأزقهم أحسن الفهم حين قال : « وقد يجىء ، فى يوم واحد ، إلى طبيب فى منف أو طيبة ، شقيقان : أحدهما يشكو جرحاً قطعيا من ضربة خنجر فى صدره ، والآخر يلتمس العلاج لطفح منتشر فوق صدره . علة الأخ الأول واضحة ، أما الثانى فأمره سر مستغلق ، وبذلك يختلف علاج

الاثنين . ونفهم حينئذ كيف يسير العلاج الطبي والعلاج الروحانى — أو السحرى — جنباً إلى جنب » . وكان دوسون قبل ذلك قد أتى على ذكر الأمراض غير الواضحة العلة . ونسبتها إلى سيطرة أرواح شريرة على الجسد . ومحاولة المصرى القديم التغلب عليها ومطاردتها . « ونفهم إذن أن يبقى لنا من ذلك العصر بردية إدوين سميث ، وبردية جورج إيبرز ، على ما بينهما من اختلاف فى وسائل العلاج » . وهنا لا أرى خيراً من أن أحيل القارئ على فصل ممتع لمحمد كامل حسين ، فى كتابه « متنوعات » ، يشرح فيه ممارسة الجراح المصرى لفنه . تبعاً لنص بردية إدوين سميث . ممارسة تكاد تكون من خصائص عصرنا الحديث . أما بردية إيبرز فهى الطب الروحانى يمارسه الطبيب القديم كلما تعثر حيال فهم أسباب المرض الخفية . ولقد بلغ من حرص المصرى على « طرْق كل وسائل العلاج » . أن لا يتخلى عن تعاويذه وتمائمه . إلى جانب ما يصفه من علاج مادى . ويقول دوسون فى هذا : « ومع ذلك فإن بردية إدوين سميث الجراحية ذاتها . تحتوى على رقى وتعاويذ سحرية . نسخها الناسخ على ظهر البردية . فيما يشبه ما يملأ صفحات وصفحات من البرديات الطبية الأخرى» وكأنه طالب طب فى إحدى جامعاتنا الحديثة . يضيف إلى المذكرات التى يدونها فى كليته . فصولا مختارة من طب الركة . وكتاب أبى معشر !

الروحانية المصرية لم تكن من النوع الهندوكى المستغلق ، التائه فى بوادى الأسرار الفلسفية . إنما هى روحانية الواقف بباب المجهول يحاول اقتحامه ، أو تفسيره ، عن طريق تصورات مادية . ولا نعرف شعباً صور كل شىء . عرفه أو تخيله ، بالقدر الذى بلغه آباؤنا الأُلى . وكان المصرى منطقيا مع طبيعته . وحسب منطق خاص به ، لا حسب المنطق الذى أورثنا إياه اليونان والعرب من بعدهم .

لذلك أرجح أن ديانة المصريين كانت أبسط بكثير مما يحاول أن يفسرها به العلماء المحدثون . وعندما أراد ذلك المؤرخ العظيم بلوتارك أن يفهم ناحية من نواحى تلك الديانة ، لم يجد صعوبة فى أن يصور لنا قصة «إيزيس وأوزيريس» ذلك التصوير اليونانى البلورى الشفاف ، على الأقل فى الفصول الأولى من كتابه . أما هيرودوتس فكان مثال المخبر الصحفى الكبير ، بعيوبه وفضائله ، يعنى بظواهر الأمور ، ولا يحاول النفاذ إلى أعمق مما يراه ؛ جل همه أن يثير انتباه القارئ لكل عجيبة ، حتى ولو لم تكن

كذلك ! ولقد ذهب فى هذا إلى حد أن يرى فى المصريين عكس ما رآه فى الشعوب الأخرى كافة . ولما كان المصريون قد وجدوا فى جو يخالف الأجواء الأخرى، ويعيشون على ضفاف نهر تخالف طبيعته طبائع الأنهار الأخرى — كأن يجرى من الجنوب إلى الشمال، وكأن يفيض فى الصيف لا فى الربيع — فإن طبائع المصريين وتقاليدهم وقوانينهم يجب أن تخالف طبائع الشعوب الأخرى وقوانينها ! .. ثم يذكر رحالة هاليكارناس تفاهات وترهات انساق إليها ليثبت ما ذكره فى أول الكلام ، كأن يقول بأن المصريات يسعين إلى الأسواق بينما الرجال قعيدو البيوت ، يغزلون وينسجون ؛ وأن الرجال يحملون الأثقال على رءوسهم ، بينما النساء يحملنها على أكتافهن ؛ ورجال الدين فى البلاد الأخرى يرسلون شعورهم . أما الكهنة المصريون فيحلقون شعر رءوسهم زالطة !

أمثال هذه « اللفتات » من هيرودوتس يمكن أن تفسر لك مقدار عجز الرجل عن فهم حقائق ذلك الشعب الذى شاخ وهرم . سياسة حكم . واجتماعاً ، ديانة . وفنا .

ولعل كورت لانجه لم يخطىء كثيراً عندما ادعى أن مصر ، فى واقع تاريخها القديم . لم تخرج عن العصر الحجرى حتى آخر أيامها . ويذكرنى هذا بمن يزعم أن مصر المعاصرة لم تخرج بعد عن عصرها الوسيط ، لأن الجبلة المتأصلة فى قرارة هذا الشعب ، هى شدة تمسكه بالماضى ، وحرصه عليه ، برغم كل مظاهر التحول والتطور التى تلوح على سطح حياته .

يقول كورت لانجه بأن من خصائص ذلك العصر الحجرى : اتصال الإنسان المصرى روحيا بالحيوان . إلى درجة أثارت إعجاب الإغريق وعجبهم ، واستنكار الرومان . وقد دعى أكتافيانوس قيصر ذات مرة فى مصر إلى الاشتراك فى عبادة العجل أبيس فقال . من طرف أنفه : « لقد درجت على عبادة الآلهة لا الثيران ! » . من خصائص العصر الحجرى قوة ملاحظة الطبيعة ، والاعتماد على الخبرة العملية . دون الاندفاع فى المغامرات الفلسفية ؛ ومن خصائص العصر الحجرى تمسك المصريين بالسحر .

وسواء أكان ما يقوله لانجه صوابا ، أو مجرد رجم بالغيب ، فإن الخصائص التى يشير إليها حقائق لا شبهة فيها ، وقد برزت عيوب تلك الخصائص فى العصر

المتأخر ، عندما أغرق المصريون فى عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد ممن عاشوا فى أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويبصره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أخفى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التى ارتضاها ، سواء قُدّ من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الجدول الصغير قد يطمسه الطمى ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه » .

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التى عرفناها فى عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا فى صورة جامدة متصلبة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول ، تفضل أن تموت فى جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الجمود فى ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتمسك مصر بعقيدتها الجديدة حفاظا لقوميتها، ولو تابعت الحركة الفكرية التى شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تساير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى فى مسيحيتها ، أن تنهج نهجها الخاص ، فى عقيدتها ، خوفاً على قوميتها أن تذوب فى القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحى نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهبنة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والجمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براعة خاصة فى الفلسفة ولكنها – كما كان شأنها من قديم – حذقت فنون العمارة والزخرف ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وعنيت بالدراسات الدينية

عناية كبرى ، وبالعلوم العربية كوسيلة فعالة ، لا ثانى لها ، لفهم الدّين فهماً صحيحاً . وبذلك كانت مصر منارة للعلوم الإسلامية على طول تاريخها ؛ وبالرغم من تدهورها الاقتصادى والفكرى تحت الحكم العثمانى ، تمكنت من الاحتفاظ بمركز الصدارة الروحية للعالم الإسلامى إلى اليوم .

خير ما تقدمه مصر القديمة ليس شيئاً ملموساً محسوساً ، إنما كانت مصر أمثولة رائعة أمام كل من يعنى بأقدار الإنسانية . فذلك شعب حقق حياته فى صميم داخليته ، ملبياً نوازع نفسه . وظل متمسكاً بحضارته ، متعالياً فى إباء ، لا يتكلم كثيراً ، وإنما يدعو ، فى رزانة ، الوافدين عليه ، ليروا بأنفسهم آثار حضارته ، ويقول لفلاسفة اليونان فى شمم : ما أنتم سوي أطفال بالنسبة لنا . ولا شك بأن موسى وصولون وطاليس وأفلاطون ، تأثروا بكل ما رأوه وعركوه فى الحضارة المصرية . لم يرتدوا إلى أوطانهم ليقلدوا شيئاً عز على التقليد ، وإنما آبوا إليها ، وقد عرفوا المدى الذى يبلغه الإنسان بكفاحه العقلى والمادى .

لعل هذا هو ما يراه الرجل الحكيم فى العصور الحديثة ، ولعله يفسر إعجاب أولى الألباب فى العالم كله بهذه الحضارة المصرية .

خاتمة

لا يعنيني كثيراً إن كانت مصر أثرت على حضارة أوربا ، أو أن أوربا هي بنت التوراة ويونان وروما والإنجيل فحسب . كما لا يجدى الادعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم ، فهي غير باقية ، وانتهى الأمر . إنما الذي يعنيني ، ويجب أن نهتم به كل الاهتمام ، هو أن نعيد تلك الحضارة إلى الحياة في نفوسنا ، وذلك بأن نحاول فهمها ، وأن ندرس حكمتها وعلمها وفنها ، إلى جانب دراساتنا للحضارة العربية ، والحضارة الأوربية ، حكمتها وعلمها وفنها . وليس معنى هذا الفهم وتلك الدراسة أن نعود إلى أساليب الفن القديم ، فتلك أفكار سطحية مشوشة ، ودعوة تنقصها أقل خبرة بالحياة الفكرية .

إنما الشعب الحي يجب أن يعيش دائماً على اتصال وجداني بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء ؛ التاريخ مثل حية تضرب للناس ؛ فإذا كنا اليوم نعنى بتاريخ الحضارات التي انتهت إلى العالم الحديث ، فلا أقل من أن نجعل من حضارتنا المصرية نموذجاً . لا للاحتذاء ، وإنما للإيحاء . والتاريخ رياضة فكرية عجيبة ، كما أن التاريخ القومى لأهله عصب أخلاقي ، يحرك فينا نشاطاً جديداً ، ونتعلم منه الشيء الكثير دون وعى . ولا أقصد أن يدرس تاريخنا على طريقة « تلك آثارنا » ، أو « نحن أول من . . . » ، أى لمجرد التفاخر والغطرسة ، بل يدرس ونصب عين القائم على تدريسه السهر على بقاء خمسة آلاف عام من تاريخنا حية بحيث يتابع التلميذ دراستها أطول مدة ممكنة ، وتشرح له في أطوارها كلها ، مبسطة سهلة في مرحلة التعليم الأولى ، ثم يعود إليها في المراحل التالية بشيء من التفصيل . ولا داعى لحشد ذاكرة التلاميذ في المرحلة الأولى بأسماء ملوك لم يبق منهم غير اسمهم في الأغلب ، ولا بأرقام سنوات يعترف المؤرخون أنهم يخطئون في بعضها بالمائة وبالخمسمائة سنة . ولماذا نضطر التلميذ إلى معرفة الثلاثين أسرة فرعونية ؟ أما يكفى لفهم الحضارة المصرية أن يعرف عصر بناة الأهرام والمصاطب : ثلاث أسرات ؛

وأسرة أمينمحعت ، والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ؟ ست أسرات فى أول الأمر ؛ ثم تملأ بعض الخانات : أسرة أو اثنتين من العهد المتأخر ؛ ويمكن أن نعبر سريعاً العهد البطليموسى والرومانى ، كى نعنى عناية خاصة بدراسة العهد المسيحى فى مصر . وبعد الفتح العربى تتجه الدراسة اتجاهاً توسعيا ، لما لتاريخ مصر الإسلامية من صلة بحياتنا الحاضرة ، وبمركزنا فى العالم العربى . ويراعى فى تدريس كل تلك العهود أن يشاهد الطالب أمثلة من الفن المصرى كله، من الدولة القديمة ، حتى الفن العثمانلى ؛ وأن يطالع نماذج ومختارات من الأدب المصرى ، مترجماً من النصوص القديمة ، ومن اللغة القبطية . يجب أن توضع بين أيدى الطالب ترجمات عربية جزلة الأسلوب لذلك الأدب القديم ، فى تصرف يخلصها مما يعتور النصوص من غموض أو نقص ، أو خروج على العرف العام .

أما اللغة العربية فهى دعامة صرحنا الثقافى كله ، وتعمقنا دراستها ، نحواً وصرفاً وأساليب ، يزيد من اطمئناننا إلى صدق حياتنا ، ورسوخ قواعدها . ولست ممن يطالبون بتدريس اللغة المصرية القديمة ، ولا اللغة القبطية ، إلا لمن يتخصصون فى حقباتها التاريخية . وإذا كان الأدب العربى المصرى فى بعض العصور يقصر عن البلاغة الكلاسيكية ، فليس معنى هذا النكوص عن دراسته ، ولا سيما أن أدبنا المصرى المعاصر تطور على أساس من كل عصور العربية فى مصر ، وخارج مصر ، ومن المؤثرات الغربية .

وعنايتنا القويمة بالحضارة العربية لاتعفينا من أن نحيى فى نفوسنا تاريخ حضارتنا السالفة ، فى قالب عربى بليغ . إذ يجب أن يتكون المصرى عقلا وشعوراً مما يوحى به تاريخه الحضارى كله ، فيتمثل حضارته جميعها فى إطار من لغته العربية . يجب أن يدعم قوامه الفكرى والخلقى بكل ما هو مصرى ، حتى تكون له شخصية مصرية واضحة ، تعمل فى الآداب والفنون والعلوم . ثم ليصور الرسام ، وينحت الحفار ، ويؤلف الموسيقى ، ويكتب الكاتب ، فى كل ما يوحى به إليه عصره وبيئته وثقافته ووجدانه . وليتأثر ما شاء له التأثر بمدرسة هنا ، ومدرسة هناك ، دون خوف ولا وجل . فإن وجدانه المصرى سوف يطبع تآليفه وتصاويره وتماثيله وموسيقاه بالروح المصرى المتأصل .

ولقد مسكنا أخيراً جداً بخيط من خيوط « أريان » يهدينا إلى مصريتنا ، ألا وهو التراث الشعبي . ولكنه واحد من خيوط الهدى ، أسهلها رؤية وأبسطها وجوداً . إنما التاريخ الحضارى كله — وما الفلكلور إلا قطعة منه — فهمه ، وتمثيله ، هو مستودع خيوط « أريان » الأخرى ، الأصعب منالا . وبمجموع هذه الخيوط ، يهتدى المصرى إلى أركان شخصيته وأغوارها ، فيتمكن من أن يقدم للإنسانية شيئاً جديداً ، وجديراً بالبلاد التى وهبت العالم مثلا فى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفنون وفى العلوم ، ما تزال مصدر وحى ودرس وإعجاب لا حد له فى سائر العالم المتمدن .

• • •

أردت لهذا الكتاب أن يكون ملحمة للشعب المصرى ، فإذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الأزمان ، وإذا بى ، وأنا أؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، وأشير إلى ما أداه من خدمات للحضارة ، أتوكأ على آلامه وهزائمه .

أترى فى هذا معنى من المعانى المتأصلة فى النفس المصرية ، وهل كنت معبراً عن ذلك الروح الحزين ، روح المصرى يضحك بملء فيه وحنجرته ، ثم يقول فجأة « اللهم اجعله خير » ؟ لا أدرى ، وإنما أعرف أننى أعيش مثل مواطنى ، نظرنا يحدق فى الماضى المجيد ، يستوحيه أملا فى المستقبل ؛ وموقن بأن ما أبقى على المصرى خمسة أو ستة آلاف سنة من تاريخه المهول ، هو إيمانه بشمسه ونيله وأرضه السمراء ، وقوة الخير التى تدبر أموره من عل ، فهو مؤمن بأن المدبر الأعلى لا ينسى كنانته ، وأن من أرادها بسوء قصمه الله ، وأن بعد العسر يسراً . وهو يحب أن يردد « رب تمم بالخير » . وإن أعمق الكلمات التى سمعتها تتردد على لسان الناس فى أحياء القاهرة القديمة هى كلمة « الفرج » ؛ فالمصرى ، مهما نزلت به النوازل ، يأمل فى الفرج بعد الشدة . ولست متأكداً إن كنت هنا قد نفذت إلى سر قوة هذا الشعب العجيب ، أتكون حقا فى إيمانه بكلمة « تفرج » ؟ أهى فى أنه لم ييأس يوماً واحداً فى ستة آلاف عام ، من رحمة مفرج الكروب ؟

هأنذا وقد بلغت ذروة المجد فى عصر الجدود الأوائل ، أختم كتابى بكلام لهم ، فيه

صورة من نفسيتهم ، ومن نفسيتنا نحن أحفاد الأحفاد . فقد عرفوا الشدة والآلام والاضطراب والخراب ، على الأقل فى فترتين من تاريخهم الوضاء : الفترة الأولى بعد نهاية الأسرة السادسة ، وهى فترة طويلة ، فى حياة أربع أو خمس أسرات ، يخرجون منها منتصرين على أنفسهم ، فى عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ والفترة الثانية عندما تقع مصر بين براثن شعب لا يرحم ، وهم الهكسوس ، أى ملوك الرعاة ، فى ترجمة مانيتون ، والملوك اللصوص فى ترجمة أخرى ، والغرباء حسب آخر النظريات فى ترجمة الاسم . وسيذوق المصريون صاب الذل بعد ذلك أحقاباً فوق أحقاب ، بعد أن فتحوا بلادهم للغرباء ، فطمع هؤلاء فى أرض الجود والعطاء ، وفى الموقع المتحكم المسيطر وسط العالم القديم بين ثلاث قارات . سيخضعهم ، بعد الهكسوس ، الأشوريون واللوبيون والإثيوبيون والفرس والمقدونيون والرومان وعرب تدمر فى ملك زنوبيا ، والروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة على الشرق الأدنى من أجناس الترك ، سيحكمهم العثمانيون والفرنسيس والأرنؤد والبريطانيون . أى أن مصر ذاقت حكم الأجنبي على كل لون تراه فوق خريطة أوربا وآسيا ، لم ينقصها إلا حكم الهنود والصينيين واليابان ، حتى يمكن القول بأن مصر ليست بأقدم الأمم حضارة وأعرقها فحسب ، بل قد تكون الوحيدة من بلاد الله عانت خلق الله جميعاً .

أقول هذا دون تحرج ولا خجل ، لأن بلادى خرجت من محناتها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء ، مقبلة دائما على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شيء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان .

• • •

آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة فى الزمان ، إلى ركنى من هذه الأرض ، وزمانى من تاريخها ، فهل أقول بلغة الجدات : توتة توتة ، فرغت الحدوتة ، وادينى كنت عندهم وجيت ، وان ماكانشى طاقيتى مخروقة ، لجبت لكم معايا فتة ومسلوقة ؟

ولكن الجدة كانت تعود من عندهم فى عالم القصص والأساطير ، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسست بوجيبه كما أحس به فى دمه ولحمه ساكن نخن

وبوطو ومنف وطيبة وتانيس والإسكندرية ومصر والقاهرة .

أنا الذى بدأت رحلتى بالسرى فى ظلام العبودية ، وانتهيت من رحلتى إلى ضياء العصور القديمة ، ونفسى تشرق بنور الأمل فى العصر الحديث . حاشا وكلا ، أن أعود من رحلتى خاوى الوفاض !

وإنما حملت لكم ،ممن كنت عندهم ،حديث رجلين عاشا منذ أربعة آلاف عام ، يندبان عصر الاضطرابات فى الفترة المتوسطة الأولى ، التى كانت تعرف بعصر الإقطاع . وهما مثلك أيها المصرى ، لا تنكس أعلامهما النكبات ، بل يحدوهما الأمل الواسع العريض . لأنك يجب أن تعرف نفسك على حقيقتك ، أنت المصرى البجبوح الطرير ، السارح فى بوادى الخيال ، المغرم بأغانى الحب وألحان الصبابة . أنت أيضاً ، مثل الكاتب الذى عاش منذ أربعة آلاف سنة ، ومثل هذا الضعيف الذى يضع كتابه وديعة بين يديك : فى طبعك سوداوية وحزن كظيم ، تقول فى عز أفراحك « اللهم اجعله خير » . وكما أنك لا تنسى البأساء فى السراء ، فإنك لا تفقد الأمل مهما عز الأمل ، وتؤكد بأنها ، فى ليلة اليأس الليلاء : تفرج !

أصغ إلى ما يقوله جد من جدودك الأولين ، المدعو إپو — وير :

« اسمع يا قلبى ، واندب حظ البلاد التى فيها نشأت . . . فقد خربت ، ولا حياة لمن تنادى . ابك يا قلب وحدك ، فليس ثمة من يواسيك . انظر الشمس يا قلبى وقد غيبتها الغياهب ، فلا هى مشرقة ولا هى غاربة ، انظر إلى نيل مصر وقد غاض ماؤه ، تخوضه بأقدامك إن شئت ، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسفينتك ، فستجد مجراه شطئاناً ، وضفافه ماء جارياً .

« كل طيب ولى ، والبلاد حليفة الشقاء ، تئن تحت أقدام الغرباء ، اقتحموا علينا ديارنا ، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان ، وقد وقع وقوع الفاس فى الراس .

« فالابن عدو لأبيه ، والأخ يضرب أخاه ابن أمه ، ويدير له وجهه وهو يذبح . كل طيب ولى ، والبلاد تموت ، والأرض تنزع من يد صاحبها ، ويغتصبها الغرباء . تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل ، لأن أعداء البلاد أفقروا صناعتها ، والحاصد لا يملك ما حصد ؛ تأمل من لم يحرث الأرض ، ويملأ بالغلال أهراءه ، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجة ، والغريب يملأ كرشه .

« انظر الماشية السائمة ، لا راعى يرعاها ، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا ، وأضابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادى ، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولاب صانع الفخار . فاللصوص صعروا الخدود واستطالوا ، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا . ومن لم يكن يملك زوج ثيران ، يحتكم اليوم على قطيع منها . لم يبق من العدالة غير اسمها ، وباسمها تقترف المظالم . سكن هرج الأفراح ، وعلا صوت العويل والنواح . والصغير يقول قبل الكبير : ليتنى كنت ترابا ، ويكاد الطفل يندب مجيئه إلى هذا العالم .

« أليست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح . من لا يعرف قلبه الموجدة ، الذى إذا قلت مواشيه . قضى يومه يجمع شملها ، ويروى ظمأها ، ويداوى عللها . ألا متى يجىء فيجتث الشر من أصله ، ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت ؟ أين هو اليوم ، هل راح فى غيبوبة النوم ؟ »

وإذا بعم من أعمامك الأولين ، المدعو نفر – روهو ، يجيبه :

« كلا ، لم تأخذه سنة ولا نوم . سيأتى من الجنوب ، اسمه آمينى (أمينمحعت ؟) أبوه من الصعيد ، وأمه من النوبة . وسيضع على رأسه التاج الأبيض ، ثم يضع على رأسه التاج الأحمر ، ليوحد الإقليمين ، وينشر السلام فى ربوع الوجهين . وسيفرح به أهل زمانه ، وسيخلد اسمه فى العالمين .

« أما الذين دبروا الشر ، ونشروا الفساد . فسيفض فوهم من خشيته . ويسقط الأسيويون تحت ضربات حسامه ، ويكتوى الليبيون بنار انتقامه ، ويصيخ الثائرون لحكمته ، أو سطوته ، ويطأطئون رءوسهم لرأس الصل الذى يطل من جبهته .

« وعندما تطارد " معات " الظلم من سطح الأرض ، سيعود الحق إلى نصابه ، والعدالة سيرتها الأولى .

« فليفرح قلب كل من قدر له أن يشهد ذلك الزمان » .

مجمل تاريخ مصر

فلنرجع هنا أيضاً الفضل لذويه . دون أن نحملهم تبعة : اقتبست هذه الخلاصة عن نبذة للأستاذ جورج شتايندورف . بتصرف شخصى . وإجمال . وقد وردت هذه النبذة فى مقدمات دليل « كارل بديكر » . النص الإنجليزى . طبع لايبزج سنة ١٩٢٩ .

واتبعنا فيها التوقيت القصير : بدء تاريخ الأسرات فى آخر القرن الأربعين قبل الميلاد ، سنة ٣٢٠٠ . ولا يمكن الاعتماد على هذه التواريخ قبل حكم بساماتيك الأول ، أى فى مطالع الأسرة السادسة والعشرين . أما قبل ذلك ، فقد يخطئ المؤرخون التقدير . وبخاصة فى الحقبات الأولى ، بضع عشرات ؛ أو مئات من السنين .

والتقسيم إلى أسرات من عمل الكاهن مانيتون السمنودى ، الذى عاش لثلاثمائة عام قبل الميلاد . والغالب أنه كان من كهنة هليوبوليس . وألف تاريخه فى ثلاثة كتب ، أيام بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ، ألفه باليونانية وسماه مذكرات مصرية » « إجپسياكا أيومماتا » . ولم يكن المصريون يؤرخون إلا لحكم الملك الواحد ، حسب أعوام حكمه ، ولا يتابعون تاريخهم فى سلسلة متصلة .

أما التقسيم إلى عهود ، أو دول ، أو إمبراطوريات فن عمل المؤرخين المتأخرين . لمجرد حسن العرض . وسهولة المراجعة .

الدولة القديمة

[٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م .]

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٢٠٠ — ٢٧٨٠

الأسرة الأولى والأسرة الثانية تؤلفان العهد الطينى ، أو الطينيسى ، نسبة إلى العاصمة القديمة فى طينة أو طينيس . التى يظن أن موقعها إلى الشمال الغربى من جرجا ، مكان قرية البرباء ، شمال بيت خلاف . والمحاسنة .

أول الملوك منيس ، أو منا ، أو مينا ، منشئ « السور الأبيض » — حائط العجوز ؟ — وهو حصن أنشئت فى موضعه مدينة منف فيما بعد . وعثر الأثريون على قبور لبعض ملوك الأسرتين فى أبيدوس (العرابة المدفونة) قرب البَلْيَنَا .

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ — ٢٧٢٠

نقل زوسر عاصمته إلى منف ، وبنى فى موضع سقارة الهرم المدرج ليدفن فيه . وفى عهده أنشئت أقدم المصاطب . سنفرو (سوريد العرب ؟) بانى هرم ميدوم ، وهرم دهشور (؟) .

الأسرة الرابعة : ٢٧٢٠ — ٢٥٦٠

خوفو ، أو خيوبس ، صاحب الهرم الأكبر .

ددف — رع ، هرمه فى أبى رواش

خفرع أو خفرن ، بانى الهرم الثانى بالجيزة

منقرع ، أو منقَوْرع ، صاحب الهرم الثالث بالجيزة

شبسسكاف : مدفون بما يعرف بمصطبة فرعون ، إلى الجنوب من سقارة ، فى الطريق إلى دهشور .

الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ — ٢٤٢٠

أوسر كاف : هرمه فى سقارة

سهورع

نيوسر رع

أوناس أو أونيس أو أونوس : آخر ملوك الأسرة ، هرمه فى سقارة ، واكتشف فيه ماسبرو أول متون الأهرام .

الأسرة السادسة : ٢٤٢٠ — ٢٢٧٠

تيتى ، أو أطويس

فيوبس الأول — أهرامهم بسقارة

مرنرع

نفر كارع

الفترة المتوسطة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة ٢٢٧٠ — ٢١٠٠

مجهولة التاريخ . ويظن أن الأسرة الثامنة حكمت في منف ، ولكن ملوكا آخرين . من الأسرة التاسعة والعاشرة حكموا في هرقليوبوليس . ومكانها ، فيما يظن ، إهناسيا المدينة ، أو أم الكيمان . اسمها المصرى هات — نن — نسوت . والقبطى اهنس ، وتبعد نحو ستة عشر كيلومترا إلى الغرب من بنى سويف .

الدولة الوسطى

[٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م.]

الأسرة الحادية عشرة ٢١٠٠ — ٢٠٠٠

عصر أمراء طيبة ، امتدوا بسلطانهم إلى الكور المجاورة ، ثم إلى كل الكور شمالا وجنوبا ، والاسم الغالب على ملوكها : منتوحوتب ، ملوكها تغلبوا على ملوك هرقليوبوليس .

الأسرة الثانية عشرة ٢٠٠٠ — ١٧٩٠

عصر بناء ، وفنون وآداب . أعظم العهود المصرية رخاء

أمينمحعت الأول : مدفون بهرمه فى لشت

سنوسرت الأول : أو سيزوستريس الأول . دفن فى هرمه بلشت

أمينمحعت الثانى : دفن فى هرمه بدهشور

سنوسرت الثانى : صاحب هرم اللاهون

سنوسرت الثالث : هذا هو سيزوستريس العظيم فى تاريخ هيرودوتس . وهرمه فى دهشور

أمينمحعت الثالث : صاحب هرم هوارة . وبانى المعبد الكبير بمدخل منخفض الفيوم ، وسماه الإغريق اللابيرانت . ومنظم خزن المياه بالفيوم .

أمينمحعت الرابع
الملكة سبك — نفرو
الأسرة الثالثة عشرة ١٧٩٠ — ١٧٠٠
يحمل ملوكها اسم سبك — حوتب ؟

الفترة المتوسطة الثانية

[١٧٠٠ — ١٥٥٥ق.م]

الأسرات من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة

مأساة التاريخ المصرى القديم . أسرات غير معروفة . ربما كانت تحكم فى وقت واحد فى أمكنة مختلفة . ويغلب أن يكون ملوك طيبة من الأسرة السابقة استطاعوا أن يتابعوا حكمهم فى الجنوب . بينما كان يحكم ملوك الأسرة الرابعة عشرة فى خويس (سخا) .

وقضى غزو الهكسوس على الأسرتين . وحكم البرابرة الأسيويون مصر بالحديد والنار ، من عاصمتهم فى أواريس ، فى موضع صان ، إلى الشمال من فاقوس .

ويؤلف الهكسوس الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة . ويبدو أن أمراء من طيبة ظلوا يحكمون فى الجنوب كأتباع للهكسوس ، وقبورهم اكتشفت فى دراع أبى النجا ، بوادى طيبة .

أما الأسرة السابعة عشرة فهى التى أنجبت محرر مصر من الهكسوس الملك أحمس (أحموزى) . فاتح أواريس . وأحمس هذا هو ابن أول ملوك هذه الأسرة المسمى سكنن — رع ، وأخو ملكها الثانى كيموزى .

الدولة الحديثة

[١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م]

عهد الإمبراطورية العظمى . والفتوحات الأسيوية ، والتوسع فى بلاد أعالى النيل . تأثرت الحضارة فى حكم تحوتمس الثالث بمؤثرات أجنبية نتيجة اتصالها بشعوب الشرق الأدنى . عصر سلطان طيبة وثرائها وبذخها .

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٥٥ — ١٣٥٠

أمينوفيس الأول . أو أمينحوتب

تحوتمس الأول أو تحوتموزى ، قاهر أعالى النوبة . قبره فى بيبان الملوك ، وأول قبور ملوك الأسرة هناك .

تحوتمس الثانى

حتشبسوت ، سيدة الدير البحرى

تحوتمس الثالث ، قيصر الدولة القديمة ، أعظم ملوك مصر قاطبة

أمينوفيس الثانى ، أو أمينحوتب

تحوتمس الرابع . أول من عنى بتمثال أبى الهول بالجيزة، وأزال عنه الرمال تحقيقاً لما رآه فى حلمه، وهو مضطجع بين ذراعى من كان يظنه إله الشمس هارماخيس.

أمينوفيس الثالث . أو أمينحوتب : هذا هو « ممنون » الإغريق ؛ وزوجته « تى » أم أخناتون . وصاحب الصلات الوثيقة مع أمة « الميتانى » . على ضفاف الفرات الأعلى . بانى معابد الأقصر والكرنك والنوبة ومعبده الجنائزى كان بمدينة « هابو » ؛ لم يبق منه سوى « القولوسات » المعروفة باسم صنمى ممنون .

أمينوفيس الرابع وزوجته نفرتيتى : هذا هو الثائر الأول فى التاريخ ، وصاحب ديانة الواحد آتون . ومحطم أصنام طيبة . غير اسمه الآمونى إلى أخن — آتون (عبد قرص الشمس) . وبنى عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا أمام ملوى . واسمها آخت — آتون (أفق قرص الشمس) .

توت عنخ — آمون : الملك الشاب المرتد إلى ديانة الأجداد . العائد إلى طيبة .

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٥٠ — ١٢٠٠

هورمحب قائد الجيوش ونائب الملك ، أعاد السلام إلى الربوع ، وأكمل القضاء على آثار عبّاد الشمس ، أخناتون .

رمسيس الأول

سيتى الأول : حارب الليبيين والحيثيين . وثبت أقدام الإمبراطورية .

بانى معبد أبيدوس بالعرابة المدفونة . ومعابد بالقرنة والكرنك .

رمسيس الثانى : أشهر ملوك مصر القدماء . عاد إلى حرب الحيثيين ، وصالحهم على اقتسام سورية ، محتفظاً بفلسطين .

يكاد نصف المعابد المصرية القائمة حالا ينسب إليه بناؤها ؛ وأعظمها معابد أبو سمبل والكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس . عاصمته فى تانيس ، ولكن طيبة لم تتقهقر عن عظمتها .

منفتاح أو مرنفتاح : حارب الليبيين وشعوب البحر والإثيوبيين . وله معبد جنائزى فى طيبة .

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ — ١٠٩٠

ست — نخت : أعاد السلام إلى الربوع

رمسيس الثالث : قاهر الليبيين . والمدافع عن الحدود ضد البرابرة من آسيا ومن البحر . ثم قضى بقية حكمه ، نحو واحد وعشرين عاماً ، فى سلام . بانى معبد مدينة هابو وقصورها . بالغ فى إغداق العطايا والخيرات على معبد آمون .

رمسيس الرابع — حتى رمسيس الثانى عشر : سلموا ذقونهم لكهنة آمون

هريهور ، كاهن طيبة الأكبر : استولى على الملك بعد موت آخر الرعامسة .

الأسرة الأولى بعد العشرين : ١٠٩٠ — ٩٤٥

قاوم أمراء تانيس حكم هريهور المغتصب . وأسسوا الأسرة الأولى بعد العشرين (أسرة بسوسنس وأمينمحوبت) . عهد مضطرب . خرجت فيه النوبة وفلسطين على الحكم المصرى . وفى أيام هذه الأسرة تمكن كاهن من أشباه هريهور من السيطرة على مصر كلها بعد زواجه بأميرة من الأسرة التانيسية .

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ — ٧٤٥

ملوك هذه الأسرة من أصل ليبى : من أفخاذ المشاواشة . وهى قبيلة ليبية من أهم القبائل التى كانت تؤلف فرقا من الأجناد المرتزقة فى الجيش المصرى : وانزوت طيبة أمام العاصمة الجديدة فى بوباسطيس .

شيشونق . وهو شيشاك التوراة : قهر التانيسيين ، واستولى على أورشليم ، وخرب معبد سليمان حوالى ٩٣٠ قبل الميلاد . ثم أسوركون ، وشيشونق الثانى إلخ .

الأسرة الثالثة والعشرون ٧٤٥ – ٧١٨ .

أسرة لا يعرف عنها إلا القليل : تف – نخت . أمير صا ومنف ، حاول إقامة حكمه فى الدلتا . ولكنه غلب على أمره أمام بعانخى ملك إثيوبيا الذى أغار على مصر ودخل منف .

الأسرة الرابعة والعشرون ٧١٨ – ٧١٢ .

حاول واحد من نسل ملوك تانيس . هو بوكوريس بن تف – نخت ، أن يستقل بالدلتا ، ولكن ملك كوش (إثيوبيا) قهره وأسره وأحرقه حياً ، وبذلك تم للكوشيين الاستيلاء على مصر وتأسيس الأسرة الإثيوبية .

العصر المتأخر

[٧١٢ – ٣٣٢ ق . م]

الأسرة الخامسة والعشرون الإثيوبية : ٧١٢ – ٦٦٣

شباكو أو سباكون . ثم شباتاكا

طهارقة . وهو ترهاقة التوراة : ساعد أمراء سورية وفلسطين ضد الأشوريين . ولكن هؤلاء استداروا إليه وقهروه ، بقيادة ملكهم أسارهادون سنة ٦٧٠ . واستولوا على منف ، وخضع لهم أمراء الصعيد . بيد أن انشغال الأشوريين بحرب بابل وإيلام ، كانت فرصة انتهزها بساماتيك أمير سايس (صالحجر) . بمساعدة المرتزقة الإغريق ، وطرد الأشوريين ، ووحد المملكة تحت حكمه .

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ – ٥٢٥

عود إلى الرخاء وبعض العز القديم ، بفضل الاتصالات التجارية بالإغريق وعناية الملوك والشعب بالمثل العليا فى الفن والأدب . كما تلقوها عن عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى .

بساماتيك الأول : أمير صا ، الذى قاد الثورة ضد الأشوريين وطردهم

نخاو : غزا سورية وهزم جيش يوشع ملك اليهودية فى موقعة مجدو ؛ ثم انهزم

المصريون فى موقعة كركيمش على الفرات عندما استدار لهم بختنصر ملك بابل فأجلاهم عن سورية وفلسطين . ونخاو صاحب البعثة البحرية التى قامت من البحر الأحمر وخرجت إلى بحر الهند ، ودارت حول الطرف الجنوبى من أفريقيا ، واتجهت شمالا إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق (أعمدة هرقل عند اليونان) . ثم عادت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض. وقد جاءت أخبارها فى كتاب هيرودوتس .

وبدأ نخاو حفر قناة تصل بين الفرع الشرقى للنيل وخليج السويس :

بساماتيك الثانى .

أبريس أو وه — إب — رع ، أو « هو فرات » التوراة . حاول استرجاع سورية . ولكنه لم يستطع الوقوف أمام بختنصر الذى فتح أورشليم سنة ٥٨٧ .

أمازيس : قائد ليبى أقصى الملك أبريس عن العرش . وتزوج ابنة بساماتيك الثانى ، وكانت سبيله إلى الملك . وأسكن أمازيس الإغريق مدينة نوكراتيس التى نمت بسرعة حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية فى الشرق الأدنى

بساماتيك الثالث : هزمه قمبيز ملك الفرس فى فيلوزيوم (الفرما) على الحدود المصرية ، سنة ٥٢٥ ق . م .

الأسرة السابعة والعشرون (فارسية) : ٥٢٥ — ٣٣٨

حكم الفرس : وجه قمبيز حملة فى الصحراء الليبية . فابتلعتها الصحراء . وحملة أخرى ضد الإثيوبيين .

داريوس الأول : أتم قناة نخاو من النيل إلى البحر الأحمر . بنى فى عهده معبداً لآمون بالواحات الخارجة .

ثار المصريون على الحكم الفارسى بعد أن وصلتهم أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق فى موقعة ماراثون . ولكن أكسرسيس الأول أخمد الثورة ، وولى أخاه أميراً (شترية) على مصر .

وفى حكم أرتاكسرسيس الأول نشبت ثورة مصرية جديدة لم تنجح ؛ وصلب إناروس زعيم الثورة ، وكان أمير منطقة مريوط .

زار هيرودوتس مصر بعد سنة ٤٤٩

داريوس الثانى : تدهور الحكم الفارسى . وثار المصريون للمرة الثالثة . واستقلوا من عام ٤٠٤ حتى ٣٤١ . وحكمهم ملوك منهم ، أدرجهم مانيتون فى الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين .

الأسرتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون : ٤٠٤ — ٣٧٨

أمورطيوس حكم فى « صا » حكماً قصيراً . وكانت أسرات أخرى تتنازع الحكم فى البلاد . ثم جاءت أسرة من منديس (منديد فى القرون الوسطى . قرب تمى الإمديد . بموضع يعرف بتل القصر) . وتولت الحكم بمساعدة المرتزقة الإغريق . وملوكها نفيريتس وأخوريس وبسافوتيس إلخ .

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ — ٣٤١

نكتانيبوس الملك : عاصمته سبينيتوس (سمنود) . وكان ملكاً قوياً . بنى معابد فى فيليه . ومدينة هابو . وصرحاً فى الكرنك .

نكتانيبوس الثانى : بنى معبداً كبيراً لإيزيس فى (بهبيت الحجارة . قرب ميت عساسس) وهى « هيبت » فى لغة القدماء ؛ وأقام صرحاً فى الكرنك .

عودة الفرس : ٣٤١ ق . م .

وعاد الفرس إلى مصر . فهرب آخر ملوكها . نكتانيبوس الثانى إلى إثيوبيا وانهال الفرس فى هذه المرة على مصر تخريباً وسلباً ونهباً .

العصر الإغريقى

[٣٣٢ — ٣٠ ق . م]

عرف إدوارد ماير هذا العهد بقوله : « فى حكم البطالسة عاد وادى النيل الأدنى . ولمدة ثلاثمائة سنة . مركزاً لمملكة من أغنى الممالك وأقواها وأكثرها رخاء . يحكمها ملوك موهوبون ، فى أول الأمر . بيد أن خلفهم الطالح المنحل . يحارب الأخ منهم أخاه ، نزلوا بها إلى الحضيض . ولم يكن لمصر حياة إلا بفضل روما ، حتى وجدت نفسها وسط معترك العالم الرومانى ثم انتهت كدولة مستقلة » .

٣٣٢ — ٣٢٣

الإسكندر الأكبر : أبدى تسامحاً نحو الديانة المصرية ، وسافر إلى واحة سيوة ، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله .

وأنشأ الإسكندرية إلى جانب قرية صيادين تحمل اسم « رقودة » (راكوتيس) ، فما عتمت حتى أصبحت — بفضل البطالسة الأوائل — مركزا للثقافة الإغريقية وللتجارة العالمية . وبعد موت الإسكندر ، تفككت الإمبراطورية المقدونية .

٣٢٣ — ٢٨٥

وتقاسمها قواده ، فكانت مصر من نصيب بطليموس الأول (سوتر) ، أبوه لاجوس . وتعرف أسرته باسم الأسرة اللاجيدية . بدأ حكمها « شترية » ، أى نائبا للملك ، حتى موت الإسكندر الثانى سنة ٣١١ ، وارتقى عرش مصر سنة ٣٠٥ . منشئ الموزيون (مدرسة الإسكندرية)، ومدينة بطوليمايس بالصعيد ، ومكانها الحالى قرية المنشا ، أو المنشية ، فيما بين سوهاج وجرجا .

٢٨٥ — ٢٤٦

بطليموس الثانى (فيلادلفوس) : بلغت مصر فى عهده ذروة توسعها الخارجى ، وسميت مديرية الفيوم باسم أخته — زوجته ، الملكة أرسينوى . استجلب الفيل من الصومال، واستؤلف لأغراض عسكرية(؟) . ألف الكاهن المصرى مانيتون السمنودى تاريخ الأسرات الفرعونية ، باللغة اليونانية .

٢٤٦ — ٢٢٢

بطليموس الثالث (إورجيتس) : غزا مملكة السلوقيين فى آسيا الصغرى ، وتقدم لفتح بابل ، ولكنه قفل راجعاً إلى مصر ليعالج ثورة محلية . فاسترد السلوقيون ما فقدوه . وفى عهده حاول الكهنة المصريون تصحيح التقويم بإضافة يوم كل أربع سنوات ، ولم يتم لهم ذلك. كما ظهر فيما يعرف بمرسوم كانوب ، الذى عثر عليه سنة ١٨٨١ ، فى كوم الحصن (بين دمنهور وإيتاى البارود)، وفى تانيس سنة ١٨٦٦ . وهو مكتوب باللغة المصرية فى صورتيها الهيروغيليفية والديموطيقية ، وباللغة اليونانية . أصدره مجمع الكهنة فى كانوب فى السابع

عشر من شهر طوبة سنة ٢٣٨ ق . م . فى حكم إورجيتس هذا . تمجدوا اسم الملك الذى أعاد الأصنام المصرية من آسيا ،ونشر السلام فوق الربوع .

ويقترحون فى المرسوم تعديل التقويم حتى يقع عيد إورجيتس فى اليوم الأول من العام . كما اتفق له سنة إصدار المرسوم .

٢٢٢ — ٢٠٣

بطليموس الرابع (فيلوپاتور) : بدأ انحلال الدولة فى عهده . مع أنه هزم أنطيوخوس الأكبر فى موقعة رفح . وكان هذا الملك يهدد الحدود المصرية .

وتزعم أمراء طيبة فى عهده ثورات جعلتهم فى حكم المستقلين فى الجنوب .

٢٠٣ — ١٨١

بطليموس الخامس (إبيفانس) : تولى العرش طفلا . تحت وصاية شرذمة من الأوغاد . فانتهزها فرصة ملكا سورية ومقدونية (أنطيوخوس وفيليب الخامس) . واقتطعا من مصر أملاكها . فلم يبق لها غير برقة وقبرص . ووضعت الأسرة بطليموسها الصغير تحت حماية مجلس شيوخ روما (السناتو) وعمت الثورات . واضطربت شئون الحكم .

١٨١ — ١٤٦

بطليموس السادس (فيلوميتور) : تولى الملك تحت وصاية امه كليوباترة . وغزا أنطيوخوس مصر . ودخل منف . ولكن المبعوث الرومانى اضطره إلى الجلاء . واستدعى الشعب بطليموس التاسع (أبا كرش) ليحكم إلى جانب فيلوميتور . فدب الخلاف بينهما ، وهرب فيلوميتور إلى روما . وأعاده مجلس الشيوخ الرومانى إلى العرش وحده . وأعطيت لأبى كرش ولاية برقة .

١٤٦ — ١١٧

بطليموس السابع ، ابن السادس : حكم ثم ترك الحكم لخلفه.....

بطليموس التاسع (أبو كرش) : حكم وحده . باسم إورجيتس الثانى . ثم طاردته ثورة . فذهب إلى قبرص . وحكمت زوجته كليوباترة ، ثم عاد إلى العرش ، وبعد وفاته سنة ١٢٧ ، حكمت أرملته وابنها .

بطليموس العاشر [سوتر الثانى] ، وهذا هو بطليموس لاتيروس [حمص]، وطورد فقام بدله :

١٠٦

بطليموس الحادى عشر (إسكندر الأول) .

٩٦

وقُدمت برقة هدية إلى روما ، فتحولت إلى إيالة رومانية .

٨٨

وعاد بطليموس حمص بعد أن طاردت الثورة إسكندر الأول . وفى عهده ثار أمراء طيبة وفشلوا ، فدمرت طيبة .

٨٠

بطليموس الثانى عشر : كان يعيش فى روما ، فلما علم القائد سيلا بأن كليوباترة — برنيقة تولت العرش، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، أوعز إلى الأمير بالسفر إلى الإسكندرية ليتزوج الملكة ، فتزوجها وقتلها بعد أسبوعين من الزواج، وحكم وحده، وثار الإسكندريون عليه فقتلوه فى الملعب الكبير .

٨٠ — ٥١

بطليموس الثالث عشر ، أو ديونيسيوس الجديد ، المكنى بعازف الناى [أوليتس] ، أى الزمار . وهو أبو كليوباترة المشهورة . اقتطعت روما قبرص من مصر ، فطارد الإسكندريون الملك الزمار ، وأعادته روما إلى العرش . وفى عهده تم إنشاء معبد إدفو ، وبدئ فى إقامة معبد الإلهة هاتور فى دندرة .

٥١ — ٤٧

تولت كليو باترة الشهيرة ، وأخوها بطليموس الرابع عشر العرش ، تحت وصاية مجلس شيوخ روما . ولكن الغلام طرد أخته ، وحكم وحده بمعونة ثلاثة من الأوغاد . والتجأ القائد بومبيوس الأكبر ، بعد هزيمته فى فارساليا . إلى مصر . فاستقبله أمام فيلوزيوم هذا الغلام وأوصياؤه الأشرار . وذبح بومبيوس فى القارب الذى حمله من السفينة ، قبل أن يصل إلى الشاطئ ، وعلى مرأى من زوجته ورجاله على السفينة ، ومن الغلام الغادر وأوصيائه فى البر .

٤٨

نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية ، وناصر كليوباترة على أخيها ، الذى حاول العودة إلى عرشه ، فقهرته جنود قيصر وغرق فى النيل . وعندما عين قيصر دكتاتوراً فى روما ، عين أخاً ثانياً لها شريكاً فى الحكم هو :

٤٧

بطليموس الخامس عشر ، وهو حدث ابن أحد عشر عاما ، وقتل هذا بتدبير أخته ، التى أقامت طفلها من قيصر (قيصاريون) شريكاً لها ، وهو :

٤٥

بطليموس السادس عشر .

٤٤

قتل الجمهوريون يوليوس قيصر فى مجلس الشيوخ الرومانى :

٤١ – ٣٠

استدعى مارك أنطونيوس كليوباترة إلى طرسوس بكليكيا ، بحجة تقديم حساب سياسى له . ووقع أسير غرامها ، وعاشا حياة استهتار وتبذل أعواماً طويلة . حتى انتهى الأمر بأن أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، وقرر مجلس الشيوخ أن أنطونيوس عدو الوطن . وقاد أكتافيانوس قيصر ، حفيد يوليوس ، جيش روما وأسطولها ، وهزم أسطول أنطونيوس فى موقعة أكتيوم ، وبعد عام ، استولى على الاسكندرية ، وانتحر انطونيوس بالسيف ،

العهد الرومانى

[٣٠ ق. م – ٣٩٥ ميلادية]

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصًّا للإمبراطور أغسطس قيصر [أكتافيانوس] يوفد إليها مندوباً من قبله . وتابع الإمبراطور سياسة البطالسة فى ممالأة الكهنة المصريين ، وما كان أسرع هؤلاء إلى اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة . وكان أول الولاة الرومانيين الشاعر كورنيليوس جاللوس ، وبدأت ولايته بثورة مصرية فى الصعيد . وفى عهد أغسطس قيصر بدأ

العمل بالتقويم المصرى المعدل [اليوليانى] .

٢٤ — ٢٣ ق . م

غزت كنداسة ملكة الإثيوبيين مصر سنة ٢٤ ق . م ، وطاردها الوالى الرومانى بطرونيوس .

١٤ —٣٧ ميلادية

الإمبراطور طباريوس : وفى عهده رفع المسيح إلى السماء (٣٠ م ؟)

٣٧ — ٤١

كاليجولا ، الإمبراطور المجنون .

٤١ — ٥٤

كلاوديوس [أقلاديوس] : بدئ فى عهده بناء معبد إسنا ومعبد فى فيليه

٥٤ — ٦٨

نيرون

٦٩ — ٨٠

فسباسيان : أعلن إمبراطوراً فى الأسكندرية . ومن هناك قام ابنه طيطس بفتح فلسطين ، وهدم أورشليم ومعبدها الكبير .

٨١ — ٩٦

دومطيانوس قيصر : أقام عبادة إيزيس وسيرابيس فى روما

٩٨ — ١١٧

ترايانوس : أعاد فتح قناة نخاو — داريوس ، بين النيل والبحر الأحمر ، باسم « آمنيس ترايانوس » .

١١٧ — ١٣٨

أدريانوس : زار مصر عام ١٣٠ م ، واصطحب صفيه الأمرد أنطنوس ، وغرق الشاب فى النيل ، فأنشأ الإمبراطور مدينة أنطنوبوليس أو أنطنوى [فى موضع الشيخ عبادة حالا على الشاطئ الشرق للنيل ، فى مواجهة الروضة ، إلى الشمال من ملوى] . وزارها مرة أخرى بصحبة الإمبراطورة ، وكانت معهم السيدة بلبلة ، شاعرة البلاط ، فسجلت زيارة الأسرة الإمبراطورية لقولوسات

ممنون بقصيدة حفرت على ساق أحد التمثالين .

١٣٨ — ١٦١

أنطونينوس بيوس : فى عهده كان بطليموس العالم الفلكى والجغرافى [صاحب المجسطى] يتابع دراساته بالإسكندرية (حوالى سنة ١٥٠ م) .

١٦١ — ١٨٠

ماركوس أوريليوس ، الإمبراطور الفيلسوف الرواقى : فى عهده قامت ثورة « رعاة البقر » فى « بوقوليا » ، إلى الشرق من الإسكندرية . وزار أوريليوس الإسكندرية سنة ١٧٦ م .

١٨٠ — ١٩٢

قومودوس : أنشأ الأقباط فى عهده المدرسة الكاتشائية أو الديدسقالية [سنة١٩٠] وقد اشتهرت فى العالم المسيحى بفضل أساتذتها الأوائل بنطائينوس ، واكليانضس ، وأوريجانوس .

١٩٣ — ٢١١

سبتيميوس ساويرس : انتشرت المسيحية فى الوجه البحرى ، وبدأت الاضطهادات

٢١١ — ٢١٧

كاراكلا : زار مصر ، ودارت المذابح فى الإسكندريين .

٢٤٩ — ٢٥١

دقيوس : اضطهاد المسيحيين مستمر .

٢٦٠ — ٢٦٨

جالينوس : خف الاضطهاد ، وأصيبت مصر بوباء . وفى عهده أعلن الجند الرومانى بالأسكندرية ماكرينوس إمبراطوراً ، ثم هزم وقتل ، وأعلن الجنود مرة ثانية بالإسكندرية إمليانوس إمبراطوراً ، فهزم وقتل .

٢٦٨

ووجدت الملكة زنوبيا ، أميرة تدمر ، فرصة مؤاتية لغزو مصر ، فدخلتها واحتلت الوجه البحرى .

كما احتل البليميون [أجداد البجاوين ون اليهم] بعض الصعيد .

٢٧٠

ولكن القائد بروبوس أعاد مصر إلى الحظيرة الرومانية .

٢٧١

أنبا أنطونيوس ، منشئ الرهبنة القبطية .

٢٨٤ — ٣٠٥

دقلديانوس (ديوقليسيانوس) : ثار الصعيد فى عهده ، وهاج شعب الإسكندرية ، فجاء الإمبراطور بنفسه ، وتولى أقسى اضطهاد رومانى للمسيحيين المصريين . عصر الشهداء يؤرخ من وقته .

٣٢٠

أنبا باخوم ينشئ أول دير قبطى فى طبانا .

٣٢٤ — ٣٣٧

قسطنطين الأكبر ، أول الإمبراطرة الحانين على المسيحية ، وقد اعتنقها .

٣٢٥

وفى عهده نشأت هرطقة آريوس ، وقضى عليها مجمع نقيا .

٣٢٨

أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ، هازم الأريوسية .

٣٣٠

بيزنطة تصبح عاصمة الإمبراطورية ، باسم روما الجديدة ، أو قسطنطينية بدء استيطان رهبان القبط لوادى الإسقيط وبرية شهات [بوادى النطرون] .

٣٥٠

تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية حوالى هذا التاريخ .

٣٦١ — ٣٦٣

الإمبراطور المارق يوليانوس : ارتد عن المسيحية ، والغالب أنه لم يعتنقها ، إذ ربى تربية هلينستية ، فما إن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته .

٣٦٦

٣٧٣

تنيّح البطريرك العظيم أثناسيوس .

٣٧٩ — ٣٩٥

ثيودوسيوس الأكبر : أعلن المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، واضطهد الوثنيين ، والمسيحيين الأريوسيين . وبدأ هجوم الأقباط على المعابد المصرية القديمة بهدم الصنم الكبير بمعبد سيرابيس بالإسكندرية

٣٩٥

انقسام الإمبراطورية الرومانية : أركاديوس على الشرق ، وأونوريوس على الغرب .

العهد البيزنطى

[٣٩٥ — ٦٤٠ م]

٤١٢

كيرلس الأول : يرقى كرسى الكرازة المرقسية . ويغلب أن يكون هو المحرض على قتل أجمل أستاذة للفلسفة فى التاريخ : هيباسيا بنت الرياضى ثيون . تربص بها الرهبان والصبوات وقتلوها رجماً ، وسحلوها حتى صحن الكنيسة ، حيث قطعوا جسمها إرباً إرباً ، انتقاماً من تعمقها الفلسفة الوثنية .

٤٣١

كما هزم أثناسيوس آريوس ، هزم كيرلس هرطقة نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية فى مجمع إفسوس الأول [المجمع المسكونى الثالث] .

٤٤٩

مجمع إفسوس الثانى : يكرهه الكاثوليك . ويطلقون عليه اسم « مجمع اللصوص » ، لأن البطريرك المصرى ديوسقوروس انتصر على معارضيه بوسائل يعدونها غير كريمة . وبذلك فازت عقيدة الطبيعة الواحدة القبطية ، لوقت قصير ، فى العالم .

٤٥١

مجمع خلقدونيا [المجمع المسكونى الرابع] : هزيمة ديوسقوروس والكنيسة المصرية ، وفوز عقيدة الطبيعتين [وهى ركن إيمان الكنائس الشرقية والكاثوليكية البابوية]، وشلح ديوسقوروس ، أو على الأقل إبعاده عن كرسى الإسكندرية . وجاء ذلك نتيجة لتكاتف جهود البابا ليون الأكبر صاحب « طومس لاون » ، والإمبراطور البيزنطى ماركيانوس . وبذلك انفصلت الكنيسة القبطية عن كنائس الشرق والغرب إلى اليوم .

٥٢٧ — ٥٦٥

يوستنيانوس المقنن : أجرى تقسيمات إدارية جديدة بمصر ، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال موحدة ، بل كان كل حاكم إقليم مستقلا بجيشه ، مما ساعد على انهيار الجحافل الرومانية المشتتة أمام فرسان العرب .

٦١٠ — ٦٤١

الإمبراطور هرقل : وفى حكمه تم للفرس ، أيام كسرى الثانى [سنة ٦١٩ م] فتح مصر ، واستطاع هرقل ، بعد موت كسرى ، التغلب عليهم وطردهم سنة ٦٢٦ .

٦٢٢

هجرة النبى العربى ، خاتم الأنبياء والرسل : فى السنة الأولى للتقويم الإسلامى .

٦٣٢

انتقال سيد المرسلين إلى الرفيق الأعلى ، وخلافة أبى بكر الصديق .

٦٣٤

بدء الفتوحات الإسلامية : فتح سورية ، ووفاة أبى بكر . وخلافة عمر ابن الخطاب .

٦٣٦

ظفر المسلمين بالروم فى يوم اليرموك . فتح دمشق .

٦٣٧

انتصار المسلمين الساحق على الفرس في موقعة القادسية ، وسقوط المدائن [اكتسيفون] ، ونهاية الأكاسرة الساسانيين .

٦٣٨

فتح بيت المقدس ، واستقبال منشئ قبة الصخرة ، ثانى الخلفاء الراشدين ، عمر الفاروق .

مصر الإسلامية

[٦٤٠ م — إلى ما شاء الله]

٦٤٠

فتح مصر بسيف عمرو بن العاص وفرسان العرب .

٦٤١

تسليم المقوقس قوروش حصن بابلون [قصر الشمع] للقائد العربى المنتصر . وإنشاء جامع عمرو .

٦٤٢

إنشاء الفسطاط معسكراً للعرب ، وحاضرة العصر الإسلامى الجديد ، وسقوط الإسكندرية فى أيدى العرب بعد حصار طويل .

٦٤٥

عودة الإسكندرية إلى الروم .

٦٤٦

أعاد عمرو فتح الإسكندرية .

٦٥٦

مقتل ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان ، على إثر ثورة بدأت فى مصر .

٦٥٦ — ٦٦١

خلافة على بن أبى طالب ، وقيام الحرب بينه وبين معاوية ، ودخول مصر

فى حكم الأمويين سنة ٦٥٨ .

٦٥٨ — ٧٥٠

دولة بنى أمية وعاصمتها دمشق : وقد حرصوا على أن لا تخرج ولاية مصر من أعضاء الأسرة الأموية .

٧٤٤ — ٧٥٠

التجاء مروان الثانى ، آخر الأمويين ، إلى مصر ومقتله فيها . ودفنه بأبى صير الملك ، إلى الشمال الغربى من أشمنت .

٧٥٠ — ٨٦٨

دولة بنى العباس فى بغداد . وهروب عبد الرحمن الأموى إلى الأندلس ، وخلافته بقرطبة (سنة ٧٥٦ م] . ثورات المصريين الأقباط .

٨١٣ — ٨٣٣

المأمون فى مصر لإخماد ثورة المصريين الأقباط وعصيان البدو . بدء انتشار اللغة العربية بين المصريين جميعا .

تغلب الأجناد الترك فى بلاط العباسيين .

استقلال مصر الإسلامية

[٨٦٨ — ١٥١٧ م]

الدولة الطولونية

[٨٦٨ — ٩٠٥ م]

٨٦٨ — ٨٨٣

أحمد بن طولون يستقل بمصر وسوريا حتى حدود العراق . المسجد الجامع الذى بناه ابن طولون فريد فى العمارة الإسلامية .

٨٨٣ — ٨٩٥

خمارويه بن أحمد بن طولون . لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلال مصر فعادت إلى حكم العباسيين (٩٠٥ — ٩٣٥)

٩٢٥

هجوم فاشل للفاطميين على مصر .

الدولة الإخشيدية
[٩٣٥ — ٩٦٩ م]

٩٣٥—٩٤٦

محمد بن طغج الإخشيد ، حاكم من أصل فرغانى : استقل بمصر .

٩٦٦ — ٩٦٩

كافور الخصى الحبشى يحكم مصر وصياً على أولاد الإخشيد ، ثم يحكم باسمه تابعاً للعباسيين ، فى مصر وفلسطين وسوريا . وبعد موته يحكم أحمد الإخشيد ، حفيد مؤسس الأسرة ، ولم يبلغ سن الرشد ، وينتهزها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها .

الدولة الفاطمية
[٩٦٩ — ١١٧١ م]

٩٦٩

جوهر الصقلى ، قائد المعز ، يفتح مصر وينشئ القاهرة عاصمة لمصر بعد الفسطاط والعسكر والقطايع .

٩٧٠

إنشاء الجامع الأزهر .

٩٧٣ — ٩٧٥

وصول المعز إلى القاهرة ومعه رفات أسرته ، ونقل خلافته إليها ، ووفاته بها .

٩٧٥ — ٩٩٦

العزيز بن المعز ، صديق العلم والعلماء . رخاء مصر فى عهده .

٩٩٦ — ١٠٢١

الحاكم بأمر الله ، ابن العزيز من أم نصرانية : ملك مجنون متعصب

سفاح . انتحل لنفسه نحلة درزية وتألّه ، وأسس داعيته ، درزى ، طائفة الدروز . مقتل الملك المشعوذ ، وهو فى تجواله الليلى بجبل المقطم ، بتدبير أخته ست الملك ، وإخفاء رمته . مما اتخذه الدروز ذريعة فى نشر خرافة ارتفاعه إلى السماء ، هروبا من شرور هذا العالم [والعالم هو الذى تخلص من شره وإجرامه !] وسيعود إلى الأرض يوما ، قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

١٠٢١ — ١٠٣٦

الظاهر ابن الحاكم : تولى الخلافة الفاطمية وهو ابن ستة عشر عاما ، تحت وصاية عمته ست الملك ، حتى عام ١٠٢٤ .

١٠٣٦ — ١٠٩٤

المستنصر : إمعة ، سىء الطالع . غاب النيل عن مصر سبع سنوات ، فنزلت بمصر أشد المجاعات ، وتداولها القحط والطواعين ، وثار الجند من الترك والبربر ، وعاثوا فساداً ، ودمروا القصر ، ونهبوا تحفه ، وأفنوا مكتبته .

واستطاع الأرمنى بدر الجمالى ، وزير الخليفة الإمعة ، إعادة الهدوء والنظام ، وبنى أسوار القاهرة وأبوابها ومسجد الجيوشى .

١٠٩٤ — ١١٠١

المستعلى ابن المستنصر : فتح بيت المقدس وبلاد الشاطئ السورى . ثم انتزعها منه جيش الصليبية الأول .

١٠٩٩

الملك بلدوين الصليبي ، صاحب مملكة أورشليم المسيحية : حاول غزو مصر وفشل ، ومات بالوباء على رمال شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالى سيناء . ويسميه مؤرخو العرب « بغدوين » و « بردويل » ، وهو أصل اسم بحيرة البردويل المشهورة إلى اليوم بمصايد سمك البورى ، وتحضير البطارخ من حيتانه .

١١٦٠ — ١١٧١

العاضد آخر الفاطميين : تنازع على الوزارة بين ضرغام وشاور . والتجأ

شاور إلى نور الدين صاحب دمشق ، فأعاده إلى مركز الوزارة ، بمعونة الأجناد الكرد ، تحت قيادة شيركوه وصلاح الدين يوسف آل ايوب . ولما اختلف شاور مع الأكراد ، استعدى عليهم أماالريق [أمورى] الأول ، الملك الصليبي. فدخل هذا مصر ، وطارد الأكراد وحاول — كما هى عادة رجال العصابات — أن يستغل وساطته فى الاستيلاء على مصر . فاستجار الأخرق الخائن شاور بنور الدين ، وأحرق الفسطاط [نوفمبر ١١٦٨] حتى لا يستولى عليها أماالريق. أو أمورى [وهو عمورى المؤرخين العرب] .

وجاء شيركوه وصلاح الدين فطاردا الصليبي إلى خارج البلاد ، وقضيا على شاور بالموت ، وتولى شيركوه الوزارة حتى وفاته (١١٦٩) .

فتولاها بعده صلاح الدين يوسف ، وحكم باسم آخر خلفاء الشيعة حتى وفاة هذا الخليفة ، ثم ارتقى عرش مصر وأسس دولة جديدة ، أعادت إلى مصر حكم السنة .

الدولة الأيوبية

[١١٧١ — ١٢٥٠ م]

١١٧١ — ١٢٠٠

أعظم ما يلفت النظر فى حياة صلاح الدين الأيوبى ، أنه وهو سلطان مصر ، بانى قلعة الجبل ، وأسوار القاهرة ، والذى اجتث المذهب الشيعى من مصر وأقام علوم السنة ، لم يزد لبثه بقاعدة ملكه أكثر من ثمانى سنوات . أما العشرون عاما الباقية فما كاد يغمد فيها حسامه وينزل عن جواده ، مقاتلا فى سبيل عقيدته . يندفع كالشهب بين فلسطين وسورية وما بين النهرين ، يحرق المعتدين بناره ، ويضرب الصليبيين فى بطولة وأريحية كانت مضرب المثل ، بين الأعداء قبل الأصدقاء ، فى فروسية العصور الوسطى .

١٢٠٠ — ١٢١٨

الملك العادل ، أخو صلاح الدين : استطاع المحافظة على تماسك الدولة

بعد ما حدث من تنازع ومشاحنات عقب موت البطل الأعظم . ويجب أن يذكر للسلطانة ، أم ابنه الملك الكامل، ذلك الأثر الجميل من آثار القاهرة: مقام الإمام الشافعى .

١٢١٨ — ١٢٣٨

الملك الكامل : صاحب المنصورة أنشأها سنة ١٢٢١ ، بعد أن دافع عن دمياط ضد الصليبيين الجرمان والنيرلنديين [الصليبية الخامسة] ، الذين استولوا على ذلك الثغر ، وكان يقع إلى الشمال من موقع دمياط الحالى ، وباعوا سكانها بيع الإماء ، ونهبوا متاجرها وآثارها ، وحولوا مساجدها إلى كنائس . ثم اضطرهم الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١ . فلما نزل لويس التاسع إلى البر ليحتلها سنة ١٢٤٩ [الصليبية السادسة] ، غادرها سكانها عن بكرة أبيهم ، ودخلها فرسان الصليب خاوية على عروشها ، وكأنهم يدخلون جبانة لا مدينة أحياء . وقد دفعوا ثمن صليبيتهم غالياً فى المنصورة، وكان إجلاؤهم عن دمياط ، أو إجلاء من بقى منهم حيًّا ، بعض الثمن الذى دفعوه فدية للقديس المحارب ، المحبوس فى بيت لقمان .

١٢٣٨ — ١٢٤٠

الملك العادل الثانى .

١٢٤٠ — ١٢٥٠

الصالح أيوب ، صاحب قلعة الروضة ، مهد المماليك البحرية : توفى عندما بدأ فرسان الصليبية السادسة [بقيادة لويس التاسع] يتحركون من دمياط متجهين إلى المنصورة. وأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته عن جيش المماليك الصالحية ، حتى لا يتفاشلوا ؛ وواصلوا المعركة بقيادة أبطالهم بيبرس وقطز وفارس الدين أقطاى. ثم وصل :

١٢٥٠

طورانشاه ، فسلمته شجرة الدر سلطنة أبيه ، وقاد المعركة إلى نهايتها الظافرة . ولكنه بعد الحرب لم يعرف الطريق إلى قلب مماليك أبيه ، فقتلوه .

دولة المماليك البحرية
[١٢٥٠–١٣٨٢ م]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والدة خليل » بن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوماً ، ثم تزوجت واحدا منهم هو :

١٢٥٠ — ١٢٥٧

عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية . ولاقى حتفه بتدبير أم خليل ، ولاحقته فى العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ — ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقدارى: قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صادقات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريقة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « إعمل برقك . فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك » . وخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوماً . فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلا : عزلت نفسى ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه . . . كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبنى الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه . سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ — ١٢٩٠

المنصور قلاوون : حارب المغول وصدهم . وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به . وكانوا من أعظم البناة فى تاريخ مصر منذ عهد الأسرات .

١٢٩٠ – ١٢٩٣

الأشرف خليل : قضى على آخر حصن صليبى فى الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا ، سنة ١٢٩١ .

١٢٩٣ – ١٣٤٠

الناصر محمد بن قلاوون : أعظم سلاطين المماليك ، تولى الملك وهو ابن تسع سنين . وطورد من الملك أكثر من مرة . وعاد إليه أقوى سنداً ، وأكمل شخصية . وأشهر أمراء هذا السلطان هو الأمير عماد الدين أبو الفداء ، صاحب حماة ، العالم المؤرخ والجغرافى الأشهر فى تاريخ العلوم العربية [توفى سنة ١٣٣١] . وكان الناصر بناء عظيماً . وجميع ما ترك من آثار تعد فى مقدمة كنوز القاهرة . هذا والسور المائى الكبير ، فيما بين فم الخليج والقلعة . المعروف بسور « السبع سواقى » ، من آثار الناصر محمد .

١٣٠٣

حدثت زلزلة مشهورة ، هدمت غير قليل من مبانى القاهرة .

١٣٤٧ – ١٣٦١

السلطان حسن هو الابن السادس للناصر محمد . ربما نسى الناس الوباء الفظيع الذى نزل بمصر إبان حكمه . فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ . ولكنهم يذكرون له أعظم أثر مصرى فى القرون الوسطى : وهو مسجده . بأول سوق الخيل . وإذا سألتنى عما أضع من الآثار المصرية فى أول القائمة أجبتك : معبد سيتى الأول بأبيدوس [العرابة المدفونة] ، ومسجد السلطان حسن أمام قلعة صلاح الدين .

ومات صاحب المسجد قتيلا شر قتلة . وستطالع كثيراً من مقتلات هؤلاء السلاطين ، وقل من مات منهم على فراشه ، وبعضهم ألقيت جثته فى ساقية ، أو فوق تل من القمامة !

دولة المماليك الجراكسة
[١٣٨٢ — ١٥١٧ م]

١٣٨٢ — ١٣٩٩

آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحرية كان الغلام حاجى ، وسنه ست سنوات . وكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسى برقوق . فأزاح الغلام عن كرسى المملكة . وغضب الأمراء وطردوا برقوق ، ولكنه عاد بعد سنة . وكانت السلطنة المصرية بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، لأن جنساً جديداً من برابرة أواسط آسيا ، من المغول بقيادة تيمور الأعرج (لنك) بدأ يزحف على الشرق الأدنى . فدفع برقوق غائلته ، ثم أتبع ذلك بمحاربة الغازى بايزيد الأول ، خان العثمانيين . وكان برقوق بناء عظيماً .

١٣٩٩ — ١٤١٢

السلطان فرج : حدث فى الثالثة عشرة من عمره ، ابن برقوق : تولى السلطنة . والعثمانيون يهددون ولايات مصر الشمالية ، وسافر فرج حتى بلغ دمشق . وإذا بأمرائه الثائرين يضطرونه إلى العودة إلى القاهرة . وفى هذه الأثناء يكون تيمورلنك قد هزم العثمانيين فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ . وتلجأ السلطنة المصرية إلى مفاوضته ومصانعته . ولكن أيام الفتى فرج أصبحت معدودة ، حتى قضى عليه الأمراء ، وعلى رأسهم الأمير شيخ المحمودى .

١٤١٢ — ١٤٢١

السلطان المؤيد شيخ ، صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة ، بداخل باب زويلة : وكان المؤيد من أشد الملوك اضطهاداً لغير المسلمين . وقد حكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص، وعمامات سوداء ، وبحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب تغل فى رقابهم . وكانت أكثر تجريداته ضد أمرائه فى سورية .

١٤٢٢ — ١٤٣٨

الأشرف برسباى : أزاح الطفل ابن المؤيد شيخ ، وسافر يحارب فى قبرص، ويجاهد ضد المغول .

١٤٦٨ - ١٤٩٦

قايتباى : آخر السلاطين العظام سياسة وجهاداً ، قاوم قوى العثمانيين الصاعدة المنقضة - أيام سلاطينها الغزاة محمد الفاتح وبا يزيد الثانى - بفضل قائد عسكره الأمير أزبك . وجامع أزبك كان يقوم على حافة منخفض الأزبكية . وقد أنشئ فى ذكرى انتصاره على العثمانيين . هدم هذا المسجد سنة ١٨٦٩ . فى حكم إسماعيل . وما أكثر ما هدم من مساجد أثرية فى عهد إسماعيل! ونظم مسيو باريبه . مدير حدائق باريس . حديقة الأزبكية فى مساحة عشرين فداناً . وهى الحديقة التى عرفناها فى أواخر عزها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال . فندور فى الحديقة نقضم أطرافها . وننتف ريشها ونقتلع أشجارها . حتى أمست أشلاء خضراء، وسط خضم من السيارات، والأتوبيسات ولقايتباى أكثر من مسجد . ولكن مدفنه بالقرافة تحفة من أروع التحف . حرصنا على أن تبقى تربة ضمن الترب !

١٥٠١ — ١٥١٦

ها نحن نقترب بقلوب واجفة من نهاية تاريخ مصر المستقلة : يعتلى العرش السلطان الشهيد قانصوه الغورى ، الوحيد من بين كل أولئك السلاطين يموت فى حومة الوغى ، مدافعاً عن سلطنته فى مروج الشام . إلى الشمال من حلب . لقد صعد إلى الكرسى بعد أن أوفى على الستين ، وكان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الطويل إلى الهند . حول جنوب أفريقيا ، فقضوا على المركز التجارى الممتاز الذى كان لمصر . وأخذوا يهددون بلاد المحيط الهندى وجنوبى البحر الأحمر . بيد أن السلطان الشيخ لم يقف مكتوف اليدين . بل جهز أسطولا يحارب البرتغاليين فى بحار الهند ، ويكسرهم فى موقعة « شول » إلى الجنوب من بومباى سنة ١٥٠٨ . وهذا الخطر الجنوبى لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لخطر الشمال : فسليم بن بايزيد زاحف على حدود الإمبراطورية المصرية فى شمال سورية . وقد خرج الغورى لمحاربته . فاندحرت الجيوش المصرية فى « مرج دابق » . وساعد على اندحارها خيانة بعض أمراء السلطان . وإبان المعركة . مات السلطان وهو على جواده . وقبته ومسجده بالغورية يتيمان من جثمانه . إذ لم تعرف له جثة من بين الآلاف الذين قتلوا فى المعركة .

١٥١٧

ولم يبق لطومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، إلا أن يقاتل حرب الساقة بأرباض القاهرة ، وأن يثيرها على سليم حرباً فى شوارع القاهرة ، وينتهى أمره بالأسر فالشنق على باب زويلة .

وتتحول مصر إلى إيالة عثمانية ، « عثمانلى باشاليك » . يحكمها ، نائباً عن السلطان سليم ، الأمير خاير بيك أو خاين بيك فى لغة المصريين . وينقل الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى إسطنبول حيث يبقى حتى موت سليم سنة ١٥٢٠ . ويعود «المسكين لله» إلى القاهرة، وفيها يلاقى ربه. بعد أن أقام العثمانيون فى إسطنبول خرافة تنازله عن الخلافة لآل عثمان وهى الخلافة التى محا كمال أتاتورك أثرها من فوق الأرض فى مارس سنة ١٩٢٤ .

مصر الحديثة

[١٥١٧ — ١٩٥٦ م]

لفهم الحكم العثمانى يجب إدراك حقيقة أساسية . وهى أنه تدهور سريعاً جداً فى مصر . بسبب نظام فى الإدارة هو الاختلال بعينه . ولأن الباشوات الولاة كانوا فى غالبيتهم قليلى الخبرة . طماعين . ملوثين خلقياً ، حتى من كان منهم على شىء من الخلق اضطرته طريقة « تقديم الحساب » . بعد نهاية ولايته القصيرة — من عام إلى عامين ، ولا حساب هناك يعتد به — عندما تحمل ذمته بمبالغ ليست فى الحسبان . ولم تدر فى خلد . أن « يعمل حساب » المستقبل بما يقيه شر النائبات .

ولأن أمراء المماليك استعادوا سلطانهم الفعلى على البلاد دون أن يخضعوا لمصلحة عليا .

لهذا استحال الباشوات والأمراء المماليك وجيش الاحتلال العثمانى [الوجاقات] إلى منسر من قطاع الطرق . وكان البيكوات المماليك هم كشاف الأقاليم [أى مديريها] وجامعى ضرائبها ورؤساء الجند فيها . ويتولى زعامة المماليك كبيران منهم :

شيخ البلد وأمير الحج . واختلطت الوجاقات العثمانية بأخلاط من أجناد المماليك وغيرهم من حثالات الشرق الأدنى ، بل كان الأغاوات ، أى قواد الفرق . يدرجون فى قوائم وجاقاتهم أسماء لا وجود لها . طمعاً فى زيادة العلوفة والجماكى .

والصورة التى بقيت لنا من تلك « العصور المظلمة » حقـًا . صورة مهزوزة سوداء فى احمرار داكن . يبدو فيها من هنا وهناك أضواء جهنمية ، تؤكد حقيقة الحياة المصرية فى ذلك الزمان . كانت شيئاً أشبه بجحيم دانتى فى أقسى طوابقه .

١٧٦٨

على بيك الكبير . البروفة الأولى لمحمد على باشا : مملوك استقل تماماً بحكم مصر عن السلطنة واستولى على سورية .

١٧٧٣

حتى خانه مملوكه محمد بيك أبو الدهب . ونجح فى القضاء عليه ، واستولى على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشاهانية .

وبعد موته . تقاسم السلطة زعيمان كبيران وشيخان من شيوخ المنسر المملوكى : مراد بيك المحمدى . وإبراهيم بيك المحمدى ، نسبة إلى محمد بيك أبى الدهب .

١٧٩٨

وفيما بين أول يولية والثانى منه . سنة ١٧٩٨ ، اقتحم جيش « الجمهور الفرنساوى » بقيادة سارى عسكر بونابارته ، أسوار الإسكندرية دون مقاومة تذكر . وتقدم إلى شبريس وهزم مراد بيك ، وبلغ إنبابة وكسر جموع المماليك فى موقعة إنبابة المشهورة باسم موقعة الأهرام ، فى الواحد والعشرين من يولية . ودخل القاهرة . وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصى الصعيد . حتى تم « للجمهور الفرنساوى » — أى الجمهورية الأولى للثورة الفرنسية — الاستيلاء على الإيالة المصرية فيما بين يناير ومايو ١٧٩٩ .

١٧٩٨

ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنساوية: نشبت وأخمدت فيما بين ١٣ و ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وجاء اندلاع لهيبها عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي فى جونة أبى قير فى أول أغسطس ١٧٩٨ .

١٧٩٩

وبعد عام من معركة أبى قير البحرية ، عاد بونابرت سراً إلى فرنسا فى ٢٤ أغسطس ١٧٩٩ .

١٨٠٠

وجاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين ، وهزمهم كليبر فى العشرين من مارس سنة ١٨٠٠ ، بالمطرية . ثم قتل سليمان الحلبى الجنرال كليبر فى حديقة بيته فى ١٤ يونية ١٨٠٠ ، وتولى القيادة الجنرال عبد الله منو ، لينتهى بتسليم :

١٨٠١

القاهرة والإسكندرية فى سبتمبر ١٨٠١ ، وبالجلاء هو وجنده نهائياً عن مصر. وقد عاد الفرنسيون إليها فى نوفمبر ١٩٥٦ لبضعة أيام قضوها فى بورسعيد ، ثم خرجوا منها على وجوههم عفرها الخزى والشنار .

وكان فى ضباط الحملة العثمانية ضابط مقدونى من قولة ولد سنة ١٧٦٩ . وكان يفخر بأنه من مواليد العام الذى ولد فيه نابليون بونابرت بأجاكسيو من أعمال كورسيكا .

وعينه الوالى خسرو باشا كوارنيل [سرششمة] للفرقة الألبانية حتى يعينه على أجناد المماليك . ولكن محمد على لم يجيء إلا لمعونة نفسه ، على حساب المماليك ، والباشوات العثمانيين ، والشعب المصرى نفسه فيما بعد . وانتهى به الحال إلى أن يلبسه الشيخة المصريون كرك الولاية ، وعلى رأسهم الرجل الطيب أكثر من اللازم ، نقيب الأشراف عمر مكرم .

١٨٠٥

وصعد محمد على إلى القلعة سنة ١٨٠٥ ، وبدأ حكمه بطرد السيد عمر مكرم

من القاهرة ، ثم بمصالحة المماليك حتى يتخلص من الاحتلال البريطانى للإسكندرية .

١٨٠٧

ولما حاول الإنجليز العودة إلى مصر ، عن طريق احتلال رشيد ، أجلاهم شعب هذه المدينة الباسلة فى أبريل سنة ١٨٠٧ .

١٨١١

وقتل محمد على ٤٨٠ أميراً مملوكيًا فى داخل القلعة . وقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون إلى الحجاز لحرب الوهابيين . وإذا بأبواب القلعة تقفل ؛ وفرسان المماليك محصورون فى المنحدرات الضيقة المتجهة إلى الباب . وطاح الألبانيون فيهم ضرباً بالرصاص فالسلاح الأبيض . وذلك فى أول مارس سنة ١٨١١ .

١٨١٩

وقضى محمد على على سلطة الوهابيين سنة ١٨١٩ ، وقد تولى قيادة الحملة المصرية ابنه طوسون أولا ، ثم ابنه ، وقيل ابن زوجته ، إبراهيم، وحان الوقت ليتخلص محمد على من عصاباته الألبانية ، فأرسلها للحرب فى فيافى النوبة والسودان . وقد بدا له أن « النظام الجديد » فى الجندية يسمح له بحشد أولاد الفلاحين تحت قيادة ضباط أجانب من كل ملة ولون وجنس . وأثبت هذا الجيش بقيادة إبراهيم — وبشهادته — قدرة فائقة على القتال. ولكن أول المواقع التى خاضها أول جيش مصرى منذ عهد الأسرات :

١٨٢٤ — ١٨٢٧

كانت لمساعدة العثمانيين على مقاومة الشعب اليونانى الباسل ، هب فى وجه مستعمريه البرابرة ، ينتزع منهم استقلاله . وانتهت تلك المواقع — ولا فخر — بإخماد ثورة التحرير اليونانية !

ودمر الأسطول المصرى فى موقعة نافارين ، وقد انحصر بين أساطيل الروسيا وبريطانيا وفرنسا .

١٨٣٢ — ١٨٣٣

وانقلب الذى كان يساعد أسياده حتى سنة ١٨٢٧ ، إلى عدو لهم يضرب ظهورهم ، بعد هزيمتهم الكبرى أمام الروس فى حرب ١٨٢٨ — ١٨٢٩ . فقد خرج الجيش المصرى يفتح سورية وآسيا الصغرى بقيادة إبراهيم باشا ، وتألبت الدول العظمى على مصر ، وفرضت على محمد على معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣ .

١٨٣٩

ثم قام السلطان محمود — الذى أطلق محمد على اسمه على ترعة المحمودية — لمحاربة محمد على ، عندما رآه يتوغل فى جنوب الجزيرة العربية .
وإذا إبراهيم ينقض على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، ويهزمهم فى موقعة « نزيب » إلى الغرب من نهر الفرات الأعلى .

١٨٤١

وتعود جيوش إنجلترا والنمسا لتملى إرادتها على محمد على . وقد خضع وسلم للباب العالى سنة ١٨٤١ . وذهب فى أحسن بزة إلى إسطنبول يركع ويسجد ، ويقبل يد سيد المابين . وخليفة رب العالمين . ظل الله على الأرض !
ولا يبقى للألبانى المغامر سوى مصر شفالك له ، ولأكبر أفراد أسرته من بعده . إلا بعض شروط تبعية ، منها جزية سنوية قدرها ثمانون ألف كيس [أى ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ ألف جنيه] . ويصاب الجبار بالعته فى أخريات أيامه .

١٨٤٨

فيتولى الحكم ابنه . أو ابن زوجته . إبراهيم لبضعة أشهر ، حتى وفاته قبل أبيه سنة ١٨٤٨ .

١٨٤٩ — ١٨٥٤

يتولى عباس الأول باشوية مصر . وهو ابن طوسون بن محمد على . ويموت محمد على فى صيف ذلك العام ، ويكون حفيده قد شرع فى تبطيط ما حرثه

جده ، والقضاء على بواقى الخير من أعماله وإصلاحاته . وينفى إلى السودان باعث النهضة الفكرية فى مصر رفاعة الطهطاوى ورفاقه ، ومنهم نابغة نوابغها ، بيومى أفندى .

ويموت عباس الأول مقتولاً بيد جماعة من أخصائه، ورفقاء متعته . فقد كان مصاباً بلوثة جنسية .

١٨٥٤ — ١٨٦٣

ويتولى سعيد ، الشاب السمين المترف ، هاوى المظاهرات العسكرية فى البر والبحر ، وقد تربى تربية بحرية . وكان شابًا عصريًا ، بدأ فى زمانه زحف المغامرين الأوربيين وغيرهم . وعلى رأسهم فردينان دى لسبس الشاب الأنيق الممشوق القوام ، الذى كان يجيد الرقص وركوب الخيل ، واستغلال صداقة الباشا . وقد حصل من سعيد على امتياز الشركة العالمية لقناة السويس .

ويمتد خط القاهرة الإسكندرية الحديدى . ويعود الجيش المصرى لمساعدة الباب العالى فى حرب القرم .

١٨٦٣ — ١٨٧٩

اسماعيل الأفخم ، الابن الثانى لإبراهيم . وقد أوفد إلى فرنسا ليتعلم . فكان كأبناء الذوات الفاسدين، بروفة أولى لحفيده الملك المعظم . لم يحصل فى فرنسا إلا على قشور الحضارة الغربية . ولذلك اتسمت أعماله بالتظاهر والفخفخة . وبذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد . وينجح فى الاستيلاء على خمس الأراضى المنزرعة لنفسه ، دون أسرته ، ويشترى سنة ١٨٦٦ . بفلوس المصريين . حق بقاء كرسى الولاية فى أولاده . وفى السنة التالية يشترى . من نفس المصدر لقبًا فارغًا أهم ما فيه لكنته التركية « خديو » . أما معناه فلا يتعدى قولك نائب السلطنة فى مصر !

وينثر الذهب كأنه « ملحة فى عين اللى ما يصلى عالنبى » على حفلات افتتاح قناة السويس. بطريقة لم يعرف لها التاريخ شبهاً فى السفه . ثم يشترى قسطاً من استقلال مصر يسمح له بشىء هام جداً : وهو حق استدانة ما يشاء ممن شاء . وترتفع الجزية المصرية إلى ٧٠٠٠٠٠ جنيه، ويبلغ بجيشه ثلاثين

ألف رجل يرسلهم لفتح أعالى النيل حتى حدود الحبشة وحتى خط عرض ۲ درجة شمالى خط الاستواء . ويتضخم الدين أصلا « وفوائد » ، حتى يبلغ فى آخر حكمه مائة مليون جنيه ، فيحجز على أملاكه ، وتفرض عليه وزارة يرأسها أرمنى ، وزير ماليتها بريطانى ، ووزير الأشغال فيها فرنسى . ولكن الخديو يلعب بذيله . ويحاول أن يتهرب من وفاء الدين ، فيعين وزارة شريف باشا سنة ۱۸۷۹ . من وراء ظهر الدول المستعمرة التى لبست لبوس المرابين . فتضيق صدورها به ، وتطالب الإستانة بعزل الحضرة الفخيمة الخديوية . وتنزل ورقة الرفتية على ولى النعم نزول الصاعقة .

ويتولى الحكم بدله ابنه توفيق . وهو كالحمل الوديع . اشتراه الذئاب الأوربيون ليأكلوه فى عيدهم الكبير .

۱۸۸۲

وجاء هذا العيد صباح ۱۱ يولية سنة ۱۸۸۲ ، احتفلت به بريطانيا بإطلاق مدافع أسطولها على طوابى الإسكندرية وغير طوابيها . ونزلوا بالمدينة فى اليوم التالى بملابس العيد الحمراء والبيضاء . ثم استدارت الجيوش البريطانية واعتدت على حياد القناة المزعوم ، وظفرت بجيش عرابى بالتل الكبير فى ۱۳ سبتمبر ۱۸۸۲ . وكان قد قضى ليلته . قبل الموقعة . هو وجنوده ، فى الأذكار . بحسبان أن البريطانيين ما زالوا . . . على مدد الشوف . ودخل جيش الاحتلال لحماية الحمل الوديع محمد توفيق . من الغول المصرى الذى قاده أحمد عرابى لتحرير مصر من ربقة الجراكسة والأرنؤد . ونسى عرابى القائمة الطويلة من مصاصى دماء المصريين . وأن الأمر خرج منذ زمن طويل من أيدى أسرة محمد على إلى الدائنين والمستعمرين والمستغلين . وحوكم زعيم الوطنية المصرية . ونفى إلى سيلان . وعاد منها شيخاً محطماً عام ۱۹۰۱ . ومات بالقاهرة سنة ۱۹۱۱ .

۱۸۸۳

وفى عام ۱۸۸۳ يتولى حكم مصر الفعلى ، تحت اسم قنصل بريطانيا الجنرال . المدعو إيفلن بيرنج ، وهو الذى اشتهر فى تاريخ الاستعمار باسم

اللورد كرومر . بطل دنشواى السفاح . وكان رجلا مصلحاً من النوع الذى عرفته مصر منذ عهد محمد على ، أى عبقرياً ينظم شئون البلاد كأن أهلها قطعان من الماشية ، يعملون لحساب حضرة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا ، وإمبراطورة الهند ، وحساب الدائنين .

١٩٠٢

وكان كل هم كرومر أن يزيد من حصيلة البلاد ، باعتبارها شفالات للمستعمرين . وكان أعظم عمل قام به ، بعد تنظيم المالية والإدارة هو بناء خزان أسوان ، الذى احتفل بافتتاحه فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ .

ولم يبق علىّ فى استعراض هذه الصفحة السوداء من تاريخ مصر إلا أن أشير إلى جهاد بطلين من أبطال الوطنية المصرية ضد الاحتلال : مصطفى كامل ومحمد فريد . وقد مات الأول فى عنفوان رجولته ، وحمل محمد فريد راية الجهاد ، وذهب بها إلى أوربا وقد أعلنت الحرب العظمى الأولى . وسقط بطل الوطنية الثانى بعيداً عن وطنه . وكانت الظواهر كلها تنبئ بأن الوطنية برد أوراها . وقد يتمت البلا د من أبطالها صرعى ومنفيين . وأعلنت بريطانيا زوال السيادة التركية عن مصر . وأقامت بدلها الحماية البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وفى اليوم التالى . قررت عزل الخديو عباس حلمى بن محمد توفيق . وأعلنت عمه حسين كامل سلطانا على مصر .

١٩١٧

وبعد وفاته تولى أخوه باسم حضرة صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد .

١٩٢٢

وفى ٢٨ فبراير أعلنت بريطانيا زوال الحماية . واعترفت باستقلال مصر [كذا كذا كذا] ! وعندما وافق البرلمان البريطانى على ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير . وكان ذلك فى ١٥ مارس . رقى فؤاد من سلطان إلى ملك . باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول .

١٩٢٣

وفى أبريل سنة ١٩٢٣ . منح جلالته « شعبه العزيز » دستوراً . لم يتنبه

الناس حينئذ إلى صدوره فى شهر . . . . أبريل .

* * *

١٩١٨

لقد سئمت الخوض فى تلك الأحداث ، وآن لى أن أختم هذه العجالة متلمساً ضوء الأمل ، أشرقت به نفوس المصريين عندما تولى سعد زغلول ، ابن فلاح من مطوبس ، زعامة الوطنية المصرية . وجاهد فى سبيل استقلال مصر من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى وفاته فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وقد دفعته

١٩١٩

إلى الأمام ، ودفعها ، ثورة الشعب المصرى عن بكرة أبيه ، فى مارس سنة ١٩١٩ . والقليل الذى حصلت عليه مصر فى الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة . أما الذى حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية ، هو جامعتها المصرية ومصرفها الوطنى أسسه محمد طلعت حرب ، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثالون . هم ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، ورأى بعينيه . وأحس بكل جوارحه ، كيف باعت تلك الثورة بالخيبة على يدى الملك وأعوانه . وأصحاب المصالح ، من كل لون وصنف ، يتواطئون مع المحتل ومع رأس المال الأجنبى ، ويسيرون بتلك النهضة الحضارية الرائعة فى الدرب الضيق الذى أقاموا له حدوداً وسدوداً باسم « التقاليد » . حتى وفقوا فى مدي ثلاثين عاماً إلى أن يخضعوا أعظم حركة شعبية فى تاريخ مصر الحديثة لأغراضهم . ويسخروها لمنافعهم . فانتهت إلى مهزلة فى شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع ، على يدى آخر ملوك أسرة محمد على .

١٩٥٢

ثم تطلع الشمس ، بعد ذلك الفجر البعيد فى مارس سنة ١٩١٩ ، ذات صباح من يولية ١٩٥٢ ، فيعرف المصريون أن ثورة من الضباط الأحرار ضد الملك قامت بعد منتصف ليل ٢٣ يولية ، ويندفعون لمؤازرتها بقوة روحية عارمة ، تنتهى بطرد آخر أفراد أسرة الأرنؤدى ، وتولية طفل يحمله أبوه قماطه ، مولياً الأدبار إلى كعبة كابرى ، ثم إلى روما .

١٩٥٣

وما يلبث زعماء « ثورة البعث الكبرى » أن يعلنوا نهاية الملكية الزائفة ، وليدة الاحتلال البريطانى، وقيام الجمهورية المصرية الأولى فى التاريخ وذلك فى يولية سنة ١٩٥٣ .

١٩٥٦

ويخرج آخر جندى بريطانى من مصر فى ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .

وتعود قناة السويس إلى أهلها فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ .

ثبت المراجع

إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى . القاهرة د . ت . [= دون تاريخ]

إرمان (أدولف) ورانكة (هرمان) : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . القاهرة د . ت .

ابن إياس (محمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٨٩٦ — ١٨٩٨ .

بدوى (أحمد) فى موكب الشمس ؛ جزءان . القاهرة ١٩٥٠ .

بدوى (أحمد أحمد) . رفاعة الطهطاوى بك . القاهرة د . ت .

تباى (رفائيل) : قوى التفرنج فى الشرق الأوسط . « المجلة » ، عدد سبتمبر ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء التى صدرت .

الترك (نقولا) : ذكر ملك الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية . باريس ١٧٣٩ .

الجبرتى (عبد الرحمن) : عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار . القاهرة ١٩٠٤ (طبعة أهلية) .

ابن جبير (محمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ .

حبشى (بانوب) : شنودة الأتريبى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

حسن (سليم) : مصر القديمة . الأجزاء التى صدرت . القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٥٧

حسن (على إبراهيم) : مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . القاهرة ١٩٥٤ .

حسن (على إبراهيم) : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ١٩٤٨ .

حسين (محمد كامل) : متنوعات . القاهرة ١٩٤٧ .

حمزة (عبد القادر) : على هامش التاريخ المصرى القديم . مجلدان . القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١ .

الرافعى (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٣٩ .

الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ؛ جزءان . القاهرة ١٩٣٢ .
روفيلة (يعقوب نخلة) : تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٨٩٨ .
ابن زنبل الرمال : رسالة مشتملة على غزوة السلطان سليم خان مع السلطان أبى النصر قانصوه الغورى . القاهرة ١٨٦١ .
سامى (أمين) : تقويم النيل ؛ ثلاثة أجزاء وملحق . القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ .
سرور (محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر . القاهرة ١٩٣٨ .
« « : الظاهر بيبرس ، وحضارة مصر فى عصره . القاهرة ١٩٣٨
السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة١٨٨١
الشرقاوى (محمود) : مصر فى القرن الثامن عشر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٥ . ١٩٥٦ .
شكرى (منير) : أثناسيوس الرسولى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى . الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
شكرى (منير) : المسيحية وما تدين به للقبط ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٥١ .
صالح (عبد العزيز) : التاريخ فى مصر القديمة ، مفهومه ، عناصره ، بواعث القومية فيه . القاهرة ١٩٥٧ .
صالح (عبد العزيز) : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة . القاهرة د . ت .
صالح (عبد العزيز) : قصة الدين فى مصر القديمة ؛ « المجلة » ، عدد نوفمبر ، القاهرة ١٩٥٨ .
صبرى (محمد) : كتاب القناة ، أسرار قضية التدويل ، واتفاقية ١٨٨٨ . القاهرة ١٩٥٧ .
الطهطاوى (رفاعة رافع) : تخليص الإبريز . فى تلخيص باريز . القاهرة ١٩٥٨ .
طوسون (عمر) : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول

وسعيد . الإسكندرية ١٩٣٤ .
طوسون (عمر) : الجيش المصرى فى الحرب الروسية ١٨٥٣ — ١٨٥٥ . الإسكندرية ١٩٣٦ .
طوسون (عمر) : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى . القاهرة ١٩٤٠ .
ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن): كتاب فتوح مصر والمغرب. نيوهفن ١٩٢٢.
ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج) : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
عبد المسيح (يسى) : اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
عبد المسيح (يسى) : ساويرس بن المقفع ، وآثاره الأدبية ، من رسالة مارمينا العجايبى . الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
عبد النور (راغب) : أوريجانوس ، وآثاره الأدبية ، من رسالة مارمينا العجايبى . الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
عبد الوهاب (حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان . القاهرة ١٩٤٦ .
فخرى (أحمد) : مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٥٧ .
فوزى (حسين) : سندباد مصرى . القاهرة ١٩٣٨ .
« « : حديث السندباد القديم . القاهرة ١٩٤٣ .
« « : سندباد إلى الغرب . القاهرة ١٩٥٠ .
القمص (منسى) : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ .
كامل (مراد) : القبط فى ركب الحضارة العالمية ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
كامل (مراد) : يوحنا النقيوسى ، من رسالة مارمينا العجايبى . الرابعة الإسكندرية ١٩٥٠ .
كمال (أحمد) : العقد الثمين . فى محاسن أخبار ، وبدائع آثار ، الأقدمين المصريين . القاهرة ١٨٨٢ .
لبيب (باهور) : الآثار القبطية ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤ .

مجدى (صالح) : حلية الزمن ، بمناقب خادم الوطن . نشر جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٥٨ .

المسعودى (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الفضة . القاهرة ١٩٣٨ (طبعة أهلية) .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : المواعظ الاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٨٥٣ .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : كتاب السلوك ، لمعرفة الملوك ؛ نشر محمد مصطفى زيادة ، جزءان . القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٤٢ .

ابن المقفع (ساويرس الأشمونين) : رسالة فى الرد على أفتخيوس بن بطريق .

مكرم (موريس) : ابن كبر ؛ من رسالة مارمينا العجايبي ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

الملاخ (فتحى يونان) : كيرلس الرابع ؛ رسالة مارمينا العجايبي ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

ابن مماتى (شرف الدين أبو المكارم) : قوانين الدولة ؛ نشرعزيز سوريال عطية . القاهرة ١٩٤٣ .

ميخائيل (فايق) : كيرلس الكبير ؛ من رسالة مارمينا العجايبي ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

ميخائيل (ملاك) : باخوميوس ؛ من رسالة مارمينا العجايبي ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

النابلسى (فخر الدين عثمان) : تاريخ الفيوم . القاهرة ١٨٩٨ .

ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط ؛ من رسالة مارمينا العجايبي ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤.

ولسون (جون) : الحضارة المصرية ؛ ترجمة أحمد فخرى . القاهرة د . ت .

Albright (W.F.) : From the Stone Age to Christianity; "Anchor"; New York, 1957.
Amélineau (E.) : Contes et romans de l'Egypte chrétienne; 2 vol., Paris 1888.

Amélineau (E.) : Vie de Schnondé :Moines égyptiens;; Paris 1889.
Arberry (A.) : The Contribution to Islam; "The Legacy of Egypt"; Oxford 1942.

Atiya (A.S.) : The Crusades in the Later Middle Ages; London 1938.
Aveline (C.) et Al.: Egypt; "Hachette World Albuns"; Paris 1955.
Aymard (A.) : La civilisation égyptienne; "Hist. gén. des crilisations; dir. Crouzet"; T. I; Paris 1953.

Baedeker : Egypt and the Sudan, Handbook for Travellers; Leipzig 1929.
Bainville (J.) : l'Expédition française en Egypte; "Précis de l'hist. d'Egypte" T. III; le Caire 1933.

Band (M.) : Egypte; "les guides bleus"; Paris 1950.
Bell (H.I.) : Egypt from Alexander the great to the Arab Conquest; Oxford 1948.

Bell (H.I.) : Egypt and the Byzantine Empire; "The Legacy of Egypt."
Blackman (W.S.) : The Fellahin of Upper Egypt; London 1927.
Blochet (R.) : Histoire d'Egypte de Makrizi; Paris 1908.
Boreux (C.) : Département des antiquités égyptiennes; "Musée du Louvre"; 2 vol.; Paris 1932.
Bouvier - Lapierre (P.) : L'Egypte préhistorique; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. I; le Caire 1932.

Breasted (J.H.) : A History of Egypt; New York 1905 et 1909.
Breasted (J.H.) : The Dawn of Conscience, New York 1933.
Breccia (E.) : Alexandria ad Ægyptum; Bergame 1922.
Butcher (E.L.) : The Story of the Church of Egypt; 2 vols; London 1897.
Butler (A.) : The Ancient Coptie Churches of Egypt; 2 vols; Oxford 1884.
Butler (A.) : The Arab Conquest of Egypt; Oxford 1902.
Capart (J.) : La Beauté égyptienne; Bruxelles 1943.
Capart (J.) : Egyptian Art; "The Legacy of Egypt."
Capart (J.) et Contenau (G.): Histoire de l'Orient ancien; Paris 1936.
Canivet (R.) et Fort (M.) : l'Egypte, pages littéraires et d'histoire, Paris 1923.

Carré (J.-M.) : Voyageurs et écrivains français en Egypte; 2 vol.; le Caire 1933.

Champdor (A.) : Saladin, le plus pur héros de l'Islam; Paris 1956.
Charlesworth (M.P.) : The Roman Empire; "Home Unversity Library"; Oxford 1951.

Charles-Roux (F.) : L'Egypte de 1801 à 1882 et de l'ocupation française à l'indépendance; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux, T. VI et T. V et VII; Paris 1936 et 1940.
Chauvin (V.) : La légende égyptienne de Bonaparte; Mém. Soc. Art et lettres du Hainant; T. IV; Mons 1902.
Childe (G.) : Whal Happened in History; "Penguin"; London 1942.
Childe (G.) : The Prehistory of European Society; "Penguin"; London 1958.
Colvin (A.) : The Making of Modern Egypt; London 1911.
Combe (E.) : L'Egypte ottomane; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
Contenau (G.) et Chapot (V.) : L'Art antique; "Hist. universelle des arts", dir. L. Réau; Paris 1930.
Cowell (F.R.) :Cicero and the Roman Republic; "Penguin";London 1956.
Creed (J.M.) : Egypt and the Christian Church; "The Legacy of Egypt".
Creswell (K.A.C.) : A Short Account of Early Muslim Architecture; "Penguin"; London 1958.
Creswell (K.A.C.) : Islamic Architecture in Egypt; "Baedeker's".
Cromer (E.B.) : Modern Egypt; 2 vols; London 1908.
Cromer (E.B.) : Abbas II; London 1915.
Dawson (C.) : The Making of Europe; London 1932.
Dawson (W.R.) : Medicine; "The Legacy of Egypt".
De Burgh (W.G.) : The Legacy of the Ancient World; "Penguin"; 2 vols; London 1953.
Dehérain (H.) : L'Egypte turque, du XVI. au XVIII. S. L'Exp. de Bonaparte; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. G. Hanoteaux; T. V.; Paris 1934.
Deroches-Noblecourt (C.) : Le style égyptien; Paris 1942.
Devonshire (Mme.) : L'Egypte musulmane et les fondations de ses monuments; Paris 1926.
Didier (C.) : Les nuits du Caire; Paris 1860.
Diehl (C.) : L'Egypte chrétienne et byzantine; "Hist de la nat. ég.", dir. Hanoteaux; T. III; Paris 1933.
Driault (E.) : Mohammed Ali et Ibrahim; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
Drioton (E.) : Pages d'égyptologie; le Caire 1957.
Drioton (E.) et Lauer (J.-P.) : Sakkara; le Caire 1939.
Drioton (E.) et Vigneau (A.) : Le Musée du Caire; Paris 1949.
Drioton (E.) et Vandier (J.) : L'Egypte; "Clio"; Paris 1952.
Drower (M.S.) : The Political Approach to the Classical World; "The Legacy of Egypt".

Ebers (G.) : An Egyptian Princess.
Ebers (G.) : Uarda; Stuttgart u. Leipzig
Egypte (L') : Aperçu hist. et géogr. Gouvern. et instit. Vie écon. et sociale; le Caire 1926.
Engelbach (R.) : Mechanical and Technical Processes. Materials; "The Legacy of Egypt".
Erman (A.) : A Handbook of Egyptian Religion; transl. from German; London 1907.
Erman (A.) : The Literature of the Ancient Egyptians; transl. from German; London 1927.
Flaubert (G.) : Tentation de Saint Antoine.
France (A.) : Thaïs.
Frankfort (H.) et Al. : Before Philosophy; "Penguin"; London 1954.
Gardiner (A.H.) : Writing and Literature. "The Legacy of Egypt".
Gauthier (H.) : L'Egypte pharaonique; "Préc. de l'hist. d'Eg.", T. I; le Caire 1932.
Ghallab (M.) : Les surivances de l'Egypte antique dans le folklore égyptien; Paris 1929.
Ghorbal (M.C.) : The Beginning of the Egyptian Question & the Rise of Mehemed Ali; London 1928.
Ghorbal (M.C.) : The Making of Egypt; Cairo s.d. (1957 ?).
Gibbon (E.) : A History of the Decline & Fall of the Roman Empire.
Glanville (S.R.K.) éditor : The Legacy of Egypt; Oxford 1942.
Grousset (R.) : L'Egypte des Croisades; Paris 1939.
Hammer (J. von): Histoire de l'empire ottoman; trad. de l'allemand; 18 vol.; Paris 1835-1843.
Hanoteaux (G.) : Introduction générale; "Hist. de la nation égyptienne". T. I; Paris 1931.
Hénaut (de) : Manuel d'histoire de l'Egypte, de Ménès à nos jours; le Caire 1927.
Herbelin (A.) : La fresque égyptienne aux tombeaux des nobles à Thèbes; Rev. conf. fr. en Orient, le Caire 1949.
Herodotus : History; Rawlinson's translation.
Herriot (E.) : Sanctuaires.
Herz (Max) : Catalogue raisonné du Masée national de l'art arabe; le Caire 1906.
Heydt (W.) : Histoire du commesce du Levant au Moyen-Age; 2 vol.; Leipzig 1886.
Hocart (A.M.) : The Legacy of Modern Egypt; "The Legacy of Egypt."
Jéquier (G.): Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquète d'Alexandre; Paris 1913.

Joinville (J. Sire de) : Histoire de Saint Louis; transt. from old French by F.T. Margials; London 1908.
Jones (A.H.M.) : Egypt and Rome; "The Legacy of Egypt".
Jouguet (P.) : L'Egypte gréco-romaine; Préc. de l'hist. d'Egypte", T.I.; le Caire 1932.
Jouguet (P.) : L'Egypte prolémaïque; "Hist. de la nat. ég."; T. III. Paris 1933.
Kayser (E.) et Roloff (E.M.) : Histoire d'Egypte; trad. de l'allemard; Paris s.d.
Kingsley (C.) : Hypatia.
Lambrino (M.) Encyclopédie par l'image : l'Egypte; Paris 1930.
Lane (E.) : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians; London 1836.
Lane-Poole (S.) : The Art of the Saracens in Egypt; London 1886.
Lane-Poole (S.) : Cairo, sketches on its History, Monuments & Social Life; London 1898.
Lane-Poole (S.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London 1898.
Lane-Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages; London 1900.
Lange (K.) & Hirmer (M.) : Egypt; "Phaidon Press"; London.
Legrain (G.) : Louqsor sans les Pharaons; Paris 1914.
Leibovitch (J.) : Ancient Egypt; transl. from French; Cairo 1938.
Lot (F.) : La fin du monde antique et le début du Moyen-Age;Paris 1927.
Loti (P.) : La mort de Philae.
Lucan : Pharsalia; transl. from Latin; "Penguin"; London 1956.
Lyons (H.) : Geographical & Ethnographical Notes; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
Maillet (B. de) : Description de l'Egypte; Paris 1735.
Marcel (J.) : L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française; Paris 1848.
Mariette (A.) : Voyage en haute Egypte; Paris 1893.
Martin (H.)sous la dir. de : L'Art égyptien,grammaire de style; Paris 1929.
Maspero (G.) :Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique; 3 vol.; Paris 1895-1899.
Maspero (G.) : L'Archéologie égyptienne; Paris 1907.
Maspero (G.) : Les contes populaires de l'Egypte ancienne; Paris 1911.
Maspero (G.) : L'Egypte; "Ars Una"; Paris 1911.
Maspero (J.) : Histoire des patriarches d'Alexandrie; Paris 1923.
Maspero (J.) : Horapollon et la fin du paganisme égyptien; le Caire 1914.
Mekhiterian (A.) : La peinture égyptiene; éd. Skira; en Suisse 1954.
Migeon (G.) : Manuel d'art musulman; Paris 1927.

Milne (J.G.) : A History of Egypt under the Roman Rule; London 1924.
Montet (P.) : La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès; Paris 1946.
Moret (A.) : Mystères égyptiens; Paris 1922.
Moret (A.) : L'Egypte pharaonique; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. Hanoteaux; T. II, Paris 1931.
Moret (A.) : Le Nil et la civilisation égyptienne; Paris 1926.
Moret (A.) et Davy (G.) : Des clans aux empires; Paris 1923.
Munier (H.) : L'Egypte byzantine de Dioclétien à la conquête arabe; "Préc. de l'hist. d'Eg."; T. II; le Caire 1932.
Musée du Caire : Description sommaire des principaux monuments; le Caire 1932.
Nasiri-i-Khusru : Sefer-Nameh; trad. du persan; Paris 1881.
Nerval (G de) : Voyage en Orient; 2 vol.
Nikiou (Jean de) : Chronique; trad. Zotenberg; "Notices et extr." des manuscr. de la Biblioth. nat. et autres; T. XXIV Paris 1883.
Oesterley (W.) : Egypt & Israel; "The Legacy of Egypt".
O'Leary (de Lacy) : The Coptic Church and Egyptian Monasticism; "The Legacy of Egypt".
Paton (A.A.) : A History of the Egyptian Revolution from the Mamlukes to the Death of Mohamed Aly, 2 vol., London 1870.
Perry (E.) et Al. : Le Moyen-âge; "Hist. gén. d. civilis.", dir. Crouzet; T. III; Paris 1954.
Petrie (F.) : Social Life in Ancient Egypt; London 1923.
Petrie (F.) : Arts et métiers de l'ancienne Egypte; trad. de l'anglais; Paris 1925.
Plutarque : Vies des hommes illustres; trad. D. Ricard, Paris 1837.
Poliak (A.N.) : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine & the Lebanon; London 1939.
Quatremère (E.) : Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrés voisines; 2 vol. Paris 1811.
Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte; 2 vol., Paris 1837-1844.
Rhoné (A.) : L'Egypte à petites journées; Paris 1910.
Roberts (C.H.) : The Greek Papyri; "The Legacy of Egypt."
Roncière (C. de la) : Géographie de l'Egypte à travers les âges; Hist de la nat. ég. "dir. Hanoteaux, T. I, Paris 1931.
Runciman (C) : History of the Crusades; 3 vols.
Sabry (M.) : L'empire égyptien sous Ismail; Paris 1933.
Sacy (S. de) : Relation de l'Egypte par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad; Paris 1810.

Samivel : Trésor de l'Egypte; Paris 1954.
Sammarco (A.) : Les régnes de Abbas, de Sa'id et d'Isma'il; Préc. de l'hist. d'Eg. T. IV, le Caire 1935.
Savary (C.E.) : Lettres sur l'Egypte; 3 vol.; Paris 1785-1786.
Seidl (E.) : Law; "The Legacy of Egypt".
Sewell (J.W.S.) : The Calender & Chronology; "The Legacy of Egypt".
Simaika (M.H.) : Guide sommaire du Musée copte; le Caire 1937.
Sloley (R.W.) : Science; "The Legacy of Egypt".
Smith (W) : History of Rome.
Smith (G. Elliot) : The Ancient Egyptians & the Origin of Civilization; London 1923.
Sottas (H.) et Drioton : Introduction à l'étude des Hièroglyphes; Paris 1922.
Steindorff (G.) : Outline of the History of Egypt. Hieroglyphics, Religion. Art; "Baedekor's"; Leipzig 1929.
Suetonius : The Twelve Caesars; "Penguin"; London 1957.
Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation. London 1930.
Thurman (Cap.) : Bonaparte en Egypte; Paris 1902.
Vandier (J.) : Egypte; peintures des tombeaux et des temples; U.N.E.S. C.O., Paris 1954.
Vattier : L'Egypte de Murtadi, fils de Gaphiphes trad-de l'arabe; Paris 1656.
Vaux (Carra de) : L'Abregé des merveilles; trad. de l'arabe; Paris 1898.
Villard (M. de) : Christian Art in Egypt; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
Volney (C.F.) : Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785; 2 vol., Paris 1787.
Weigall (A.) : The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt; London 1923.
Weigall (A.) : Alexandre le grand; trad. de l'anglais; Paris 1934.
Wertheim (O. von) : Cléopâtre; trad. de l'allemand; Paris.
Wiet (G.) : L'Egypte arabe, 622-1517 A.D.; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanotcaux; T. IV; Paris 1937.
Wiet (G.) : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane; Préc. de l'hist. d'Eg, T. II; le Caire 1932.
Wiet (G.) : Guide sommaire du musée national de l'art arabe; le Caire 1939.
Wilson (J.A.) : The Culture of Ancient Egypt (orig. "The Burden of Egypt"); Chicago 1958.
Worrel (W.) : A Short Account of the Copts; Michigan 1945.